



أحمد عبد الله الدامغ

الجزء الرابع



مركز سعود البابطين الخيري للتراث والثقافة
قسم الدراسات والبحوث والنشر
الرياض ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م



ⓗ احمد عبدالله الدامغ، ١٤٢٤ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الدامغ ، احمد بن عبدالله
الادب المثمن / احمد بن عبدالله الدامغ - الرياض، ١٤٢٤ هـ
١٦ مج. ، ٣٣٦ ص ، ١٧ x ٢٤ سم
ردمك: ٥-٣٣١-١٠-٩٩٦٠ (مجموعة)
٣-٣٣٢-١٠-٩٩٦٠ (ج ١)
١- الادب العربي - مجموعات أ- العنوان
ديوي ٨، ٨١٠ ١٤٢٤/٢٧٧٣

رقم الإيداع: ١٤٢٤/٢٧٧٣
ردمك: ٥-٣٣١-١٠-٩٩٦٠ (مجموعة)
٣-٣٣٢-١٠-٩٩٦٠ (ج ١)

المملكة العربية السعودية ص.ب ٩٣٩٢٧ الرياض ١١٦٨٣ هاتف ٤٨٧٠٥١٣
فاكس ٤٨٧١٤٢٧ / ٣٦
الموقع على الأنترنت
www.albabtain-center.com
البريد الألكتروني:
E-mail: info@albabtain-center.com



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـة

أيها القارئ الكريم، هذه هي الصفحة الأولى من الجزء الرابع من مؤلَّفي «الأدب المثمن». وهي بحكم موقعها من هذا الجزء تمثل بداية الانطلاقة في تصفح الموضوعات التي لا تقلّ في قيمتها الأدبية والثقافية عمَّا احتوته الأجزاء الثلاثة التي تقدمت هذا الجزء.

فعلى بركة الله ابدأ رحلتك مع موضوعاته المتعددة، وإن كان لي إليك طلب فهو عدم حرماني وجميع المسلمين من دعائك بالمثوبة من الله، فنحن جميعاً بحاجة لكل دعوةٍ صالحة يفوه بها لنا في ظهر الغيب كل مسلم.

هنا والله أسأل أن يعفو ويصفح عن كل خطأ وزلل إنه هو العفوّ الغفور.

المؤلف أحمد عبد الله الدامغ
ص.ب: ٤٠١٣٨ الرياض ١١٤٩٩



نظرات في مستوى الأدب السعودي المعاصر

إذا جاز لي أن أصف الأدب السعودي المعاصر، فإنه أشبه ما يكون بالطائر الذي درج من عشه بجناحين قويين مكّنتاه من التحليق في أجواء بعيدة عن عشه، ومدرج طفولته فصفقت له القمم العالية راغبة منه أن يستوطنها، وأومأت له كل كفّ تعرف حقيقة الأدب الرفيع ومعناه الصادق، طالبة إليه أن يبقى إلى جانبها.

وهو بهذه الصفة والواقع الملموس يكون قد أخذ مكاناً مرموقاً من العالمية، وصافح أكف مشاهير أدباء العالم وعانق خيالاتهم وأفكارهم بسموّه وصفائه ونقائه.

ولعل الشعر قد كان أحد العناوين البارزة للأدب السعودي، حيث غطّى مساحة كبيرة من جغرافية أدب العالم العربي، وساهم مساهمة فعالة في بناء منبر الشعر في الأندية الأدبية والندوات العالمية. ولا غرو أن يحصل منه هذا الشموخ وذاك الاتقاد فهو جذوة من نار قد خبأت حينما درست معالم عكاظ وذي المجنة، والمجاز وغيرها من الأسواق الأدبية التي كانت تقام في الجزيرة العربية من العهد الجاهلي.

وتستولي عليّ الحيرة في اختيار شاهد على اليقظة الأدبية المعاصرة؛ لأن النماذج كثيرة من النثر والشعر، ووفقاً لشرط منهج تأليفي لهذا الكتاب فإنه لا بد من الاستشهاد بشيء من الشعر، ولكن كيف أختار وأمامي عشرات الأسماء من الشعراء البارزين.

وبلا اختيار وردت إلى ذاكرتي أبيات للشاعر والأديب والمفكر السعودي معالي الأستاذ حسين عرب، فكانت أقرب شيء أسوقه كشاهد



على سموق الأدب السعودي وسموّه وأصالته. يقول حسين عرب:

أيا جارة الوادي ظمئنا وحولنا
ينابيع من داريك ما نستبيحها

تصدر منها كل غاد ورائح
وفاض عليهم ثرها وشحيحها

وقفنا عليها، واجمين وأمسكت
بنا عزة في النفس ليست تبيحها

أقول لركب مدلجين رويدكم
ركائبكم أولى بها من يريحها

فما كل من غذّ المسير بمدرك
رغائبه إن لم تراوحه ريحها

وفي النفس آمال ولكن تذودها
عن النفس آلام تنزّت جروحها

يطول بنا الدرب القصير وتنطوي
بأعمارنا الأيام يزرى كلوحها

وكم قرحتنا والليالي طويلة
نهابير تدمي في الحشايا قروحها

○○○○○

العوجـا

للحرب والدعوة إلى المضي إليها أساليب ووسائل مختلفة منها العبارات، والنداءات المهيجة التي تذكي حماساً في النفوس ليقف المقاتلون صفاً واحداً متحد الإرادة ومنتظم العزيمة.

ومن تلك الأساليب: الأراجيز الشعرية، والكلمات التي لها مدلول يثير في النفوس الحماس والتصميم على مواجهة العدو.

و«العوجا» كلمة لها وقع خاص في نفوس أهل نجد عامة، والعارض خاصة، والعارض هو الذي يشكل نقطة الوسط في منطقة نجد تقريباً، ويشمل مدينة الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية وما حولها، والتي منها انطلق صوت القيادة الحكيمة والإرادة الرشيدة التي ناصرت الدعوة الإسلامية، واندمجت معها اندماجاً شكّل قوة وعزيمة مباركة قامت بتوحيد أجزاء المملكة بالسيف والكتاب الذين حملهما ذلك الاتحاد الذي نهج سياسة أبوية منبثقة عن عقيدة صادقة وسلامة نيّة.

وقد كان انطلاق ذلك الاتحاد يمضي قدماً حداؤه «أهل العوجا»، ولهذا فإن لهذه الكلمة بأهل العارض ولهم بها صلة عندما يختل ميزان القسطاس الذي نصبوا أنفسهم لحمايته، وحققوا لنا به وحدة متكاملة لا فرق بين صغيرها وكبيرها ولا حاكمها ولا محكومها أمام القضاء الذي كان العمل بمقتضاه من أهم ما سعى إلى تحقيقه، ذلك الاتحاد، الذي لا يعد أي فرد منه إلّا أباً لمن هو دونه، وأخاً لمن هو في مستواه، وابناً لمن هو أكبر منه.

والشاعر المعاصر عبد الله بن محمد بن خميس ذكر شيئاً من



الصفات الحسنة والأفعال الحميدة التي كان يراد بها وجه الله، وحماية الدين، ووحدة الكلمة. في قصيدة طويلة تبلغ نحواً من واحد وعشرين بيتاً وعنوانها: «أمام التاريخ في العاصمة الأولى» الدرعية، منها قوله:

لها غابر من وارف المجد شافع
وعون من الفعل الجميل بدائع

أشارت إلى الدنيا بإصبع هيبة
له الحق ردء والعقيدة وازع

فللهدى ما يدعو إليه محمد
يقرره طوراً وطوراً يدافع[1]

ويحميه من عيث الغواة محمد
فيهدي إليه تارة ويقارع[2]

وبينهما قامت على العدل دولة
تشير إليها بالخلود الأصابع

أجادوا فنون الحرب من عهد تبع
كأن المنايا إن لقوها مراضع

إذا سمعوا (العوجا) تداعوا كأنهم
ظماء دعتها للورود شرائع

هم القوم يُدْعى الوفاء فإنهم
ذووه وإن يدعى الوغى فطلائع

○ ○ ○ ○ ○

(١) المقصود: محمد بن عبد الوهاب.

(٢) المقصود: محمد بن سعود.

فلسفة الشعر في رحلة الحياة

لعله من المسلّم به: القول بأن الحياة التي يحياها الإنسان ما هي إلّا موصل بين نقطتين: ـ نقطة بداية، ونقطة نهاية ـ وأن المسافة بينهما هي ميدان حركة ذلك الموصل الذي يمثل الرحلة الإنسانية من المهد إلى اللحد. وتعد كل خطوة يخطوها الإنسان نحو نقطة النهاية في تلك الرحلة ذهاباً لا رجعة معه إلى نقطة البداية التي انطلق منها.

ومن نقطة النهاية التي يستحيل العودة منها تكون انطلاقةٌ نحو بداية أخرى هي البعث والنشور. والمنطلقون منها لا يمرون بمراحل تدريجية يتنقَّلُ فيها العمر من مرحلة إلى أخرى حتى يصل به الأمر إلى نهاية المطاف الدنيوي، وإنما هم ينسلون من الأجداث على هيئة اكتمال شخصياتهم، ويفزعون إلى الحشر حيث ينصب الصراط ويكون التقاضي، ويحصل الإنصاف، وتسترد الحقوق.

وهذه الحقيقة يكون فيها للشعراء المطبوعين وقع يخالج كل نفس مؤمنة بواقعها ومصيرها حيث يصدق الوصف التصويري لفلسفة واقع الرحلة، فتعشق الأذن حسن سَبْكه وعرضه فيكون الإصغاء إليه، والاستمتاع ببديعه، وتناسق ألفاظه، وترابط عباراته أمراً طبيعياً.

والشاعر السعودي المعاصر عبد الرحمٰن صالح العشماوي، يطرب كل أذن حينما تتناول خاطرته الشعرية موضوعاً توجيهياً يضرب بحسه الصادق في عمق النفس، ويسري بقوته المغلفة باللباقة وحسن التعبير إلى مواطن الادّكار ومراكز التأمل في الإنسان.

وقصيدة العشماوي «رحلة» واحدة من القصائد التي تتجلى فيها



خواطره المعبرة عن الواقع، والتي فيها يتمازج الأسلوب الفلسفي مع الواقع المنطقي لرحلة الحياة. ومن قصيدته«رحلة» قوله:

رحلة والزمان فيها محيط
تاه فيه السفين والبحّار

عمرنا في مدى الحياة رحيل
ليلةٌ تنطوي ويأتي نهار

والطريق الطويل سهل وحَزْنٌ
وديار مسكونة وقفار

وقصور فيها تشاد وتبْنى
وقصور في صمتها تنهار

ومنها قوله:

وغنيٍّ سعى فلما تناهى
في الغنى مات وانتهى المشوار

ورحى الموت لا تمل طوافاً
كل يومٍ على العباد تُدار

عجبي للذي يُصَعّرُ خداً
وهو غصن تهزه الأقدار

أفمن كان في يديه حسام
كالذي في يديه دفٌّ وطار

○○○○○

متابعة

طرب الأديب المربي عثمان الصالح لقصيدة قدمها الشاعر السعودي المعاصر بدوي راضي للأمير فهد بن سلمان ونشرتها جريدة «اليوم» السعودية، فكان لطرب أديبنا من تلك القصيدة متابعة جيدة حيث كتب إلى جريدة «اليوم» يستحثها على احتضان مثل الشاعر بدوي راضي، وذلك لما لمسه من جودة في بناء القصيدة، وقوة في شاعرية بدوي، وصفها بأنها تجديد نحا فيها منحى الشعر العباسي في حسن السبك وقوة اللفظ وجزالة المعنى.

وهذه المتابعة من شيخنا عثمان الصالح تحملني على مخاطبة أدبائنا وكتابنا وشعرائنا رعاهم الله، والطلب إليهم بانتهاج هذا النهج من المتابعة حتى لا تنغمر المواهب وتندفن تحت ركام الأيام والسنين فلا نستمتع بما تصنعه من جديد يطرب النفس، ويكتم أنفاس المتجرئين على القلم والمتشاعرين الذين ملؤوا ساحة الشعر بما يصم الآذان، ويزكم الأنف، ويرهق النفس من خزعبلات يرفضها الذوق الأدبي.

وفي تلك المتابعة الطيبة الجديرة بالإشارة حثّ الأديب المربي الأستاذ عثمان الصالح على استكتاب الشعراء والكتّاب، الذين يلمس منهم الإبداع والنبوغ بلفتة أدبية يجب مراعاتها والأخذ بها. أمّا عن إعجابه بشاعرية بدوي راضي فقد تمثل في التعليق على عدة أبيات من القصيدة التي تقدمت الإشارة إليها، منها:

أكـرمـتـنـي وأشـرت بـالـكـتـمـان

فـأضـفـت إحـسـانـاً إلـى إحـسـان



هل أكتم الغيث الذي جدتم به
فسقي الربا فانساب في الوديان

ومن هذه القصيدة أيضاً قوله:

يا سيدي والشعر مرآة لما
بالنفس من صدق ومن عرفان

ومنها أيضاً:

من يلق فهداً أو يتابع نهجه
يلقى المنى.. وحلاوة الإيمان

ومنها قوله:

قالوا أمير لفظه عن منطق
قلت ابن معرفة وبحر معاني

قالوا شجاع في قرار عادل
قلت الشجاعة شيمة الشجعان

قالوا له في كل قلب موقع
قلت اسألوا قلبي وكل كياني

مُلِئَ الفؤاد بحبه وبعطفه
فغدوت لا أقوى على الكتمان

ونظرتي لهذه المتابعة تحملني على تفسيرها بأنها وجهة نظر تعميمية لجميع الإخوة رؤساء تحرير صحفنا ومجلاتنا، وليست مقصورة على صحيفة «اليوم».

○○○○○

في زورقي

أرى كثيراً من الشعراء قد اتخذ له زورقاً يعبُّ فيه فيافي الحياة ويقطع به نهر العمر، فتراه كل ما حَزَبَهُ أمر ركب زورقه وخاض به الميدان الذي اضطرته الظروف إلى التجوال فيه، والتنقل في أرجائه.

وللشاعر الذي عاش على موانئ البحار، وشطآن الأنهار، بعض العذر حينما يلجأ بطبيعة الحال إلى ركوب الزورق؛ لأنه عرف الزورق كوسيلة نجاة، وكآلة تقطع المسافات البحرية والنهرية.

لكن الغريب في الأمر أننا نرى شعراء عاشوا في قلب الصحراء لا يعرفون البحر إلا باسمه ولا النهر إلّا برسمه أو بالوقوف عليهما في رحلات استكشافية خاطفة، قد عشقوا الزورق عشقاً تخيلاً، فاتخذوه مطية وجابوا به البراري والقفار؛ بل ربما سبحوا به في فضاءات فكرية تنداح خواطرها فتبلغ بها أقاصي الآفاق.

ولشدة عشق الشعراء للزورق نجد منهم من جعله عنواناً لمؤلّفه، فهذا مثلاً الأديب والكاتب والشاعر المجيد الأستاذ عبد الله بن عبد العزيز بن دريس قد أصدر ديوان شعر له فجعل عنوانه: «في زورقي».

والشاعر عبد الله بن دريس ما هو إلّا ابن الصحراء بل هو قروي ولد في بلدة حرمة الواقعة في منطقة سدير التي تشغل مساحة كبيرة في قلب الجزيرة العربية التي لا يتخللها بحر ولا نهر.

ومع هذا نراه متأثراً بالزورق وأفاعيله، بدليل تسمية ديوانه به كما



أسلفت بالإضافة إلى أنه من بين قصائد ذلك الديوان قصيدة طويلة عنوانها: «في زورقي»، منها قوله:

ربّاه بلّغ بالسلامة زورق الحلم الجميل
فهنا أعاصير الشقاء تفح من خلف الأصيل
وهنا شراعي لامس الموج المجنح في ذهول
وتلفت القلب الشّجي فهاله الأمس الثقيل
فإلى الأمان لشاطئ نتنسم الريح العليل

ومن هذه القصيدة قوله:

إن العبور إلى الأمان لخطوة الشهم النبيل

ومنها قوله:

ولقد سئمت وعاقني عن مطمحي الليل الطويل
فتنفس الأصباح عن نور أضاء لي السبيل

○ ○ ○ ○ ○

أبو دلامة.. هو زند بن الجون

أبو دلامة، هو زند بن الجون. كان والده الجون عبداً لرجل من بني أسد كوفي يدعى فضافض وحيث أن ـ زنداً ـ اسماً نادراً عند العرب فقد ورد فيه بعض التصحيفات، فمنهم من يقول: ـ زيد ـ ومنهم من يقول: ـ زبد ـ بالباء، وأجمع المحققون لاسمه أنه ـ زند ـ وقد اتفق على أنه شاعر كوفي أسود وأنه كان مخضرم الدولتين الأموية والعباسية. وقد قيل: إن شاعريته لم تظهر إلا في العصر العباسي، وقد أشاع بشعره روح الدعابة والفكاهة في قصور الخلفاء، وقد انقطع إلى أبي السفاح أوّل الخلفاء العباسيين وإلى أبي جعفر المنصور ثم إلى ابنه المهدي.

وقد غلب على اسمه لقب أبي دلامة فسمى ابنه ـ دلامة ـ؛ وأبو الفرج الأصفهاني يرجح أنه كني باسم جبل بمكة يقال له: أبو دلامة. كانت قريش تئد فيه البنات في الجاهلية وهو بأعلى مكة.

ولم تذكر المصادر تأريخاً دقيقاً لولادة أبي دلامة غير أنهم يجمعون على أن ولادته إما أن تكون في نهاية القرن الأول الهجري أو بداية القرن الثاني. أما وفاته فقد ذكر ابن خلكان وغيره أنه توفي عام ١٦١ هجرية.

ومن دعاباته أنه لما خرج المهدي وعلي بن سليمان إلى الصيد فسنح لهما قطيع من ظباء أرسلت الكلاب وأجريت الخيل، فرمى المهدي ظبياً بسهم فصرعه، ورمى علي بن سليمان فأصاب بعض الكلاب فقتله فقال أبو دلامة:

قد رمى المهدي ظبياً
شك بالسهم فؤاده



وعلي بن سليما
ن رمى كلباً فصاده

فهنيئاً لهما كل امـ
ـرئ يأكل زاده

فضحك المهدي وأمر له بجائزة سنية. أما علي بن سليمان فلقب ـ صائد الكلب ـ وعلق به هذا اللقب.

ويذكر أبو الفرج الأصفهاني أن أبا دلامة دخل على المهدي وهو يبكي، فقال له: مالك؟، قال: ماتت أم دلامة وأنشده لنفسه فيها:

وكنا كزوج من قطافي مفازة
لدى خفض عيش ناعم مؤنق رغد

فأفردني ريب الزمان بصرفه
ولم أر شيئاً قط أوحش من فرد

فأمر له بثياب وطيب ودنانير، وخرج فدخلت أم دلامة على الخيزران فأعلمتها أن أبا دلامة قد مات، فأعطتها مثل ذلك وخرجت، فلما التقى المهدي والخيزران عرفا حيلتهما فجعلا يضحكان لذلك ويعجبان منه.

وقد قال أبو دلامة في أبي مسلم الخراساني عندما قتله الخليفة المنصور:

أبا مجرمٍ ما غيّر اللّه نعمة
على عبده حتى يغيّرها العبدُ

أبا مجرم خوّفتني القتل فانتحى
عليلك بما خوّفتني الأسد الورد

أفي دولة المهدي حاولت غدْرةً
ألا إن أهل الغدر آباؤك الكرد

صورة من الشعر السياسي

وإذا ما استعرضنا أنواع الأسلحة المحسوسة التي يجابه بها العدو، وجدنا الشعر واحداً من الأسلحة التي تشهر في وجه العدو، وأنه كان وسيلة قديمة وحديثة معاً للمنافحة عن الحق المهضوم، وأسلوباً من الأساليب التي تتخذ لاسترجاع ما اغتصب من أرض أو مال، وذلك بإنشاء القصائد التي تهيّج وتحث على أخذ الثأر ممن ظلم وطغى.

والذي يقرأ شعر الشعراء الذين كان لهم إحساس بما يعانيه المظلوم من ثقل وطأة الظالم الذي يستعمر الأرض ويمتص الدم، ويعيش على سلب واغتصاب كل ما تقع عليه عينه وتصل إليه يده، يجد زخماً لا بأس به من القصائد والمقطوعات الشعرية.

ولقد عني في الآونة الأخيرة بعض المؤلفين بجمع شعر الحرب والشعر السياسي، فاقتطفوا من القصائد كل ما له علاقة بالسياسة والحرب وجعلوها تستقر تحت عنوان تعرف به، ويمكّن من الرجوع إليها.

ولقد ساهم الشاعر السعودي المعاصر بصفة عامة في كل قضية يضطهد أصحابها. ولعل أحدث ما قرأته مما أستطيع تسميته بالشعر السياسي، هي تلك القصيدة التي قالها الشاعر السعودي المعاصر عبد الرحمٰن عبد الله الواصل ونشرتها جريدة «الجزيرة» في عددها ٦٤٢٦، الخميس ٨ شوال عام ١٤١٠ هجرية، وهي قصيدة طويلة بلغت ستة وأربعين بيتاً، استهلها بقوله:

كيف أنسى وقصتي تتجدد

وصدى صرخة الردى يتردد



ومنها قوله:

مطلبي أن أكون حراً وأرضي
حرة دينها شرعة أحمد

ومنها قوله:

اليهودي والحوادث تدري
أنه أجبن الورى يتوعد

قدّمت أمريكا له الدعم حتى
زاد غياً وزاد ظلماً يعربد

دولة البغي يا حليفة شعب
حين يسمو به الخنا يتجسد

ومنها قوله:

فمن الغرب زودت بسلاح
ومن الروس بالرؤوس تزود

ويشير إلى الحالة السياسية القائمة في الدول العربية إشارة تحقق أنها مغلوبة على أمرها من قبل الساسة الكبار، الذين يملكون الأسلحة الفتاكة التي يملون بواقعها منهجهم السياسي الشبيه بالمسرحية التي كلما انتهى منها فصل، زيد فيها فصل ذا مشهد مرعب.. يقول:

في يد الساسة الكبار غدونا
لعبة كلما احتمت تتعقد

كلما قارب نهاية فصل
زيد فيها من الجرائم مشهد

○○○○○

التاريخ يخلد أبناء الشعراء

وبعض الشعراء يسجل أسماء أبنائه في سجل التاريخ، وذلك كأن يخصهم بشيء من قصائده، إما بمجرد دافع العاطفة والحنان الذي يغمر قلبه وإما لذكر حادث مرّ به ابنه أو ابنته.

والذي يتتبع أقوال الشعراء في أبنائهم يجد أشعاراً كثيرة أوجدتها مناسبات مختلفة، منها الأفراح ومنها الأتراح، وتأثر الأب الشاعر بأي منها يثير فيه شاعريته إثارة تتمخض عن قصيدة يسجل فيها الموقف الذي تعرض له ابنه أو ابنته.

فمعالي الدكتور الشاعر السعودي المعاصر غازي عبد الرحمٰن القصيبي قد سجل ابنته «يارا» في صفحة التاريخ، حينما حرّكت مناسبة زواجها عواطفه فولدت قصيدة بديعة استعرض فيها ذكريات طفولة يارا وما فيها من براءة وطهر إلى أن صارت عروساً تزف إلى زوجها، وذلك بأسلوب تساؤلي يفيض حناناً ورقة وعطفاً. يقول في تلك القصيدة:

العمر أنت ورياه ورونقه
وأنت أطهر ما فيه وأصدقه

يارا؟ أم الحلم في روحي يهدهده
يارا؟ أم اللحن في قلبي يموسقه

ثم يمضي في تساؤلات يحاول أن يستعيد بشيء منها ذكريات طفولتها:

أطفلة الأمس هذي؟ أين دميتها؟
وأين مهد أبات الليل أرمقه



أين الحصان الذي كانت تلقبه؟
«بابا» تكبله حيناً وتعتقه

ثم يحدد السن الذي بلغته حين زواجها قائلاً:

تسع وعشر من الأعوام!! كيف جرى
بنا الزمان يكاد البرق يلحقه؟

ثم يعود إلى التساؤلات التي تثير ذكريات مرّت بها، وذلك بقوله:

وأين قفزتها إن عدت من سفر
تهوي على عنقي عقداً يطوقه؟

والإجابة على هذه التساؤلات تأتي في قوله:

أهي العروس التي يختال موكبها؟
شيء أراه.. ولكن لا أصدقه!!

وقبل البيت الأخير من تلك القصيدة الرائعة يصف ابنته «يارا» بأنها وردة قلبه، إذ يقول:

يا وردة القلب حيّتك الورود.. وما
للورود نفح عبير منك أنشقه

○ ○ ○ ○ ○

صدى الذكرى

تمر على الإنسان سنوات سعيدة وكأنها طيف زائر في ليلة شتاء حالمة فإذا ما انقضت وتصرمت أيام وليالي تلك السنوات التي بلغ فيها سعده حسن طالع سعوده أخذ في التدبر والتفكر فيما مضى وانقضى لكن تفكره هذا لا يحقق له إعادة ذلك الماضي السعيد فتبقى أشواقه التي كانت تعانق الأماني وتنقلها الآمال بأجنحتها إلى الواقع معطلة بل مكسورة الجناح فلا تزيده الذكريات إلا هماً وغماً وأسىً على ما فات.

ولم يعد يملك سوى ترداد الذكريات التي يلتمس فيها التسلية، والعزاء في التحول الذي انتهى إليه.

قال أبو علي القالي في كتاب «الأمالي»: وأنشدني أبو بكر بن دريد رحمه الله. قال: أنشدنا عبد الرحمٰن عن عمه لرجل من بني كلاب:

سقى اللّه دهراً قد تولت غياطله
وفارقنا إلا الحُشاشةَ باطله

ليالي خِذْني كل أبيض ماجد
يُطيع هوى الصبي وتُعْصَى عواذله

وفي دهرنا والعيش إذ ذاك غِرّة
ألا ليت ذاك الدهر تُثنى أوائله

بما قد غنينا والصبا جُلّ همنا
يمايلنا ريعانه ونُمايله

وجرّ لنا أذيالَه الدهر حقبةً
يطاولنا في غيِّه ونطاوله

فسقيا له من صاحب خَذَلَتْ بنا
مطيّتُنا عنه وولت رواحله

أصدٌّ عن البيت الذي فيه قاتلي
وأهجره حتى كأني قاتله

ويقول ثمامة بن عامر البجلي:

وإن عجبت ففي الأيام مَعْجبةٌ
في كل حال ينقلن الفتى دُولا

○ ○ ○ ○ ○

فعل الأيام في الأنام

تمضي الحياة على متن الأيام المتتابعة وتمضي الأنام مع مضيها، ويستمر تعاقب الأمم. فهذه تهلك وتلك قائمة على شؤون الحياة ومسارح الدنيا تشهد بأم عينها مهلك الأولى، وأخرى تنشأ لتستقبل الدنيا وتمارس الحياة.

وتبقى التجارب ماثلة للأجيال المستجدة كميراث يستفاد منه ويستزاد به لمسيرة الحياة.. وتختلف الأساليب التي تصور التجارب التي مرت بها الأمم السالفة بحسب نوعية النشاط الذي كان ممارساً آنذاك.

والمتتبع للتراث الموروث يجد أصنافاً من الحكمة لا حصر له وتستوقفه الوصايا والتحذيرات التي تفيض بها الأسفار وتعبق بها صفحات التاريخ.

ولعل أكثر ما تشير إليه أخبار الأمم السالفة هو التحذير من تقلبات الزمان بصورة دقيقة توضح ما تفعله الأيام في الأنام. جاء في ـ أمالي القالي ـ أن أبا يعقوب الصغار أنشد لداود بن جهوة:

أقاسي البلا لا أستريح إلى غدٍ
فيأتي غدٌ إلا بكيت على أمسي

سأبكي بدمع أو دم أشتفي به
فهل لي عُذْرٌ إن بكيت على نفسي

سلام على الدنيا ولذة عيشها
سلام غُدوٍّ أو رواحٍ إلى رمسي



وأنكرتُ شمس الشيب في ليل لمّتي
لعمري لليلي كان أحسن من شمس

كأن الصبا والشيب يطمس نوره
عروس أُناس مات في ليلة العرس

ويقول عَدِي بن حاتم الطائي:

أصبحت لا أنفع الصديقَ ولا
أملك ضراً للشانئ الشرس

وإن عدا بي الكميت منطلقاً
لم تملك الكفُّ رجعة الفرس

أصبحتُ حُشاً مُميّتاً خلقاً
قلبي لحب الحياة في لبس

○○○○○

الزورق

الزورق مطية بحرية تشبه عند البحّارين الجواد عند الصحراويين. ولهذا فإنه بمثل ما يتغنّى صاحب الأسفار في القفار بفرسه ويصفها بسرعة جريانها وانحرافاتها، وخفة انعطافها، وانحطاطها من الحزن المرتفع إلى السهل المنبسط. كذلك البحّار يصف زورقه وقوة مواجهته للأمواج وشق صدر البحر، واجتياز الأثباج. وبهذه المقارنة فإن اعتداد البحّار بزورقه كاعتداد الفارس بجواده.

أما الشعراء فهم يمتطون دائماً الزوارق في أشعارهم ويجوبون بها بحار الخيال وأرجاء الدنيا بحثاً عن حبيب أو مقاواة لقوة مضادة لهم، أو اتخاذه وسيلة لوصف أهوال البحر ومصارعة أمواجه العاتية. ولهذا فقد تساوى في الامتطاء الصّوَري للزورق شاعر في جوف الصحراء، وشاعر على سيف البحر فالكل منهم يأخذ مجدافه ويحرك زورقه نحو الوجهة التي ترامت إليها الخاطرة الشعرية التي دعته إلى تحريك مجاديف ذلك الزورق.

والشغف بامتطاء الزورق أوجد لدى كثير من الشعراء استحساناً حملهم على عنونة بعض قصائدهم ومؤلفاتهم بـ«الزورق»، أذكر من ذلك ديوان واحد من أبرز أدباء وشعراء المملكة العربية السعودية هو الأستاذ عبد الله بن دريس وقد أسماه «في زورقي».

أما القصائد التي طاب لأصحابها عنونتها بالزورق فلا مجال لإحصائها. والذين يبحرون في زوارقهم كثيرون جداً منهم الشاعر السعودي محمد سعيد المشعان الذي عنون إحدى قصائده بـ«الإبحار» وهي قصيدة جيدة قوامها ستة عشر بيتاً، منها قوله:



يا زورقاً أنْحَلَ المجداف كاهله
وهام في صفحتيه الشوق والسفر

أما سئمت من التجوال شاهقة
منك الصَّواري وجوف اليم معتكر

وحولك الريح لا تنفك زائرة
وفوق صدرك عاتي الموج ينكسر

هلّا جنحتَ إلى أرض أضعتُ بها
لحناً يَحِنُ إلى تكراره الوتر

هلّا حَجَجْتَ إلى أعطاف نائية
يُجَنُّ فيها حداء الليل والمطر

لو كنتَ - يا زورقي مثلي - أخاوله
بدار - ليلى - لطاب الليل والسمر

يا زورقي ضقتُ بالتجوال واحترقتْ
جوانحي لهفة. والقلب منفطر

ويختم القصيدة بقوله:

سر أيها الزورق الطاوي جوانحه
على أمانِيهِ حتى يأذن القدر

○ ○ ○ ○ ○

الأعشى.. هو ميمون بن قيس

الأعشى واحد من أصحاب المعلقات، توفي سنة ٧ للهجرة، واسمه: ميمون بن قيس بن جندل بن شراحيل بن عوف. أنهى صاحب «الأغاني» نسبه إلى جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار، وكان أعشى العينين، فلقّب بالأعشى، وكنّي بأبي بصير تفاؤلاً له بشفاء بصره.

وسمي صناجة العرب؛ لأنه كان يُتغنى بشعره لِمَا كان في شعره من موسيقى ونغم وكان في أول عهده راوية لخاله المسّيب بن علس.

وكان يقال لأبيه: قيس بن جندل قتيل الجوع. سمي بذلك؛ لأنه دخل غاراً يستظل فيه من الحر فوقعت صخرة عظيمة من الجبل فسدت فم الغار فمات فيه جوعاً. وروي عن محمد بن سلام أنه قال: سألت يونس النحوي عن أشعر الناس فقال: لا أمي إلى رجل بعينه ولكني أقول: امرؤ القيس إذا غضب، والنابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب، والأعشى إذا طرب.

قال هشام بن قاسم الغنوي: وفد الأعشى إلى النبي ﷺ، وقد مدحه بقصيدة أعلن فيها إسلامه. فلما بلغ خبره قريشاً رصدوا له على الطريق وقالوا له: أين تريد يا أبا بصير؟. قال: أردت صاحبكم هذا لأسلم. قالوا: إنه ينهاك عن خلال كلها فيك. قال: وما هن؟ قال سفين بن حرب: الزنا. قال: لقد تركني الزنا وما تركته. ثم ماذا؟. قال: القمار. قال: لعلّي إن لقيته أن أصيب منه عوضاً من القمار، ثم ماذا؟ قالوا: الربا. قال: ما دنت، ولا أدنت، ثم ماذا؟. قالوا: الخمر. قال: أوه أرجع إلى صبابة قد بقيت لي في المهراس فأشربها.

فقال له أبو سفيان: هل لك في خير مما هممت به؟. قال: وما هو؟. قال: نحن وهو الآن في هدنة فتأخذ مائة من الإبل وترجع إلى بلدك سنتك هذه، وتنظر ما يصير إليه أمرنا، فإن ظهرنا عليه كنت قد أخذت خلفاً، وإن ظهر علينا أتيته. فقال: ما أكره ذلك. فجمعوا له مائة من الإبل فأخذها وانطلق إلى بلده فلما كان بقاع منفوحة رمى به بعيره فقتله. وقيل: إن الأعشى هو أول من سأل بشعره وأسجع به أقاليم البلاد.

أما حكايته مع المحلق الكلبي فمأثورة، خلاصتها أنه لما علم المحلق بقدوم الأعشى اتفق هو وزوجته على أن يضيفوه. ولما أقبل قام المحلق وأخذ بخطام ناقته فقال: من هذا الذي غلبنا على خطامنا؟ قال المحلق: قال الأعشى: شريف كريم، فأناخها ونحر له ناقته وأطعمه منها، وأحاطت بنات المحلق به. فقال: ما هذه الجواري؟ قال: هذه بناتي ثمانٍ شريدتهنَّ قليلة. فلما أتى سوق عكاظ امتدح المحلق بقصيدة طويلة ولما فرغ من إنشادها، نادى: يا معشر العرب هل فيكم مذكار يزوج ابنه إلى شريف كريم. فما قام من مقعده وفيهن مخطوبة إلا وقد زوجها، أما قصيدته فمنها قوله:

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة
إلى ضوء نار في يفاع تحرَّق

تُشب لمقرورين يصطليانها
وبات على النار الندى والمحلق

رضيعَيْ لبن ثدي أُمٍ تحالفا
بأسحم داج عَوْض لا نتفرق

يداك يدا صدق فكف مفيدة
وأخرى إذا ما ضُنّ بالزاد تنفق

ترى الجودَ يجري ظاهراً فوق وجهه
كـمـا زان مـتـنَ الـهـنـدوانـي رونـق

وأمـا إذا مـا أوّب الـمـحْـلُ سَـرْحـهـم
ولاح لـهـم مـن الـعـشـيّـات سـمـلـق

نفى الذم عن آل المحلق جفنة
كجابية الشيخ العراقي تفهق

يـروح فـتـى صـدق ويـغـدو عـلـيـهـم
بـمـلـئ جـفـان مـن سـديـف يُـدفـق

○ ○ ○ ○ ○

قلب أب

ولا أقصد بهذا العنوان «قلب، أب» تمييزه عن قلب الأم فإن كِلَا القلبين يغمرهما حنان الأبوة وفيض العاطفة المتناهيين تجاه أبنائهما. ولا غرو في ذلك ولا تعجباً، من ذلك؛ لأن إظهار أحد الأبوين أو كلاهما جانباً من الشعور الذي يخالج نفسيهما نحو أولادهما ليس مدعاة للتعجب.

وكيف يكون هناك تعجب وما أحد اعترض على قول من قال: (أبناؤنا أكبادنا تمشي على الأرض).

والعلماء الذين يبحثون في العلاقات التي تربط الناس ببعضهم يستطيعون تقدير قوة أية علاقة تربط بين شخص وآخر من خلال زوايا التجانس والتقارب أو ما إلى ذلك من الصلات التي تتمثل غالباً في وحدة اللغة أو العقيدة والدين.

أما تقدير قوة العلاقة التي تربط بين الابن وأبويه، فما استطاعوا لذلك؛ لأنها فوق كل تصور وأكبر حجم من كل ما تحتمله التقديرات لأية علاقة.. والاستدلال على صدق الحنان وحرارة العاطفة، ودقّة الشعور بما قاله الشعراء لا يتطلب بحثاً بقدر ما يتطلب وقتاً للاختيار؛ لأن هناك أقوالاً كثيرة كلها تعبر عن الحب الأبوي، لكن أحرها تعبيراً وأبلغها لغة وأشدها تأثيراً هو ذاك الذي يأتي معبراً عن حادث تعرض له الابن أو الابنة، أو موقف صعب مرّ به. والشاعر السعودي المعاصر عبد الرحمٰن صالح العشماوي عبّر عن جرح أصاب رأس صغيرته (حنين) بقصيدة طويلة نسبياً نشرتها جريدة «الجزيرة» في عددها رقم



٦٣٩٨، وتاريخ ١٠ رمضان سنة ١٤١٠هـ، تجلّت فيها روح العاطفة الأبوية بأسمى معانيها. من تلك القصيدة قوله:

لما رأيت دماً وجرحاً نازفاً
دار المكان ولج في دورانه
أبصرت شيئاً صارت الدنيا به
كوخاً صغيراً ضاق عن سكانه

ويخاطب الطبيب الذي قام بخياطة الجرح قائلاً:

رفقاً بقلبي يا طبيب ولا تدع
هذا المقص يلج في عدوانه
هذي الصغيرة يا صديقي قطعة
من نفس والدها ومن وجدانه
هذي حنين أما دريت بأنها
في قلب والدها محط أمانه

ويخاطب ابنته (حنين) قائلاً:

أبنيّتي مزقت قلبي قبل أن
تجري دموع أبيك من أجفانه

ولا ينسى العشماوي في هذا الموقف جراح أطفال فلسطين على يد أعداء الله ـ اليهود ـ في القدس وفي لبنان:

أبنيّتي كم طفلة مجروحة
في قدسنا الغالي وفي لبنانه

ثم يصور عظم مشاعر الأب نحو ولده تصويراً بليغاً. حيث يقول في ختام تلك القصيدة:

لو أبصر العاصي مشاعر والد
لبكى على ما فات من عصيانه

محمد منور من أنصار الشعر الحر
الذين يتخبطون في نقد الشعر الأصيل

وكما تطاول الشعر الحر في هذا الزمان ومدّ عنقه ليقول: إنني شعر، وليقنع الناس بمذهبه دون أن يذكر نسبه؛ لأن نسبه ساقط ودعيّ. فهو لفاظ ولعاب سام تحاول كل أمة اغترت في احتضانه أن تتخلص منه بتزويقه وتلميعه ليحسن في عين الأمة الأخرى فتستقبله دون أن تفكر في عيوبه ودخائله وسقوط نسبه. حتى إذا ما استقر عند الأخيرة راحت الأولى تحاول إثبات براءتها منه كما فعلت روسيا، وتفعله أوروبا بالنسبة له.

وفي عامنا هذا ١٤١٠ هجرية، ألقيت قصيدتان في المهرجان الشعبي السادس الذي يقام كل سنة بالجنادرية بالرياض لعرض تراث الجزيرة العربية. الأولى: للشاعر السعودي عبد الرحمٰن صالح العشماوي وعنوانها: «برقية شعرية» خاطب بها الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، فذكر شيئاً من حياته وشيئاً مما قاساه من تعذيب ليقر بأن القرآن مخلوق. والثانية: وأسميها الثانية تجاوزاً لأنها ليست قصيدة، وإنما هي كلام في كلام عادي لمحمد مفتاح الفيتوري، وعنوانها: «يوميات حاج إلى بيت الله».

أقول كما تطاول ذلك الشعر، وجد أنصاراً له كالأستاذ محمد عبد الله منور الذي نصّب نفسه حكماً بين القصيدتين اللتين قال عنهما: إنهما تشاجرتا في مهرجان الجنادرية. فراح يلتمس ما يعيب به الشعر الأصيل الذي بنى عليه العشماوي قافيته العريقة، وما وجد غير طولها



الذي تبلغ ١١٦ بيتاً، متجاهلاً أن موقف الإمام أحمد مع خصومه لا تستقطبه قصيدة أو قصائد. ومتناسياً أن الشاعر متى ما انسجم مع قافيته راح يبحث عن كل ما يتعلق بالقضية التي هو بصدد عرضها لتكتمل الصورة لدى من لا يعرف إلّا الخطوط الرئيسية منها.

ثم يتجه الأستاذ منور إلى كلام الفيتوري ليجعل منه المثل الأعلى في الشعر. ومما نقد به العشماوي أنه نقل قصة الإمام أحمد من كتب التاريخ، متناسياً بذلك أن الفيتوري نقل معظم كلامه من الأدعية المأثورة حرفياً، وذلك مثل قوله:

الحمد لك والشكر لك

والمجد لك

والملك لك

يا واهب النعمة يا مليك من ملك

لبيك لا شريك لك

لبيك لا شريك لك

فأي جهد شعري بذله الفيتوري في هذا؟ وأي جديد جاء به غير ما كنا ندرّسه أطفالنا في الابتدائية لنزرع في قلوبهم وحدانية الله، ولنعوّدهم على التحمد والشكر لله.

وبعد فلا بد من أن نعطر هذا الموضوع بثمانية أبيات نقطفها من قصيدة العشماوي، ومما خاطب به الإمام أحمد رحمه الله:

من أين أبدأ قولي أيها البطل
وأنت أبعد مما تطلب الجمل

كل القوافي التي استنفرتها وقفت
مبهورة وبدا في وجهها الوجل



ماذا تقول؟ وصرح العلم سامقة
أركانه وبناء المجد مكتمل

ماذا تقول قوافي الشعر عن رجل
كل يقول له هذا هو الرجل

شهمٌ - نعم - أيها الأصيل وفي
عينيه عزم به الأوصاف تكتمل

إذا رمى بصراً في مجلس هدأت
ضوضاؤه واستقر الناس واعتدلوا

وليس في كفه سيف يذل به
من لا يطيع ولا في ثوبه بلل

لكنها طاعة الرحمٰن عزّ بها
عزّاً له في حياة المصطفى مثل

○ ○ ○ ○ ○

تناقض يولد قصيدة!!!

وتحيط الصدف والموافقات المؤثرة التي تلوح في أجواء المواقف التي يجد الإنسان نفسه فيها بلا سابق موعد واتفاق. فيكون بتلك الإحاطة شبيهاً بعلامة استفهام داخل دائرة مغلقه.

وكأني بتلك العلامة الاستفهامية تقول: كيف حدث هذا التوافق؟. وكيف أن الظروف والصدف تحني المستقيم من الأشياء وتطوي ظله، ليتمكن كل ذي بصر وبصيرة من بني الإنسان من ملامسة ما على الطرفين من نقيضين أبيا الالتقاء في نقطة ظرفية واحدة.

ولتتحرك شفاه من له مقدرة على التعبير عن ذلك المشهد ووصفه كواقع يقوم به الدليل على أن للصدف تمخضات ومعطيات ونتائج. ويشترك في الصدف والتعبير عنها كل من الرسام والكاتب والشاعر، غير أن لكل واحد من أولئك الثلاثة أسلوبه وطريقة عرضه لصورة الصدفة التي برزت له ورسم أبعادها وحدّد معالم هيئتها.

والشاعر هو أسرع الثلاثة استجابة للتعبير عما يصادفه؛ لأنه لا يحتاج إلى تحضير قلم ومحبرة وريشة وألوان. فهو يشرع في رسم صورة الصدفة بمجرد وقوع عينه عليها ومن الصدف التي يبادر الشاعر إلى وصفها ذلك المشهد الذي لفت نظر الشاعر السعودي المعاصر سعد العوفي والمتمثل في التجاور الحاصل بين نقيضين أحدهما يمثل محطة بداية حياة الناس وهو مستشفى الولادة بالمدينة المنورة.. والآخر وهو محطة نهاية حياة الناس التي يمثلها مدافن ـ البقيع ـ بالمدينة المنورة.. حيث لا يفصل بين مستشفى الولادة والبقيع إلا شارع مما جعل نزيلات المستشفى وزوّاره يشاهدون عمليات دفن الأموات من خلال النوافذ.. وهذه صدفة برزت للشاعر العوفي



في نقطة ظرفية مكانية. فأوحى له ما فيها من تناقض بقصيدة طويلة نشرتها له مجلة «الشرق»، التي تصدر من الدمام بالمملكة العربية السعودية في عددها ٥٤٩، السبت شوال عام ١٤١٠ هجرية. من تلك القصيدة قوله:

لقد شاهدت عيناي بالأمس مشهداً
له الفكر يعنو والأباطيل ترتدُّ

حياة وموت واجتماع وفرقة
فأولاهما رفد وفي الآخر الفقد

هنا وافد بالبشر هلّت سماته
وفي الغرف الأعلا يهز به المهد

ومنها قوله:

ولكن من ألقى إلى الأرض نظرةً
سيشغله عن بهجة الفرحة الضد

يرى زمراً تأتي وتمضي حثيثة
إذا اما انتهى وفد أتى بعده وفد

وكل يواري في الرغام عزيزه
وما زال مفتوحاً لمن يا ترى لحد؟

ومنها قوله:

تصورت بين المهد واللحد فسحة
مداها إلى ركن من الركن يمتد(١)

وفي منتهى ذاك الممر انحباسة
عن السير قد تودي بمن خانه الجد(٢)

---

(١) يعني بالركن: ركن مقبرة البقيع، وركن مستشفى الولادة.

(٢) الجد هنا: الحظ.

النخلة

وإذا ما بحثنا في علاقة فئة من الناس بالنخلة، وجدنا لتلك العلاقة ارتباطاً وثيقاً وقديماً جداً.

والبحث في أسباب ذلك الارتباط يتشعب ويتفرع. ومن أقربها إلى الذهن. هو أن جسم الإنسان يحتاج بصفة مستمرة ودائمة إلى مادة ذات طعم حلو والنخلة أهم أحد مصادر الحلوى. وهي تكثر وتثمر في الأماكن التي تتكيف فيها الأشجار التي لها ثمر حلو يمد جسم الإنسان بسعرات حرارية كالموز و(المنقا) وغيره.. ولهذا فإن من يلقي نظرة عابرة على خريطة العالم يجد أن كل قطر لا بد وأن يكون به شجر يثمر بثمر حلو، وإن لم يكن شجر فإن للنحل فيه مرتعاً يعوّض عسله عما يفتقده من ثمر أشجاره.. والنخلة كانت من نصيب جزيرة العرب مما ينتج الحلوى. ولهذا كان لها في نفس إنسان الجزيرة مكانة خاصة منحتها العناية الفائقة. والقدامى يروُون لنا إنه قد مرّ عليهم وعلى من سبقهم أزمان لا يأكلون سوى التمر والبر، وليس لهما ثالث يؤكل.

وفي الآونة الأخيرة، وبعد الانفتاح الذي حصل بين عالم الأرض، والتطور الصناعي الذي شمل تصنيع الحلوى وتعليبها والمتاجرة بها ظهرت علامات تدل على الانصراف عن النخلة في فترة تقدمت. فحصل لها إهمال من صاحبها حيث استعاض عن ثمرها بما هو مصنّع من الحلوى، وحيث تبيّن أن ذلك المصنّع من الحلوى لم يعادل في قيمته الغذائية وسعراته الحرارية ما يحتوي عليه التمر، استيقظ ذلك الذي



أهمل النخلة ورجع إليها وكأنه يعتذر إليها مما بدر منه فزاد من مساحة زراعتها وأنشأ المصانع لتعليب تمرها.

وفي تلك الفترة التي لاقت النخلة فيها خمولاً وتكاسلاً من صاحبها في الجزيرة العربية وقف الشاعر السعودي المعاصر عبد العزيز محمد النقيدان مخاطباً النخلة التي رآها تعامل بما لا يليق بها، ولا بما لها من علاقة بالإنسان فقال قصيدة ضمنها ديوانه «ترانيم الرمال» وجعل عنوانها: «النخلة المؤدة» منها قوله:

لا تخافي يا نخلتي لا تخافي
أنت رمز الوفاء رمز التصافي

أنت نحو السماء جزت افتخارا
قد تحلّيت بالعقود الضوافي

الحديد المبيد أرداك قتلاً
فتمايلت من أذى (الجرافي)

قد جهلناك في سنين سمان
وعرفناك في السنين العجاف

أنت فينا مآذن شاخمات
حولها الطير غردت في الطواف

ما لهم أوسعوك قتلاً مبيداً
هل من الدين سنة الإتلاف

الحضارات لم تجر وبالاً
وعلينا وبالها غير خاف

هل ستنسى القلوب أفضالك الثر
ة فالتاريخ نقش في لوحة الإنصاف

الزورق الغريق

في السنة الثانية من عمر مجلة «الرسالة» وفي العدد ٣١، نشرت قصيدة طويلة قوامها أربعة وثلاثون بيتاً للشاعر الدمشقي أنور العطار، عنوانها: «الزورق الغريق». وفيها جعل الشاعر العطار من الحب زورقاً حرّك مجدافه وطاف به بحار العشق، ومرافئ الغرام وشطآنه، وهو يغني أغنية البحّار الذي يروعه موج الحب ورياحه. يقول من تلك القصيدة:

أنيري ظلام الروح فالحب زورق
متى يعترضه طائف اليأس يغرق
يجول على شط الحياة مُرَوَّعاً
فتحسبه الأمواج قربان مُتّق

وبعد ذلك، ينظر إلى مجداف الزورق الذي صنعه من الحب فيرى حسرةً قد بدت عليه، وأن ليس بد من التشكي، والنوح، والتظلم من فعل هوج الرياح، وعتو العواصف التي رمت بشراع ذلك الزورق الذي كان قد علّق عليه آماله. يقول:

وفاضت من المجداف حسرة خائب
حبيس التشكي خافت النوح مُرْهق
وعاصفة هوجاء كالموت صولة
رمت بشراع خافق متمزق

ويظهر توجع قلبه من القسوة التي يلاقيها، فلا يجد من يستمع



لشكواه، وإنما هو في لجة ربداء تختطف الأرواح بلا شفقة، ولا رحمة. يقول:

قسوتِ على قلبي وشرّدتِ حلمه
وخلّفتني مثل الغريق المعلق
فلا اللجة الربداء تخطف روحه
ولا هو من مرّ العذاب بمطلق

ويطلب من قائد ذلك الزورق الرفق والأناة حتى تكتب له السلامة، وينال المقصود من رحلته بأسلوب فيه تحنّن وتلطّف. وذلك بقوله:

حنانيكِ ردى النفس من عالم الأسى
إلى عالم حلو الأعاليل مونق
فينتعش القلب الذي قضّه الجوى
ويمرح في كون من الحب مورق

○○○○○

الشاب الظريف.. هو شمس الدين بن عفيف

قال الأستاذ شاكر هادي شكر محقق ديوان «الشاب الظريف»: الشاب الظريف هو: شمس الدين بن عفيف الدين سليمان بن شمس الدين علي بن عبد الله بن علي بن يس العابدي التلمساني. وقد غلب عليه لقب الشاب الظريف فأصبح لا يعرف إلا به.

هكذا وردت مقدمة الديوان خالية من الإشارة إلى السبب الذي جعله يلقب بالشاب الظريف، وكان الأجدر بالأستاذ شاكر أن يشير إلى ذلك أو أن يقدم ما يفيد تعذر حصوله عليه من المراجع التي اعتمد عليها في تحقيق الديوان.

وقد جاء في مقدمة ديوان الشاب الظريف أن والده كان من العلماء الأعلام والأدباء البارزين وله مؤلفات، وله ديوان شعر طبع في مصر سنة ١٣٠٨ هجرية. أما الشاب الظريف ـ شمس الدين ـ فقد ولد بالقاهرة في العاشر من جمادى الآخرة سنة ٦٦١ هجرية، وله ثقافة واسعة في شتى العلوم. وكان مولعاً بالبديع، وأكثر شعره في الغزل. قال عنه أحمد الإسكندري: هو طرفة هذا العصر وشعره يدل على نبوغ موروث. فقد كان أبوه عفيف الدين التلمساني شاعراً محسناً. والشاب الظريف، شاعر مجيد رقيق خفيف الروح، ناصع الديباجة، في شعره نفحات من العبقرية المصرية.

وتوفي الشاب الظريف سنة ٦٨٨ هجرية، وهو غض الشباب لم يتخط السابعة والعشرين من عمره، ودفن في مقابر الصوفية بدمشق. وكان وقع الفاجعة على أبيه أليماً جداً؛ لأنه وحيده.



ومن هنا أخلص إلى القول في استنتاج سبب التسمية فأقول: لعل شاعريته المتدفقة وظرافة الصبا كانا السبب في تلقيبه بالشاب الظريف.

ومن قوله هذه القصيدة الغزلية:

كفى شرفاً أني بحبك أعرف
فما آن أن تحنو عليَّ وتعطف

عمرت جهاتي في هواك ولا أرى
سواك ومالي عنك ما عشت مصرف

فزد في التجني حيث شئت فإنه
وحقك أنت المالك المتصرف

ومثلي أولى من يموت صبابة
ومثلك أولى من يحنّ ويسعف

أيا من له الحسن الذي بهر الورى
ومن حاز معنى لا يحدّ ويوصف

تجلّيت لي في كل شيء تكرماً
فلست لهجر واقع أتخوف

وحزت جمالاً ليس في الخلق مثله
به دائماً قلبي يهيم ويشغف

فخدّك ورد واللواحظ نرجس
وشخصك ندمان وريقك قرقف

○ ○ ○ ○ ○

سيارة تحاكي عرش بلقيس!!

وكما بالغ الشعراء القدامى في وصف الخيل والإبل وغيرها من الوسائل التي كانوا يركبونها للانتقال من مكان إلى مكان آخر، ومن بلد إلى بلد، ويحملون عليها كل ما خف أو ثقل من أمتعتهم وحوائجهم. فإننا نرى الشعراء المعاصرين الذين يمثلون حلقة الاتصال ما بين الموروث الأدبي وما هو جديد من الأدب المعاصر الذي يفرض بواقعه ومفهومه، ضرورة إضافته إلى ذلك الموروث ليصبح رافداً جديداً يمد نهر الأصالة الأدبية التي لها عمق في التاريخ بما يكون له صلة قوية بالماضي. وليحافظوا على حلقات سلسلة الاتصال من التفكك فلا يمثل عصرهم حلقة مفقودة في تاريخ الأدب الذي يجب أن تتماسك حلقات سلسلته وأن تكون ثقافة جيل كل عصر امتداداً لما سبقه.

أقول: إننا نرى الشعراء المعاصرين لا يقفون أمام أي تطور حضاري أو تقدم تكنولجي، وإنما هم جادون في التعبير عن كل جديد بمثل ما جدَّ أسلافهم في التعبير عن جديدهم. فها نحن نراهم حينما تقدمت الصناعة تقدماً سير الحديد حيث صنعت المركبات والطائرات والسفن وآلات كثيرة جميعها يشتغل ويتحرك بفعل احتراق البترول في داخلها. فمضوا في النظر إليها بمنظار واكب الحركة الصناعية فراحوا يصفون تلك الآلات بما يناسبها من الأوصاف، ويشبهونها بما يتفق وهيئتها وسرعة حركتها.

وهذا الشاعر العراقي علي الشرقي يصف سيارة كان قد استقلها هو وزملاؤه في رحلة صيد. في قصيدة طويلة تبلغ سبعة وعشرين بيتاً.



حيث شبهها في هيئتها وسرعة انطلاقها بقصر بلقيس الذي أحضره الذي عنده علم من الكتاب في سرعة ارتداد الطرف.

وذلك إشارة لما جاء في القرآن الكريم الآية ٤٠ من سورة النمل: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾. ومن تلك القصيدة قوله:

معجز راكض على الأرض يحكي
قصر بلقيس مقبلاً من بعيد

مرّ في تدمر يريد سؤالاً
عن سليمان هدد من حديد

وبريد من الحديد طوى الأر
ض بعدوٍ ينسى حمام البريد

فرفر الريم هارباً مذ رآها
وهي تطوي الأغوار بعد النجود

هارباً من بلية تخبط الأر
ض عليه بحفزةٍ ووئيد

ودواليبها تطوّتْ على الأر
ض وفحّتْ مثل الأفاعي السود

ثم يذهب في التساؤل عن هذا المصنوع الآلي الذي يطوي الأرض طياً بالسرعة التي وصفها فيما تقدم. فيقول:

أرعيل من الشياطين غازٍ
أرض عاد وناشدٌ عن ثمود

هي غول في العدو تنزو جبالاً
وهي جنٌ تخاطفت في البيد

البنون زينة

إن النظر إلى الطفل وهو يحبو، ويقوم ويسقط في محاولة منه للوقوف ذاتياً على قدميه دون أن يطلب المساعدة يدخل السرور والبهجة على نفسي أبويه.. ويزيد من سرورهما رؤيته وهو يحرك قدميه بخطوات مهزوزة كلها تخوف وخشية من السقوط، إلا أنها مؤشر يحقق بداية الانطلاق المتجهة نحو الدخول في معمعة الحياة ومسايرة الكبار في ميدانها الواسع.

هذا من ناحية حركة الطفل واستمتاع أبويه بها. أما من ناحية بداية انطلاق لسانه وما تحمله هذه البداية من براءة الألفاظ وجمال النغمة الناعمة التي تقتطف أنصاف بعض الحروف، وأجزاء بعض الكلمات لعدم اكتمال النمو الفطري للأجهزة الصوتية التي تمد بالفصاحة ذيّاك اللسان الذي لم ينغمس بعد في أوحال الكذب وبحار الخطايا. فإن عشق الأذن لسماعها منه يجعل الأبوين يستزيدان من الطفل إعادتها وتكرارها ومن ذا الذي لا تعجبه الكلمات الطرية التي يلفظها ذيّاك اللسين الغض.

ويصور الشعراء هذا الشعور الذي يغمر قلوب الآباء حينما يرون أطفالهم يمارسون تلك البدايات التي تسترسل العين في متابعة ما يتعلق منها بالحركة وتصغي الأذن إلى سماع كل ما يتعلق منها باللفظ.

وهل من شيء أحلى وأعذب من كلمة ـ بابا، ماما ـ حينما يطرق رنين ترددها بين شفاه الأطفال. آذان آبائهم؟.

ومن تلك الصور التي يعرضها لنا الشعراء، هذه اللوحة الشعرية



التي رسمها الشاعر العراقي علي الشرقي، وهو ينظر إلى ابنه وابنته وهما يدبان أمامه بخطوات متمرجحة يتمرجح بتمرجها قلبه المغمور بالسرور والسعادة، والغبطة. يقول في ذلك:

إن قلبي أرجوحة نُصبتْ
بين مفطومة ومنفطم

هزة إثر هزة وأنا
لهما ضاحك بملء فمي

لست أدري من الحوار سوى
بغمة من شفاه مبتسم

ملح ألفاظه ومنطقه
فترة للدلال في الكلم

حلمي في دبيبه وأرى
عدوه مثل رقصة الحلم

ومنها قوله:

يتبارى وأخته وأنا
ذبت خوفاً من زلة القدم

لجناحي طير أضمهما
كلما رفرفا من السأم

ومنها قوله:

خير شدو غنته مرضعة
هدهدت طفلها على الحلم

○ ○ ○ ○ ○

أيهما المقدم على صاحبه.. القلم أم السيف؟!

ويطيب لبعض الشعراء أن يجري على لسانه مناظرة بين الأشياء من حوله سواء كان نباتاً أو جماداً أو حيواناً. ولعل النصيب الأوفر الذي يستحوذ على ألسنة بعض الشعراء بسبب كثرة إثارته واستطلاع الرأي حوله بين الحين والآخر هو موضوع السيف والقلم، وأيهما أحق بالفضل من صاحبه. لكن الذي يريد أن يعطي الحكم على أيهما أفضل يجد صعوبة وتداخلاً في مهماتهما:

فالقلم يقول لسان حاله: أنا صاحب العلم. والسيف يرد على ذلك بقوله: أنا الحامي للعلم وهو في كنفي ولولا حمايتي لاستحال جهلاً.

ويرد القلم قائلاً: بالعلم صنع السيف. ويجيب السيف قائلاً: بحدي استتب الأمن وقام العلم تحت لواء هيبتي.

ونعود إلى الشعراء لنرى رأيهم في ذلك، فنجد أن منهم من يجعل السيف حامياً للقلم وهو الذي يعطيه حرية الحركة فيما يقصده من اتجاه، وأن منهم من يجعل القلم هو الذي يدير أمر السيف ويمنحه من تفكيره ورأيه ما يجعل له عليه إمرة وسطوة.

لكننا إذا ما علمنا أن هناك شاعر قلم، وشاعر سيف أدركنا أن لطبع الشاعر وميوله تأثيراً في الحكم في هذه القضية.

ولو أجريت إحصائية حول اختلاف أصحاب الأقلام والشعراء في الحكم على أيهما المقدم على صاحبه ـ السيف أم القلم؟ ـ لرجحت كفة القلم بدليل أن له من الشواهد القرآنية ما يؤهله لذلك.



فالتعليم بالقلم خبر جاء من السماء وطبق في الأرض، فكان منطلق العلم قال تعالى في سورة القلم الآية ٤ ـ ٥: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾.

ومن الفريق الذي يقدم القلم على السيف الشاعر العراقي علي الشرقي وذلك بقوله من قصيدة أنشأها لهذا الغرض:

السيف يثلم إن طال القراع به
وفي اليراعة سيف غير منثلم

لم يقسم اللّه في الذكر المبين به
وإنما شرف الأقلام بالقسم

لا يصلح السيف إلا للقراع وذا
للعلم. للفضل. للآداب. للنعم

إن أصبحت أمة بالسيف بائدة
إن اليراعة تحمي سالف الأمم

ما علم اللّه إنساناً بصارمه
وإنما علم الإنسان بالقلم

كم نغمة لك في الأقلام قائلة
إن الحسام المحلى آية النقم

إن أصبح السيف يروي عن يدٍ خبراً
فذو اليراعة يروي عن يدٍ وفم

إن كان للسيف حكم في الوغى فلها
في السلم رائعة الأحكام والحكم

○ ○ ○ ○ ○

زورق في القلب

«زورق في القلب». هذا عنوان ديوان للشاعر إبراهيم عمر صعابي، وهو أيضاً عنوان لإحدى القصائد التي ضمها الديوان. ولا أرى لي تعليقاً على عشق الشعراء للزورق أكثر مما قلته في مواضيع سابقة في هذا السفر.

لكن الشاعر إبراهيم الصعابي أشار في قصيدته «زورق في قلبي» إلى زورق لا علاقة له بالبحر الذي من أجله صنعت الزوارق والسفن، والبارجات الحربية والغواصات والمدمرات. وما إلى ذلك من الآلات التي تتكسر من فوقها الأمواج، ويركد من فوق ظهرها مئات الكيلو مترات عمقاً من الماء فلا تبتئس منه، ولا تتأثر بثقله، وعمقه أقول: إن الشاعر الصعابي قد أشار إلى زورق ليس كالزورق كما أسلفت وإنما هو زورق قد عين مكان تحركه ورسم حدود نشاطه حيث جعله يجوب أرجاء القلب ويفتش في نواحيه وزواياه وجميع أطرافه. وكأنما ذلك القلب محيط لا ساحل له.

والحقيقة أننا إذا نظرنا إلى واقع القلب وجدناه يحتاج إلى رحلات تستكشف أعماقه، وتبحث عن مكنوناته، وما ينطوي عليه من أسرار ومخزونات يحتاج فهمها إلى إدراك ونظرات ووقفات طويلة.

وقصيدة الصعابي «زورق في قلبي» طويلة نسبياً فهي تبلغ اثنين وعشرين بيتاً، منها قوله:

من قال إني قد نفضت يدي

وهواك مرسوم بصدر غدي؟



ما بين جمجمتي وخاصرتي
تترحل الطعنات في جسدي

ومنها قوله:

يا واهماً أنّي نفضتُ يدي
عن حبك الموصوف بالرّشد
أنت الذي حطمتَ روعته
لم تُبْقِ إلّا رغوة الزّبد
ضاقتْ به الدنيا وقد علمت
أن الذي يغتالني سندي
فعرفت أنك زورق خطر
وأفقْتُ من أرقٍ ومن رمد

ومنها قوله:

الحب أسمى أن أنال به
موتاً بطيئاً ملّه جلدي
الحب أكبر أن يخط به
الحب تضحيةٌ مدى الأمد

○○○○○

مؤلفات في التحف والطرف والهدايا

الهدية تغسل درن الحقد وتستل سخيمة الغل من النفس، وهي نواة تتفرع منها المحبة.

وقد بلغ الاهتمام بشأن الهدية حداً كبيراً ودرجة فائقة من العناية بها في العصور المتقدمة، حيث كان للهدية أدباً مستقلاً استحق التأليف وتوحيده في كتب مستقلة.

وقد استقصى الأستاذ سامي الدهان البحث عن تلك الكتب التي خصصت لأدب الهدايا. وضمن بحثه في مقدمة كتاب «التحف والهدايا» للخالديين الذي قام بتحقيقه. فذكر أن في جملة ما ألف الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥هـ، كتاباً اسمه «الهدايا»، وأن أبا الفضل أحمد بن أبي طاهر طيغور المتوفى سنة ٢٨٠هـ، قد ألف كتاباً في الهدايا، وأن إبراهيم بن إسحاق الحربي المتوفى سنة ٢٨٥هـ، قد ألف كتاباً «الهدايا والسنة فيها»، وأن أبا عبد الله محمد بن خلف بن المرزبان المتوفى سنة ٣٠٩هـ، قد ألّف كتاب «الهدايا» وقيل: إن اسمه «منتخب من الهدايا» لأبي بكر بن المرزبان، وأن للجنديسابوري كتاب «الهدايا»، وأن أبا عبد الله محمد بن عمران بن موسى بن سعيد بن عبد الله المتوفى سنة ٣٧٨هـ، قد ألف كتاب «الهدايا»، وأن الثعالبي قد ذكر أن لابن لبيب غلام أبي الفرج الببغاء كتاباً اسمه «التحف والطرف»، وذكر المقري أنه وقع في يده وهو أسير بقيجاطه كتاب «التحف والطرف» لابن عفيون. وقد ذكر ابن ظافر الأزدي أن لعبد الرحمٰن بن نصر الدمشقي كتاباً اسمه «التحف والطرف».

وذكر أن كتاب «التحف والهدايا» للخالديين، والذي حققه لم يرد

شيء عنه في «كشف الظنون». وذكر أن لشهاب الدين أحمد المقري الشافعي المتوفى في القرن الخامس كتاباً اسمه «الذخائر والتحف».
وقال بعض الشعراء في الهدية:

إن الـهـديـة حـلـوة
كـالـسـحـر تـجـتـلـب الـقـلـوبـا

تـدنـي الـبـغـيـض مـن الـهـوى
حـتـى تُـصـيّـره قـريـبـا

وتُـعـيـدُ مـضـطـغـن الـعـدا
وة بـعـد نُـفْـرتـه حـبـيـبـا

وقال أحدهم على لسان تفاحة:

أنـا لـلـعـاشـق مـنـسـوبـة
أهـدى لـمـحـبـوب ومـحـبـوبـة

وفي كتاب «أدب الكاتب» للصولي أن أبا بكر قال: أما المشهود مما قيل فيها - ولعله يقصد الهدية - فشعر بعض الكتاب وقد أهدى دواة محلاة بذهب، وهي من الأبنوس:

قـد بـعـثـنـا لـك أم الـمـنـايـا
والـعـطـايـا زنـجـيـة الأحـسـاب

تـتـزيّـا بـصـفـرة وكـذ الـزنـ
ـج تـزيـا عـجـبـاً بـصـفـر الـثـيـاب

ريـقـهـا ريـق نـحـلـة مـع صـاب
حـيـن يـجـري لـعـابـهـا في الـكـتـاب

في حـشـاهـا لـغـيـر حـرب حـراب
هُـن أمـضـى مـن مـرهـفـات الـحـراب

ابن ميّادة، هو الرماح بن أبرد بن ثوبان

ابن ميّادة غلبت نسبته إلى أمه على نسبته إلى أبيه فهو لا يكاد يعرف إلّا بابن ميّادة. وميّادة وهي أمه اختلف نسبها، فمن قائل: إنها صقلبية، ومن قائل: إنها فارسية. وهذا الأخير هو ما أشار إليه ابن ميادة بل فاخر به إذ يقول:

أنا ابن أبي سلمى وجدي ظالم
وأمي حَصَان أخلصتها الأعاجم

أليس غلام بين كسرى وظالم
بأكرم من نيطت عليه التمائم

لو أن جميع الناس كانوا بتلعةٍ
وجئت بجدي ظالمٍ وابن ظالم

لظلّت رقاب الناس خاضعة لنا
سجوداً على أقدامنا بالجماجم

واسم أمه هذه التي افتخر بها هو «جيداء» أما نسبه لأبيه فقد ذكر أنه: الرماح بن أبرد بن ثوبان بن سراقة بن قيس بن سلمى بن ظالم بن جذيمة بن يربوع بن غيظ بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن زيد بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. ولا يعرف تأريخاً لولادته وقد اختلف في سنة وفاته ورجّح أنه قد مات سنة ١٤٩هـ، بعد أن أدركته الشيخوخة.

وقد كان يتغزل ويشبب بأم جحدر، ولم يذكر امرأة غيرها في جميع أشعاره ومن شعره قوله:

جرى الدمع مجرى مائه فكفَفْنَهُ
بعُنّاب أطراف الأكفّ النواعم

ورد التحياتِ الهوى من عيونها
بيقظان طرفٍ في مخيلة نائم

ويقول ابن ميّادة، وهو عند الوليد بن يزيد:

لعمرك إني نازلٌ بأيا يسر
لصَوْءَرٍ مشتاقٌ وإن كنت مكرما

أبيت كأني أرمد العين ساهر
إذا بات أصحابي من الليل نُوّما

○ ○ ○ ○ ○

الشعر هدية تبقى وغيره يفنى

إن أكثر من يتصيد الفرص وينتهز المناسبات التي يكون لها مردود مادي أو معنوي هم الشعراء. ولعل الحاجة والعوز وقلة ما في اليد من الأمور التي تلجئهم إلى ذلك، وتحملهم على تحين المناسبات التي تقام فيها الأفراح وتكون النفوس فيها مبسوطة والأيدي منبسطة تفيض بما تملك من مادة على كل من يمجدها أو يمتدحها.

وإذا ما عرفنا أن المناسبات التي تقام في أيام معلومة أو معينة من السنة يحصل فيها تبادل الهدايا فإن الشعراء بواقع حالتهم المادية لا يجدون ما يهدونه من أشياء عينية، لكنهم بحكم صنعتهم يعوضون ذلك العجز المادي بأقوالهم التي تبقى مدى الدهر.

ولهذا فإن كثيراً من الملوك والأمراء والوجهاء والأعيان الذين تهدى إليهم الهدايا يفضلون هدايا الشعراء التي هي بمثابة أبيات يحفظها الزمان وتتسع لها صفحة التاريخ.

وهذه نماذج من هدايا الشعراء أقتطفها مما جمعه مؤلفا كتاب «التحف والهدايا». قالا: كتب بعض الشعراء إلى بعض أهل السلطان في المهرجان: هذه أيام جرت فيها العادة بألطاف العبيد للسادة، وإن كانت الصناعة تقصر عما تبلغه الهمة فكرهت أن أهدي فلا أبلغ مقدار الواجب فجعلت هديتي هذه الأبيات. وهي:

ولما أن رأيت ذوي التصافي
تباروا في هدايا المهرجان



جعلت هديتي ودّاً مقيماً
على مَرّ الحوادث والزمان
وعبداً حين تكرمه ذليلاً
ولكن لا يقر على الهوان
يزيدك حين تعطيه خضوعاً
ويرضى من نوالك بالأماني

وأنشد ابن يزيد بن المهلب في «المعتمد»:

سيبقى فيك ما يهدي لساني
إذا فنيت هدايا المهرجان
قصائد تملأ الآفاق مما
أحلّ اللّه من سحر البيان

وفي هذا المعنى قال مروان بن أبي حفصة:

بدولة جعفر حمد الزمان
لنا بك كل يوم مهرجان
جعلت هديتي لك فيه وشياً
وخير الوشى ما نسج اللسان

ووفقاً لمنهجي في تأليف هذا الكتاب، أقتصر على ما ذكر ما جاء في ذلك المعنى على تلك القافية من شواهد الشعر المتقدمة في هذا الموضوع.

○○○○○

من الهدايا ما يكون مسواكاً
ومنها ما يكون نعلاً

والهدية في حد ذاتها تمثل رمزاً وتقديراً، ومعنىً تعبيرياً عما يكنه المهدي للمهدى إليه من حب. وكثير من الناس يرى أن الهدية لا تقدر بقيمتها بقدر ما تقدر بمعناها، وما ترمي إليه من رغبة في استمرار قيام الصلة، وسلامة الصداقة.

وتذكر كتب الأدب كـ«الأغاني» وكتاب «التحف والهدايا» أن إبراهيم الموصلي قال: غنّى أبي يوماً للرشيد بهذا الشعر[1]:

تخيرتُ من نعمان عُودَ أراكة
(لهند) فمن هذا يبلغه (هنداً)
وناولتها المسواك والقلب خائفٌ
وقلت: ألا يا (هند) أهْلكتِنا وجداً

فقال الرشيد: قبّح الله هذا عاشقاً يُهدي لعشيقته مسواكاً ثم يمنُّ به عليها. فقال الأصمعي، وكان حاضراً: إنها يا أمير المؤمنين قد أنكرت ما أنكرت. فقالت في ذلك شعراً. قال: أوتعرف الشعر؟ قال: نعم. وأنشده:

---

(١) قال محقق كتاب «التحف والهدايا» الأستاذ سامي الدهان: إن هناك تعليقاً حول معرفة قائل الشعر وفيمن قيل، وبحضرة مَنْ مِن الملوك. فجحظة البرمكي يروي أن هذا الشعر أنشد في حضرة المأمون والمنشد له علوية الأيسر. وإن المأمون قال: اطلبوا لهذا البيت ثانياً فلم يعرف فسألته عنها، فذكر أنها للمرقش الأكبر. وقد وردت هذه الحكاية في «الأغاني».



فمدت يداً في حسن دل تناولاً
إليه وقالت: لم أخل مثل ذا يهدى

فقال الرشيد: صدقت والله، أنشدني بقية الشعر. فأنشده:

خليلي مرّا بارك اللّه فيكما
وإن لم تكن هند لأرضكما قصدا

وقولا لها: ليس الطريق أجازنا
ولكننا جئنا لنلقاكم عمداً

غداً يكثر الباكون منا ومنكم
وتزداد داري من دياركم بعدا

فإن شئت حرمت النساء سواكم
وإن شئت لم أطعم لذيذاً ولا بردا

فقال الرشيد: أحسن - محا بهذا ما سلف من هدية المسواك وأجاز الأصمعي -.

ويذكر أن أبا العتاهية أهدى إلى بعض الملوك نعلاً وكتب معها أبياتاً، منها:

نعل بعثت بها لتلبسها
تسعى بها قدم إلى المجد

ooooo

من الشعراء العمي!!

ومن الشعراء العمي الشاعر علي بن جبلة الذي قيل عنه: إنه عربي بالولاء وأنه ربما كان أصله سندياً أو حبشياً. وقيل: إنه كان أسود أبرص.

وتذكر الرواة أنه ولد بحي الحربية في الجانب الغربي من بغداد سنة مائة وستين للهجرة.

قال محقق «ديوان ابن جبلة» الدكتور حسن عطوان: وقد اختلف في فقده لبصره اختلافاً بيّناً. فمن قائل: إنه ولد مكفوفاً لا يبصر. ومن قائل: إنه أصيب بالجدري في سن السابعة فذهبت إحدى عينيه، ثم فقئت عينه الثانية بعد ذلك. ومن قائل: إنه كفّ بصره وهو صبي.

ومع أن ابن أخيه هو الذي يروي عن جده أنه عمي وهو لم يتجاوز السابعة فالراجح عندي أنه ولد ضريراً، إذ لو كان ولد مبصراً ثم ابتلي بفقد عينيه واحدة تلو الأخرى. لكان يمكن أن يرثيهما، ويتحسر عليهما. غير أن ما بقي من شعره لا ينبئ بذلك.

وحدّدت هذه العاهة التي أصيب بها منذ صغره اتجاهه في حياته، إذ ملأت قلب أبيه عطفاً عليه، وبراً به، فألحقه بمدرسة من المدارس، تعلم فيها. ما يتعلمه الصبيان ممن هم في مثل سنه من أطراف العلم، ولم يكد يشب حتى أخذ إخوته يختلفون به بتوجيه من والدهم إلى مجالس العلم والأدب، وكان ذكياً فطناً، وما هي إلا أن يمضي عاماً وهو يترددُ على هذه المجالس ويستمع إلى ما يحاضره العلماء فيها من دورس في الشعر واللغة والنحو، وما يدور بينهم بها من محاورات



ومناظرات في المذاهب الكلامية والمسائل العقلية فإذا هو يفقه أسرار العربية، ويحفظ غير قليل من الشعر لغير شاعر من الشعراء الجاهليين والإسلاميين والعباسيين المتقدمين، من أمثال امرئ القيس والنابغة وبشار وأبي نواس ومسلم وأبي العتاهية.

أما شعر ابن جبلة فلا يكاد يتعدى مديح أبي دلف العجلي وحميد الطوسي. وقد رثى حميد الطوسي بقصيدة، تقع في أربعة وثلاثين بيتاً كلها تفجع ولوعة وتوجع على فقده، منها قوله:

أصبنا بيوم في حميد لو أنه
أصاب عروس الدهر ظلت تضعضع

ألم تر أن الشمس حال ضياؤها
عليه وأضحى لونها وهو أسفع

وأوحشت الدنيا وأودى بهاؤها
وأجدب مرعاها الذي كان ممرع

وقد كانت الدنيا به مطمئنة
فقد جعلت أوتادها تتقلّع

بكى فقده روح الحياة كما بكى
نداه الندى وابن السبيل المدفّع

وفارقت البيض الخدور وأبرزت
عواطل حسرى بعده لا تقنع

وأيقظ أجفاناً وكان لها الكرى
ونامت عيون لم تكن قبل تهجع

ولكنه مقدار يوم ثوى به
لكل امرئ منه نِهال ومشرع

البلبل السجين!!

يقف الإنسان أمام الأقفاص الحديدية التي تحتجز بداخلها البلابل والببغاوات فينتابه شعور بأنها قد كبتت حرية تلك الطيور، وهدم كبرياؤها، وأهين قدرها، وذل شموخها. فلا يملك أمام هذه الحقيقة التي يصفها بأنها شديدة المرارة، إلّا التعبير عما يتصوره من شعور يخالج نفوس تلك الطيور التي مُسَّت كرامتها وقمع سموها بقص قوادمها وريش أجنحتها، وحجر عليها داخل تلك الأقفاص.

ولرهافة الحس ورقة الشعور التي يمتلكها بعض الشعراء عمن سواهم دور فعَّال في نقل الصورة التي تفيض بالحسرة من جرَّاء مشاهدة تلك الطيور وهي تضطرب داخل تلك الأقفاص، فلا يجد أمام يد القهر التي احتجزتها إلا رسم الصور لذلك المشهد المؤلم.

وللشاعر العراقي علي الشرقي قصيدة طويلة تبلغ نحواً من اثنين وثلاثين بيتاً عنوانها: «شاعر في السجن»، والشاعر المقصود في هذا العنوان هو البلبل، والسجن: قفصه. هذا إن لم يكن قد عنى نفسه وشبهها بالبلبل المغرد. وذلك لما يلاقيه من سلب للحرية من المستعمر الذي تولى إدارة شؤون البلاد، وأخذ يتتبع كل من يعلن غضبه ويفصح عن عدم رضاه بما آلت إليه بلاده، ويحث بني قومه على الوقوف في وجه ذلك المستعمر ومطالبته بالرحيل من بلاده. والقصيدة في مفهومها العام قابلة للتأويل والتحوير وصالحة للغرضين هذا.. وذاك، منها وقوله:

وما بلد ضمني سجنه

ولكنه قفص البلبل



لقد أُقْفِلتْ باب آماله
فحام على بابه المقفل

يرف جناحاه لم يستطع
مطاراً فيفحص بالأرجل

خفوق الحشا وخفوق الجناح
تحيّر مهما يطر يفشل

وما اشتاق إلّا احتضان الورود
وشوق الخطيب إلى المحفل

يرى الطير في الأرض حر الجناح
فيحسد قادمة الأجدل

فعين إلى الزمر الرائحات
وعين إلى سربها المقبل

أدام التلفت نحو الرياض
فبات بناظرتيْ أحول

○○○○○

الشعراء مرآة زمانهم

من الشعراء من يكون صدى لحياة أمته وصوتاً يعبر عما في ضميرها من أفراح وأتراح. ومنهم من يمثل واجهة طُرزَتْ عليها تقاليد عصره بألوان تنطق متى تُسْتَنْطَق وتجيب متى تسأل عن الحياة التي كان يحياها ذلك المجتمع الذي عاصره ذلك الشاعر، والذي يمعن النظر فيها يقرأ أشياء كثيرة يستدل منها على صورة الحياة التعاملية التي يمكن من خلالها تقويم المسلك الخلقي، والمنهج الأدبي الذي كان سائداً في عصر الشاعر.

وبصورة أوضح فالشعراء عموماً مرآة صقيلة تعكس بصفاء واضح الصورة الحقيقية، التي كانت ماثلة في المجتمع الذي نشأ فيه الشاعر دونما زيادة أو نقص. ومن هذا المنطلق ومن واقع ما نقرؤه من استشهادات شعرية في البحوث المختلفة الأهداف نستطيع القول: بأن الشاعر ما هو إلا قاص، وراوٍ، ومؤرخ، بل وصاحب رأي فلسفي في كل شيء حتى في الجمال والقبح. قال الشاعر السعودي إبراهيم محمد الدامغ في إحدى مقدمات قصائده التي حواها ديوانه «شرارة التأثر»: سألني أحدهم بلهجة الساخر: لماذا تهيمون أيها الشعراء بكل ما ترون من جميل وقبيح؟ فقلت له: نهيم بالجمال لجماله، وبالقبح لوجوده إلى جانب الجمال. فالجمال، والقبح فن وإبداع. ومن القصيدة التي هذه مقدمتها يقول الدامغ:

يا سائلي والعجب يملأ قلبه

ماذا عشقتم أيها الشعراء؟



عجباً أراك لبست في إغراقنا
ثوب الذهول وفاتك الإجلاء

قسماً بربي لو شعرت بما نرى
لتعانقت بهديلك الأصداء

نحن الذين سكرت من سلسالنا
فرحيقنا لك بلسم وشفاء

نحن الذين تعطّرت آمالنا
وتبسمت لوجودنا الغبراء

ومنها قوله:

ومفاتن الحب الجميل رهينة
في أفقنا والسحر والإغراء

نضفي على سمع الوجود عرائساً
فتهيم فيه أوانس وظباء

ومنها يقول عن الشعراء:

لهم الجلال وحسنه وبقاؤه
ولدى العلا هم بسمة رفَّاء

○ ○ ○ ○ ○

النابغة: لقب لزياد بن معاوية

لقّب زياد بن معاوية بن ضباب بن جناب الذبياني ـ بالنابغة الذبياني ـ لقوله: «فقد نبغت لنا منهم شؤون»، أو لأنه قال: الشعر بعد أن كبرت سنّه، أو لنبوغه في نظم الشعر وتفوقه على أقرانه فيه.

قال المهتمون بدراسة حياته وشعره: إن المعلومات حول فترة طفولته وشبابه ضئيلة لا تمكن من الانتهاء إلى رأي واضح. وكل ما توصلوا إليه هو معرفة أن النابغة كان من أشراف ذبيان وبيوتاتهم. وأنه كان يكنى بأبي أمامة وأبي تمامة، وهما بنتاه على عادة العرب آنذاك.

وقد اشتهر بلقب النابغة. وقد تَلَقّبَ غيره بهذا اللقب مثل النابغة الجعدي، والنابغة الشيباني، والنابغة التغلبي.

ولم يكن هناك دليل واضح على معرفة سنة ولادته، أما وفاته فقد رجح أنها كانت سنة ٦٤٠م، وذلك قبل أن تنتهي حرب داحس والغبراء بين بني عبس وقبيلته بني ذبيان سنة ٦٠٨م.

أمَّا عجز البيت المتقدم ذكره والذي أشير إلى الاحتمال بأنه كان السبب في تلقيبه بالنابغة فهو من أصل قصيدة له يقول فيها:

نأت بسعادَ عنك نوىً شطون
فبانتْ والفؤاد بها رهين

وحلَّ في بني القين بن جسر
فقد نبغتْ لنا منهم شؤون



تأوّبني بِعملَة اللواتي
مَنَعْنَ النوم إذ هدأت عيون

من المتعرضات بعين نخل
كأن بياض لبّته سدين

كقوس الماسخي أرنّ فيها
من الشرعيّ مربوع متين

إلى ابن مُحَرّق أعملت نفسي
وراحلتي وقد هدتِ العيون

أتيتك عارياً خلقاً ثيابي
على خوف تظن بي الظنون

فألفيتُ الأمانة لم تخنها
كذلك كان نوحٌ لا يخون

○ ○ ○ ○ ○

الشعر العمودي يرفض مقارنته بالشعر الحر

يحاول عبثاً من تحدثه نفسه بإجراء مقارنة بين الشعر المقفا الفصيح وما يسمى بالشعر الحر، فذاك في الثريا وهذا في الثرى. ثم متى كان لهذا الشعر وأعني به الحر وجود أو قدم أو موقف في ساحة الأدب العربي حتى يجرأ بتطفله على المطالبة بإجراء مقارنة بينه وبين الشعر العمودي المقفا؟. ففي أي شيء يجاريه أو يقاويه أو يطاوله؟، أفي القافية؟، أم في الائتلاف؟، أم في التزام التفعيلة؟، أم في تساوي النغمة؟، أم في عذوبة رنين الجرس الموسيقي الناتج عن تتابع الأوزان وانسجام الجمل وترابط الكلمات؟، أم في الشكل العام للقصيدة؟، أم في الهيكل الذي يتكون منه نظام القصيدة حينما تطرح على صفحات الطروس. كل هذه أمور تضع حداً فاصلاً ومقراضاً يحوذ لسان أي محاول لوضع مقارنة بينهما. اسمع عتبة بن أبي سفيان رحمه الله وهو يصف مكونات القصيدة العربية المقفاة ومؤثراتها على آذان السامع والقارئ.

يقول: إن للعرب كلاماً هو أرق من الهواء، وأعذب من الماء يمرق من أفواههم مروق السهام من قسيّها بكلمات مؤتلفات، إن فسرت بغيرها عطلت وإن بدلت بسواها من الكلام استعضبت. فسهولة ألفاظهم توهمك أنها ممكنة إذا سمعت، وصعوبتها تعلمك أنها مفقودة إذا طلبت فالناس إلى قولهم يصيرون وبهديهم يأتمون، وخير الكلام المطمع الممتنع. ويقول الشاعر محمد علي السنوسي من قصيدة له يمقت فيها الشعر الحر:

تأبى الحروف التي صيغت نماذجها
من رعشة الروح في أعماق أسرار

أن تلتقي معكم في سبك خاطرة
عرجاء تحجل في ميثاء مهيار

تبيّنوا بعض ما تبغون وانطلقوا
في الروض ما بين أزهار وأثمار

وجنبونا غثاء لا جمال له
ولا رواء، ولا يوحي بإكبار

أما كفى أننا فقراً ومخمصة
نستورد الغرب حتى (صبغ أظفار)

إن كان لا بد من فن نجدده
فجددوا في مضامين وأفكار

حرية الشعر في إشراق فكرته
وفي تساميه عن لغو وأوضار

والشعر نار ونور والنفوس لها
طبع الفراشات، عشق النور والنار

○○○○○

الشعر الحر تلفظه إصطبلات القافية

الشعر الحر مذهب حداثي استورده ضعفاء القريحة واستحال تعشقهم له إلى رغبتهم في تأصيله، فأخذوا يحاولون تهجينه في إصطبلات القافية الفصيحة فنفته القصيدة المقفاة واعتبرته دخيلاً عليها، فأعلنت براءتها منه ونتيجةً لذلك راح أصحابه ومناصروه يلتمسون له مكاناً في زاوية من زوايا الأدب العربي ومضوا ينعتونه بنعوت يشوقون الناس بها.

فقالوا عنه: إنه السهل الممتنع، والأسلوب الممتع. وقالوا عنه: إنه مجال الانطلاقة. وقالوا: إنه هو الذي جرأ على التخلص من القافية التي ضلت مقيدة الإنسان منذ أن عرف الشعر وتغنى به وفاخر بإنشاده. وقالوا، وقالوا. ولكن جميع أقوالهم صادفت ثلاث آذان: أذن عربية أصيلة لم تلتفت إليه بل سدت عنه في كبرياء وترفع ومضت في حالها وكأنه لم يكن. وأذن ضجرت منه وتأذت من سماعه فأخذت في تنقيصه وفضح واقعه، والتشهير به وبأصله ونسبه الذي لا يمت للعرب بصلة. وأذن ألقت إليه سمعها؛ وهذه هي التي أعياها فهم الأصالة وقصر إدراكها عن فهم معيار الشعر وتذوق صوت أجراسه ونغماته. ومن الناس من يشك في أصالة نسب من يعشق هذا اللون الذي تلفظه كلمة الشعر ولا تقبل أن تكون اسماً له أو مرادفة لعنوان له. ويكاد يقرر بعض أدباء الأصالة أن العاشق لهذا ربما يكون منحدراً من أصل شعوبي وليس له نسب عربي أصيل استدلالاً بهذا القول: «الغريب للغريب نسيب».

وإذا ما رجعنا إلى البحث عن مصداقية أن الشعر الحر مستورد وجدنا أن الأقوال تكاد تجمع على أن: أوليوت الشاعر الإنكليزي هو الذي ابتكره غير أن منها ما يرد جذوره إلى روسيا وأن الروسيين هم الذين صدروه إلى أوروبا فكان ـ أوليوت ـ هو أول من استقبله.

وقد هب شعراء القافية الأصيلة للدفاع عنها ومحاربة هذا الدخيل الذي يحاول طمس معالمها، ومن أولئك الشعراء الشاعر محمد علي السنوسي، حيث قال قصيدة في هذا المعنى منها قوله:

لا العود عودي ولا الأوتار أوتاري
ولا أغاريدكم من شدو أطياري

من أين جئتم بهذا الطير ويحكمو
لا الريش ريشي ولا المنقار منقاري

إني أرى في جناحيه وسحنته
سمات ـ أوليوت ـ لا سيماء بشار

ألبستموني ثياباً لا تشرفني
كأنها فوق جسمي حبل قصّار

سود وحمر وصفر لا انسجام لها
كرسم بيكاس يعيي فهمه القاري

ماذا تقولون؟ (تجديداً) لقد هزلت
وسامها كل ثرثار ومهذار

الشعر هندسة كبرى تكاد تُرى
في النسج واللفظ منه روح (فرجار)

والوزن للشعر روح وهي إن فقدت
أضحى جماداً بلا حسّ كأحجار

نصيحة شعرية أعجبتني!!!

في العدد ٩٤٧٤، وتاريخ ٢١ شوال سنة ١٤١٠ للهجرة من جريدة «البلاد» التي تصدر من المملكة العربية السعودية، نشرت رسالة شعرية من جار ناصح لجار له، وقد رمز لاسمه بـ(ناصح)، منها قوله:

جاري إليك نصيحتي وعتابي
قبل الممات، وقبل أي سؤال

إني أراك وقد تركت فريضة
ونسيت يوم العرض والأهوال

ومضيت في ترك الصلاة تهاوناً
وهي الأساس لصالح الأعمال

فارجع إلى رب العباد وتب له
واسلك طريقاً ليس فيه ضلال

واجعل طريقك للمساجد عامراً
خطو المحب لربه المتعال

إني بهذا النصح أبرئ ذمتي
وأقول: إنك في غد رحال

الجار في يوم الحساب مسائل
عن جاره في حالة الإهمال

وكأنني بك في القيامة غارقاً
ترجو النجاة ولات حين مجال

ونلاحظ من خلال قراءتنا لتلك الأبيات التي اقتطفتها من تلك الرسالة الشعرية التي بلغت خمسة عشر بيتاً، كيف وجه ذلك الجار الغيور على جاره تلك النصيحة القيمة التي صاغها في أسلوب أدبي جميل وبعيد عن الخشونة وعنف الإرشاد والتذكير. حيث أظهر له خوفه عليه من سوء العاقبة في الآخرة، وذكره بمآله، وحثّه على المواضبة على الصلاة في المسجد، وأحاطه علماً بأن الداعي إلى بعث هذه الرسالة هو عدم رؤيته له في المسجد في أوقات الصلاة.

كما ذكره بأهوال يوم القيامة التي لا يُنجي منها إلّا العمل الصالح الذي يكتسب في الحياة الدنيا ويكون رصيداً لصاحبه في الآخرة.

كما أشار إشارة خفيفة إلى أنه مسؤول عنه بحكم رابطة الجوار، وأنه من حقه أن ينصحه حتى تبرأ ذمته.

والحقيقة أن نشر مثل هذه الرسالة الشعرية يعطي الحق للجار أن يخاطب بها جاره المقصر في جنب الله.

○ ○ ○ ○ ○



عمل وجارية بأبيات من الشعر!!!

جاء في كتاب «الأغاني» لأبي فرج الأصبهاني أن مسلم بن الوليد مولى الأنصار ثم مولى أبي أمامة أسعد بن زرارة الخزرجي، الذي لقب بصريع الغواني وزعم أنه أول من قال الشعر ـ المعروف بالبديع ـ. كان قد انقطع هو وأخوه سليمان إلى يزيد بن مزيد ومحمد بن منصور بن زياد ثم الفضل بن سهل بعد ذلك. وقد قلد الفضل مسلماً المظالم بجرجان حتى مات بها. وذلك أن مسلماً دخل على الفضل بن سهل لينشده شعراً. فقال له: أيها الكهل إني أجلك عن الشعر فسل حاجتك. فقال: بل تُستتم اليد عندي بأن تسمع، فأنشده:

دموعها من حذار البين تنسكب
وقلبها مغرم من حرها يجب

جد الرحيل به عنها ففارقها
لبينه اللهو واللذات والطرب

يهوى المسير إلى مرو ويحزنه
فراقها وهو ذو نفسين يرتقب

فقال له الفضل: إني لأجلك عن الشعر قال: فأغنني بما أحببت من عملك فولاه البريد بجرجان.

ويروى أن مسلماً كان عند الفضل وكان على رأسه وصيفة تسقيه كأنها لؤلؤة فلمح الفضل مسلماً ينظر إليها. فقال: يا أبا الوليد أعجبتك فقل فيها أبياتاً حتى أهبها لك. فقال:



إن كنت تسقين غير الراح فاسقيني
كأساً ألذ بها من فيك تشفيني

عيناك راحي وريحاني حديثك لي
ولون خديك لون الورد يكفيني

إذا نهاني عن شرب الطلا حرج
فخمر خديك يغنيني ويجزيني

لولا علامات شيب لو أتت وعظت
لقد صحوت ولكن سوف تأتيني

أرضى الشباب فإن أهلك فعن قدر
وإن بقيت فإن الشيب يسليني

فقال: خذها بورك لك فيها وأمر بتوجهها مع بعض خدمه إليه.

○ ○ ○ ○ ○

مقامة

وهذا جزء من مقامة للشيخ ناصيف اليازجي، وقد عرّفها بالعقيقة. وفيها يقول: حكى سهل بن عباد ـ وسهل بن عباد هذا هو شخصية وهمية اختارها اليازجي راوية لمقاماته التي ضمها كتاب «مجمع البحرين» ـ. قال: بكرت يوماً بكور الزاجر في معمعان تاجر. خوفاً من اصطكاك الهواجر، فأمعنت في السياحة، وجعلت أقطع ساحة بعد ساحة. حتى إذا تخللّتُ بعض الغيطان، وقد سال عليهما مخاط الشيطان. رأيت كتيبة من الرجال على كثيب من الرمال، فبذلت في شاكلة الجواد المهماز، ورددت صدور الأرض على الأعجاز، حتى أدركت القوم، في منتصف اليوم، وإذا جنازة قد أودعوها التراب، وشيخ على دكة قد افتتح الخطاب. فقال: يا كرام المعاشر والعشائر وأُولي الأبصار والبصائر، أريتم ما أحرج هذا البيت، وأسمج هذا الميت؟، طالما جدّ وكدّ، واشتدّ واعتدّ، وركب الأهوال واحتشد الأموال. فانظروا أين ما جمع، وهل أتى بشيء منه إلى هذا المضجع، وطالما شمخ، وبذخ، وأسرف، واستطرف، وتأنق في الطعام والشراب، واستكرم المهاد والثياب، وتَضَمَّخَ بالعبير والملاب. فاعتبروا كيف صار جيفة لا تطاق، وكريهة لا تستطيع أن تلحظها الأحداق. فإن كنتم قد ضمنتم الخلود، وأمنتم اللحود، فتمتعوا بشهواتكم ملياً، واتركوا ما رأيتم نسياً منسياً. وإلا فالبدار البدار، إلى طرح العالم الغرّار. فإنَّ السعيد من نظر إلى دينه دون دنياه، وأخذ الأهبة لآخره قبل أُولاه، والشَّقيُّ من نظر قريباً، فبات خصيباً، وعاش رحيباً وغفل عن يوم يجعل الولدان شيباً. ثم فاضت عيناه بالدموع، وأطرق برأسه من الخشوع، وأنشد:

واهاً لمن خاف الإله واتقى
وعاف مشتري الضلال بالهدى

وظل ينهى نفسه عن الهوى
إن إلى الرب الكريم المنتهى

وليس للإنسان إلّا ما سعى
نعم.. وإن سعيه سوف يرى

ما هذه الدنيا سوى طيف كرى
فانتبهوا يا غافلين للسّرى

وشمروا الذيل وبادروا الوحى
من قبل أن يدعوكم داعي الردى

واطّرحوا كل نعيم وغنى
واستهدفوا لوقع أسهم البلى

واقرضوا اللّه فنعم من وفى
ما أجهل الناس وأذهل النهى

لو أن هذا المال في هذا الورى
قال: ألست ربكم؟ قالوا: بلى

ولما فرغ من أبياته زفر زفرة الضّرام. وقال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾. ونزل وهو يمسح عبراته بفضل اللثام.

○○○○○

المطمع لقب ثانٍ للمتنبي

كثيراً ما يطغى اللقب الذي يتولد عن قول، أو تصرف عملي على الاسم الحقيقي للمرء، بل ربما أخذ ذلك اللقب بعداً معنوياً في التعريف بصاحبه، وطابعاً لا يعرف إلّا به.

فالمتنبي، وذو الرَّمة، والمتلمس، والجاحظ، وتأبط شراً، وغير أولئك كثير ممن سأذكر إن شاء الله لهم نماذجاً للاستدلال على طغيان اللقب المكتسب من المهنة أو الفعل أو القول على الاسم الحقيقي الصحيح.

فالمتنبي: هو أبو الطيب أحمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار الجعفي الكندي الكوفي. قال عبد الرحمٰن البرقوقي في «شرح ديوان المتنبي»: وروى بعض المؤرخين كالخطيب وابن خلكان أن اسمه: أحمد بن محمد، وأن جعفي جدّ المتنبي: هو جعفي بن سعد العشيرة من مذحج من كهلان من قحطان، وكندة التي ينسب إليها، محلة بالكوفة، وليست القبيلة كما ظن بعضهم خطأ. وكان والد المتنبي يعرف بعبدان السقاء يسقي الماء لأهل المحلة. وقد روى الخطيب عن علي بن المحسّن عن أبيه قال: وسألت المتنبي عن نسبه فما اعترف لي به وقال: أنا رجل أخبط القبائل وأطوي البوادي وحدي، ومتى أنتسب لم آمن أيأخذني بعض العرب بطائلة بينه وبين القبيلة التي أنتسب إليها، وما دمت غير منتسب إلى أحد فأنا أسلم على جميعهم ويخافون لساني.

أما سبب تسميته بالمتنبي فلأنَّه ادعى النبوة كما قيل. وصار له أتباع كما ذكر ذلك في «الصبح المنبى عن حيثية المتنبي». وسوف أفرد



لهذا اللقب - المتنبي - موضوعاً مستقلاً تحت عنوان: «المتنبي، لقب لأبي الطيب» والذي أرغب الإشارة إليه هنا. هو أن للمتنبي لقباً آخر هو - المطمع - ويقال: إن سبب تسميته بالمطمع هو قوله:

يطمع الطير فيهم طول أكلهم
حتى تكاد على أحيائهم تقع

وهذا البيت من قصيدة قالها أثر هزيمة مُنِيَ بها جيش سيف الدولة في نهر بطرسوس ومنها قوله مادحاً ومسلياً سيف الدولة:

يمشي الكرام على آثار غيرهم
وأنت تخلق ما تأتي وتبتدع

وهل يشينك وقت كنت فارسه
وكان غيرك فيه العاجز الضَّرع

من كان فوق محل الشمس موضعه
فليس يرفعه شيء ولا يضع

لم يسلم الكر في الأعقاب مهجته
إن كان أسلمها الأصحاب والشيع

لقد أباحك غشاً في معاملة
من كنت منه بغير الصدق تنتفع

الدهر معتذر والسيف منتظر
وأرضهم لك مصطاف ومرتبع

إن السلاح جميع الناس تحمله
وليس كل ذوات المخلب السبع

○ ○ ○ ○ ○

التنوين.. ونون النسوة!!

يروى أن التنوين كان سبباً في رسوب الكاتب المعروف الدكتور طه حسين في مادة النحو وذلك عندما سئل: بأي الضمتين الظاهرتين على آخر هذه الكلمة (محمد) وجب الرفع ـ الفوقانية أم التحتانية ـ فاحتار طه حسين ولم يستطع الإجابة فرسب في الامتحان.

ويروى أنه لمَّا أصبح صاحب قلم ورأي وفكر في الأدب أراد أن ينتقم من هذا التنوين، فأبدى اقتراحاً بإلغاء التنوين، وأن تلحق بكل اسم منوناً سواء كان في حالة جر أو رفع أو نصب نون بآخره تكتب ولا تقرأ. وإن صح هذا عن طه حسين، فهو من آراء الأدباء الطائشة وأفكارهم النزقة.

أما نون النسوة فقد ذكر الدكتور عزيز فهمي في ديوانه «ديوان عزيز» الذي قدم له الدكتور طه حسين باشا أن مجلة «الرسالة» رقم ٦٠٢، وتاريخ ١٥/١/١٩٤٥م، نشرت تصريحاً صادراً عن مؤتمر النساء الذي انعقد في القاهرة جاء فيه أن النساء قررن المطالبة بحذف نون النسوة من اللغة تحقيقاً لمساواتهن بالرجال.

وعلى أثر هذا القرار نظم الدكتور عزيز فهمي قصيدة تقع في ثمانية عشر بيتاً. وكأني به يؤيد مطالبتهن، ويريد أن لا تستخدم نون النسوة في محادثتهن أو الحديث عنهن، حتى لا يخدش ذلك شعورهن، وأن تستبدل نونهن، بميم. فبدلاً من أن تقول مثلاً: (كَرِهتنَّ النون) نقول: (كرهتم النون) ويظهر هذا الرأي في أحد الأبيات التي اقتطفتها من تلك القصيدة. وها هي ذي الأبيات:



هلا أتاك حديثهنه
النون ليست نونهنه

هذا القرار وثيقة
أفصح وذكِّرْ جمعهنه

النون تخدش سمعهـ
ـنّ وما أرقّ شعورهنه

ظلم الرجال نساءهم
ما للرجال ولهنه

النون فرض كفاية
يكفي النساء فروضهنه

والميم أحسم للخلا
ف فلا تثيروا كيدهنه

برئ النساء من الأنو
ثة مذ ملكن قيادهنه

عفن الخباء وما الحيا
ة إذا لزمن خدورهن

○○○○○

هدية موصولة بشعر

الهدية العينية ربما كانت أقل في قيمتها من الهدية المعنوية التي قد تأتي في قطعة نثرية أو أبيات شعرية لها وقع في نفس الشخص الذي توجه إليه.

والشعراء وأصحاب القلم لا يغفلون هذا الجانب إذا ما أهدوا أحداً هدية لتكون هديتهم المادية موصولة بهدية أخرى معنوية. ولقد جاء في «العقد الفريد» لابن عبد ربه. وفي كتاب «التحف والهدايا» لأبي محمد وأبي عثمان ابنيْ هاشم الخالديين أنه كتب بعض الكتاب إلى بعض الملوك: النفس لك، والمال منك، والرجاء موقوف عليك، والأمل مصروف نحوك. فما عسى أن أهدي إليك هذا اليوم، وهو يوم سهّلت فيه العادة سبيل الهدايا للسادة وكرهت أن تحليه من سُنته. فنكون من المقصرين، أو أن ندّعي في وسعنا ما يفي، بحقك علينا. فنكون من الكاذبين. فاقتصرنا على هدية تقضي بعض الحق وتنفي بعض الحقد وتقوم عندك مقام أجمل البر. ولا زلت أيها الأمير دائم السرور والغبطة. في أتم أحوال العافية، وأعلى منازل الكرامة تمر بك الأعياد الصالحة، والأيام المفرحة فتخلقها وأنت جديد تستقبل أمثالها فتلقاك ببهائها، وجمالها. وقد بعثتُ الرسول بالشكر لطيبه وحلاوته، والسفر جل لفأله وبركته، والدرهم لبقائه عند كل من ملكه ولا زلت حلو المذاق على أوليائك مراً على أعدائك. متقدماً عند خلفاء الله الذين تليق بهم خدمتك وتحسن أفضيتهم بمثلك. وقد جمعنا في هذه القصيدة ثناء ومسرة واعتذاراً وتهنئة. وهي:



غاد في المهرجان كأساً شمولاً
وأطعني ولا تطيعن عذولا

فهو يوم قد كان آباؤك الغر
يجلّونه محلاً جليلا

إن للصيف دولة قد تقضت
وأراك الشتاء وجهاً جميلا

وتجلت لك الرياض عن النّوْر
فكانت عن كل شيء بديلا

فتمتع باللهو لا زلت جذلا
ن وطرف الزمان عنك كليلا

لم أجد لي هدية حين حصّلـ
ـت كثيراً ملكته وقليلا

يعدل الشكر والثناء وإن لم
يك شكري لما أتيت عديلا

فجعلت الذي أطيق من الشكـ
ـر على ما عجزت عنه دليلا

○ ○ ○ ○ ○

الغناء المحرم والرقص المباح

روى البخاري ومسلم حديثاً جاء فيه أن السودان كانوا يلعبون يوم عيد بالدرق والحراب في المسجد، فقال رسول الله ﷺ لعائشة: «تشتهين تنظرين»؟. فقالت: نعم. فأقامني رسول الله ﷺ وراءه، خدي على خده وهو يقول: «دونكم يا بني أرفدة». وهذا الحديث ما فيه ما يدل على الغناء وإنما هو يدل على اللعب بالسلاح ورقصات الحرب.

والتحريم يقع فيما نص عليه حديث النبي ﷺ الذي روي عن أنس وعن عائشة أنه ﷺ قال: «صوتان ملعونان في الدنيا والأخرى: مزمار عند نعمة، ورنة عند مصيبة» رواه البزار والبيهقي.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل علينا رسول الله ﷺ وعندي جاريتان من جواري الأنصار تغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم بعاث وليست بمغنيتين فقال أبو بكر: أمزامير الشيطان في بيت رسول الله ﷺ وذلك في يوم عيد. فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر لكل قوم عيد وهذا عيدنا» رواه البخاري ومسلم. وعن جابر أن النبي ﷺ قال: «أهديتم الجارية ـ أي زففتموها إلى زوجها ـ فهلا بعثتم معها من يغنيها. يقول: أتيناكم أتيناكم فحيّونا نحيّيكم، فإن الأنصار قوم فيهم غزل» رواه أحمد وغيره. وعن روح بنت أبي لهب. قالت: دخل علينا رسول الله ﷺ حين تزوجت ابنة أبي لهب فقال: «هل من لهو؟» رواه أحمد. ومن الشعراء الذين أنكروا الغناء: ظهير الدين أبو إسحاق إبراهيم بن نصر الموصلي في قوله:

ألا قل لهم قول عبد نصوح
وحق النصيحة أن تستمع

متى علم الناس في ديننا
بأن الغناء سنةٌ تتبع

وأن يأكل المرء أكل الحما
ر ويرقص في الجمع حتى يقع

وقالوا: سكرنا بحب الإله
وما أسكر القوم إلّا القصع

كذاك البهائم إن أشبعت
يُرقصها ريِّها والشبع

ويسكره النّايُ ثُم الغنا
و - يَس - لو تليت ما انصدع

فيا للعقول ويا للنهى
ألا منكر منكم للبدع

تهان مساجدنا بالسما
ع وتكرم عن مثل ذاك البيع

○ ○ ○ ○ ○

الارتجاز شيء والغناء شيء آخر

الحداء والارتجاز شيء، والغناء وقرع الدف وضرب العود، والمزمار شيء آخر؛ فالأول مقبول ومباح وقد اسمتع له النبي ﷺ وفعله من الصحابة من فعله، وربما ندب إليه إذا كان ينشط على فعل خير والحداء في الحج والغزو والسفر. وقد ذكر أن النبي ﷺ ارتجز هو والصحابة رضوان الله عليهم في بناء المسجد وحفر الخندق. وذكر أنه ﷺ أمر نساء الأنصار أن يتغنين في عرس لهنّ.

أما الشيء الآخر فهو الغناء المحرم الذي لم يبحه الرسول ﷺ بل أنكره وحذر منه في أحاديث كثيرة منها قوله ﷺ: «الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء الزرع». وقوله: «يكون في هذه الأمة خسف ومسخ وقذف». قيل: ومتى ذلك يا رسول الله؟ قال: «إذا ظهرت القينات والمعازف، واستحلت الخمر». وقوله: «من قعد إلى قينة يستمع منها، صبّ الله في أذنيه الآنك يوم القيامة». وعن علي رضي الله عنه أن النبي نهى عن ضرب الدف ولعب الصنج وضرب الزمارة. ذكر الأحاديث ابن الجوزية في كتابه «أحكام الغناء» يقول أحد الشعراء:

برئنا إلى اللّه من معشر
بهم مرض من سماع الغناء

وكم قلت: يا قوم أنتم على
شفا جُرُفٍ ما به من بنا

شفا جُرُفٍ تحته هُوّة
إلى درك كم به من عنا

وتكرار ذا النصح منا لهم
لنُعْذَر فيه إلى ربنا

فلما استهانوا بتنبيهنا
رجعنا إلى اللّه في أمرنا

فعشنا على سنّة المصطفى
وماتوا تِنْتِنا تِنْتِنا

وعن تأثير الأصوات قال ابن عبد ربه في كتابه «العقد الفريد»: وكان صاحب الفلاحات يقول: بأن النحل أطرب الحيوانات كله إلى الغناء وأن أفراخها لتستنزلُ بمثل الزجل والصوت الحسن. وعن حسن الصوت يقول أحد الشعراء:

رب سماع حسن
سمعته من حَسَن

مُقَرِّبٌ من فرح
مُبَعِّدٌ من حزن

○○○○○

زورق الآمال والدوامات

يرى بعض الشعراء أن في سرعة الزورق منجاةٍ من مأزق، أو هروباً من خطر محدق، أو استعجالاً لمباشرة فضيلة، أو نيل هدف أو بلوغ غاية. وهم - وأعني بذلك الشعراء - يفتخرون بإمطاء الزورق ويفرشون فوق ظهره أحلامهم وتخيلاتهم، ثم يأخذون في التغني بما يؤملونه من آمال. لكنهم يلجؤون إذا لم يساعفهم الحظ في تحقيق ما يؤملون تحقيقه إلى تفقد زوارقهم. توطئة لإلقاء اللوم عليها.

وهذا الشاعر السعودي علي صالح أحمد الغامدي الذي جعل عنوان ديوانه الثاني: «زورق الآمال والدوامات». يقف الشاعر في قصيدة له عنوانها «الزورق» وقفة محاسب، ومعاتب لزورقه الذي لم يقاوم الرياح والأمواج. والذي أصبح مجدافه متعباً لا يمكّن صاحبه من تجاوز الأمواج المتدافعة والدوامات التي تبتلع كثيراً ممَّا يقع في محيطها من الأجسام. إلّا بالتكلف والتعب والمشقة.

ويواصل الغامدي معاتبته لزورقه فيقول: إن الجلد الذي يبدو عليه ليس جلداً حقيقياً، وإنما هو مرغم عليه، ولو لم أكن قائده لاستسلم وأظهر عجزه للأمواج المتلاطمة. ولم يجد الغامدي ما يشبه به ضعف زورقه إلّا بما كان يعرف طبعه. وهو الحصان أو الجمل الحرون الذي لا يستجيب للزجر ولا للنهر. وحتى السوط لا يحركه من مكان حرونه. ومن تلك القصيدة التي تبلغ أربعة عشر بيتاً. يقول:

زورق الآمال مطعون الشراع

سابحٌ تقذفه ريح الضياع





كلما قلت: سجا البحر بدتْ
عاليات الموج تعدو في اندفاعِ

وارتطام الموج لا تردعه
هزّة المجداف من كف الشجاعِ

وإذا التيار أبدى صلفاً
ضعتُ ما بين ارتداد واندلاعِ

فهو في هوجائه أرجوحة
عاجز المجداف متعوب الذراع

زورق الآمال يُبدي جلداً
مرغماً في صبره والانصياعِ

كم ألاقي فيه من دوّامة
تقلع المرساة أو تلوي شرعي

فأرى الدفة في توجيهها
كحرون الخيل والهجن الرعاعِ

○ ○ ○ ○ ○

المتنبي.. لقب لأبي الطيب

روى يوسف البديعي في كتابه «الصبح المنبي عن حيثية المتنبي» أن أبا عبد الله معاذ بن سليمان قال: قدم المتنبي اللاذقية سنة نيف وعشر وثلاثمائة فأعجبت بأدبه وحسن سمته فقلت له: إنك لرجل خطير تصلح لمنادمة ملك كبير. فقال: ويحك، أتدري ما تقول؟، أنا نبي مرسل. فقلت: مرسل إلى منْ؟. فقال: إلى هذه الأمة الضالة المضلة. قلت: ماذا تفعل؟. قال: أملأ الدنيا عدلاً كما ملئت جوراً. قلت: بماذا؟. قال: بإدرار الأرزاق، والثواب العاجل والآجل لمن أطاع وأتى، وضرب الأعناق لمن عصى وأبى. وقيل: إن من كلامه الذي كان يزعم أنه قرآن أنزل عليه: والنجم والسيار والفلك الدوار والليل والنهار إن الكافر لفي أخطار امض على سنبك واقف أثر من كان قبلك من المرسلين فإن الله قامع بك زيغ من ألحد في الدين وضل عن السبيل. وقد قيل: إنه ادعى أن الأرض تطوى له. وقد سئل في تلك الأيام عن النبي ﷺ. فقال: أخبر بنبوتي. حيث قال: «أنا لا نبي بعدي»، وأنا اسمي في السماء: (لا). قيل: وقد بايعه أهل كل مدينة في الشام وذلك بما مَهَرَ فيه من حيل حركية.

أمَّا أبو عبد الله معاذ بن سليمان فقد قال له: ابسط يديك أشهد أنك رسول الله؛ فبسط يده وبايعه بيعة الإقرار بنبوته. وبعد هذا كله قيل: إن المتنبي أخذ يعتذر عن تلك الادعاءات. قال أبو علي الحسن بن أحمد بن إبان: قيل للمتنبي: على من تنبأت؟. قال: على الشعراء. فقيل له: لكل نبي معجزة فما معجزتك؟. قال: هذا البيت:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى
عدواً له ما من صداقته بُدُّ

قال أبو الفتح عثمان ابن جني: سمعت أبا الطيب يقول: إنما لقبت بالمتنبي لقولي:

أنا ترب الندى ورب القوافي
وسمام العدا وغيظ الحسود

أنا في أمة تداركها اللّـ
ـه غريبٌ كصالح في ثمود

ما مقامي بأرض نخلة إلا
كمقام المسيح بين اليهود

وتلك أبيات من قصيدة طويلة قالها في صباه، ومنها قوله:

ضاق صدري وطال في طلب الرز
ق قيامي وقلّ عنه قعودي

أبداً أقطع البلاد ونجمي
في نحوس وهمتي في سعود

ومنها قوله:

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم
بين طعن القنا وخفق البنود

فرؤوس الرماح أذهب للغيـ
ـظ وأشفى لغل صدر الحقود

○○○○○

الشماخ بن ضرار يندم على بيع قوسه

تعهد الشماخ بن ضرار قوسه كتعهد الكسعي لقوسه وأجاد أيما إجادة في سرد الأطوار التي مَرّت بها قوسه منذ أن كانت غصناً في شجرة حتى تمّ له تثقيفها وصارت ملك يمينه وطوع بنانه. ثم صور الظروف القاسية التي أحاطت به وأرغمته على عرضها للبيع في الأسواق، ولقد كانت ندامته على بيعها تشبه تماماً ندامة الكسعي حينما كسر قوسه ظناً منه أنه لم يصب بها الهدف بدقة إلا في الصباح. ولكنه بعد أن حطمها ندم ندامة ضرب بها المثل ولقد أدرجت هذه الحكاية للكسعي في موضع من هذا الكتاب تحت عنوان: «الكسعي يندم على تحطيم قوسه».

أما الشماخ فقد قال هذه الأبيات في ندامته على بيع قوسه بسبب الظروف التي أحاطت به:

فلما اطمأنت في يديه رأى غنى
أحاط به وازورّ عمن يجاوز

فوافى بها أهل المواسم فانبرى
لها بَيِّعٌ يغْلى بها السوم رائز

فقال: إزار شرعَبيٌّ وأربعٌ
من السيراء أو أوراق نواجز

ثمان من الكيريّ حُمْرٌ كأنها
من الجمر ما ذكى على النار خابز



وبـردان مـن خـال وتـسـعـون درهـمـاً
ومع ذاك مقروظ من الجلد ماعَز

فـظـل يـنـاجـي نـفـسـه وأمـيـرهـا
أيأتي الذي يعطى بها أم يجاوز؟

فـقـالـوا لـه: بـايـع أخـاك ولا يـكـن
لك اليوم عن ربح من البيع لاهز

فـلـمـا شـراهـا فـاضـت الـعـيـن عـبـرةً
وفي الصدر حُزاز من الوجد حامز

○ ○ ○ ○ ○

أبو العلاء وخصومه أثناء حياته وبعد موته!!

لما رحل أبو العلاء المعري في اليوم الرابع من أوائل ربيع الأول سنة ٤٤٩هـ، بعد أن عاش ٨٦ سنة. أقول: لما رحل وانقطع عن الدنيا ولم يبق إلّا أثره كثرت خصومه وانقسم المهتمون بالأدب والفلسفة والشعر حول شعره وآرائه إلى قسمين: قسم يقول: إنه شكوكي، ويقذفه بالزندقة والمروق، وقسم ينافح عنه ويعدّد مآثره. وإذا ما علمنا أن أبا العلاء قد انطبق عليه اسم شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء. فإن الأخذ والرد فيما تركه من أقوال وآراء وارد ولن ينتهي إلى حد. والمعارك التي تقوم بين النقاد والفلاسفة والكتاب والأدباء حول آرائه سوف لا يخبو أوارها مهما طال الزمن. والذي قرأ رسائله ولزومياته يجد فيها إيماناً، ويلمس في بعضها الشكوك اللفظية التي ربما أنه لو سئل عنها لفلسف الإجابة في صيغة مقنعة.

أقول هذا لأن أبا العلاء لم يلزم الصمت حينما تعرض له النقاد في حياته وإنما جابههم بالتعليلات المقنعة لكل ما تطرقوا له من آرائه. ولما رأى أن بعض أولئك النقاد قد تطاول ألف كتاباً سماه «زجر النابح»، رد فيه على الذين لا يحسنون فهم ما أشار إليه مما ضمنه لزومياته، ويفسرونه بما لم يكن يقصده، بأسلوب يجترهم حيناً إلى العدول عن معارضته عن قناعة، وحيناً يزجرهم زجراً يحمل على قبول رأيه. ومن تلك المواقف الزاجرة والرادعة هذا الموقف الذي دار حول أبيات جاءت ضمن قصيدته التي منها قوله:

من للدفين بأن يفرّج لحده
عنه فينهض وهو أشعث أغبرُ



والدهر يقدُم والمعاشر ينقضي

والعجز تصديق بمينٍ يخبرُ

زعم الفلاسفة الذين تنطسوا

إن المنية كسرها لا يجبر

قالوا: وآدم مثل أوبر والورى

كبناته جهلَ امرؤٌ ما أوبرُ

كل الذي تحكون عن مولاكم

كذبٌ أتاكم عن يهودَ يُحَبّر

رامت به الأحبارُ نيل معيشة

في الدهر والعمل القبيح يُتبّرُ

عكس الأنام بحكمة من ربّه

فتحكم الهجري فيه وسنبر

كذب يقال على المنابر دائماً

أفلا يميد لما يقال المنبر

قال أبو العلاء في «زجر النابح» زاجراً من انتقده في هذه الأبيات ـ: في البيت الثالث حث على تكذيب الفلاسفة بأن المنيّة لا يجبر كسرها ولا يبعث منها. وفي البيت الرابع تكذيب للفلاسفة الذين شبهوا آدم عليه السلام بالأوبر وبناته بالكمأة. وفي البيت السابع إقرار بأن جميع ما يجري في الأمم بحكم الله تعالى. ويردُّ على الذين قالوا: إن أبا العلاء يقصد بالهجري ـ النبي ﷺ ـ؛ بأن المراد بالهجري هو القرمطي؛ لأنه وأهل بيته مستولون على بلاد هجر. ويقال: إن جده أوصاهم بلزوم تلك الأرض «هجر» لنأيها عن السلاطين، وسنبر رجل كان يصحبهم قديماً. قال: والسنابرة من ولده بقية ـ عاشوا مع أولئك القرامطة ـ.

سرعة الخاطرة في قصيدة المتنبي

ومن الناس من تكون خاطرته سريعة وحاضرة فلا يحرج عندما يوجه إليه سؤال مفاجئ ربما يقصد منه إجابة فيها شيء يعيبه. لكن سرعة الرد وورود الخاطرة التي يستلهم منها صاحبها الرد الشافي والكافي. بل ربما يكون لاذعاً للشخص السائل.

وتشبه هذه الخاطرة السريعة السلاح الذي يكون حيناً دفاعياً وحيناً هجومياً كاسحاً خاصة إذا كان السؤال المتولد من الممازحة أو نحوها.

وإذا عرف الإنسان بسرعة رده حَسِبَ له المتحدث معه حساباً وقدّر لإجابته السريعة والتي قلنا: ربما تكون لاذعة تقديرات تقيه من حر لذعتها. وأهل الأدب يحرصون على جمع مثل تلك الإجابة ليدخلوها مهذبة أو غير مهذبة في مقود الفكاهة.

ولذا فإن كثيراً من كتب الأدب مليئة بأنواع الردود السريعة سواء اللاذع منها أو غير اللاذع؛ لأن استظرافها حملهم على الحرص على تدوينها. ومن تلك الصور المشتملة على سرعة الخاطرة ما روي من أن شخصاً يدعى محموداً كان صديقاً للأديب الكبير - إمام العبد وإمام العبد هذا أسود اللون - فقال محمود وكان يمازح إمام العبد ويوغل في بعض الأحيان في ممازحته: ما قولك يا إمام في قصيدة المتنبي التي مطلعها:

عيد بأية حال عدت يا عيد
بما مضى أم بأمر فيك تجديد

أليست من أحسن القصائد وأصدقها؟. وقد أراد أن يشير إلى قول المتنبي:



لا تشتر العبد إلّا والعصا معه
إن العبيد لأنجاس مناكيد

وفطن لذلك، إمام العبد وكان سريع الخاطر فأجابه طبقاً لقوله ببيت من القصيدة وهو:

ما كنت أحسبني أحيا إلى زمن
يسيء بي فيه كلب وهو محمود

وملخص قصة قصيدة المتنبي التي أوغل في هجاء كافور فيها: هي أن المتنبي كان يمتدح كافور الأخشدي مولى الإخشيد بمصر والذي قيل عنه: إنه قتل أولاد مولاه وتولى حكم مصر. وأصحاب كتب السير قد أثنوا على كافور وذلك بقولهم: إنه كان يقرب العلماء والفقهاء وأن مجالسه عامرة بالأدب لكن المتنبي كان يقصد من مدحه لكافور أن يوليه إمارة شطر من بلاد مصر فما حقق له كافور هذه الرغبة فأخذ يعمل في خفية على الرحيل عنه فأعدّ الإبل وخفف الرحل وقال قصيدته المشهورة التي مر ذكر مطلعها وبيتين منها في يوم عرفة قبل مسيره من مصر بيوم واحد، ومن تلك القصيدة قوله:

أكلما اغتال عبد السوء سيده
أو خانه فله في مصر تمهيد

صار الخصيّ إمام الآبقين بها
فالحر مستعبد والعبد معبود

من علم الأسود المخصي مكرمة
أقومه البيض أم آباؤه الصيد

أم أذنه في يد النخاس دامية
أم قدره وهو بالفلسين مردود

أوْلى اللئم كويفير بمعذرة
في كل لؤم وبعض العذر تفنيد

قصة في قصيدة!!

والشعر القصصي لا يحسن سرده وترتيب أحداث القصة فيه إلّا شاعر يفوق في مقدرته الكاتب المسرحي والروائي؛ لأن كاتب القصة يطلق عنان خياله ويكتب بلا التزام. فلا قافية يبحث عنها، ولا تفعيلة يخشى اختلالها. أما الشاعر القصصي فهو الذي يستحضر معه عدة أدوات متى ما أراد تضمين قصة في قصيدة ـ أو بالأصح تحويل قصة نثرية إلى قصة شعرية ـ ولعل من أهم تلك الأدوات. البحث عن العبارات المشوقة، والأسلوب الذي يبعد عن القارئ الملل من ناحية، ويحيط بجوانب القصة من ناحية أخرى، والحرص على أن يكون بناء القصيدة القصصية بناءاً محكماً. ولقد حرص كثير من الشعراء القدامى والرعيل الأول من المعاصرين كشوقي وأبناء جيله على صنع الشعر القصصي، فخلّفوا لنا كمّاً لا بأس به من هذا النوع. هو يعرف اليوم بالشعر المسرحي.

وإذا ما أردنا أن نقيم فارقاً بين القصيدة العادية، وقصيدة القصة فإن ذلك يحتاج إلى دقة في الإشارة إلى الفارق؛ لأن معظم القصائد تترجم موضوعاً كان قد لفت نظر الشاعر فصار مادة لقريحته التي عرضته في صورة قصة ذات أحداث، أو مناجاة أو تقاول أو ما إلى ذلك من وسائل العرض. لكن الذي نستطيع أن نسميه شعراً قصصياً هو ذلك الشعر الذي يبلور قصة كانت مكتوبة أو مروية فأتى الشاعر المقتدر فنظمها في قصيدة اكتملت فيها عوامل التأثير على القارئ... مثال ذلك قصة الرجل الذي جاء إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليشكو له زوجته التي وقع منها شجار وتطاول عليه فوجد عمر بن الخطاب

رضي الله عنه واقعاً مع زوجته في أعظم مما وقع فيه حيث رآها وقد رمته رضي الله عنه بمفتاح فشج وجهه. وقد عرض هذه القصة الشاعر العماني عبد الله بن علي الخليلي في قصيدة تبلغ نحواً من ٥٠ بيتاً، منها قوله:

رمته بمفتاح على حر وجهه

فشجته: ويل العرس إن حلم البعل

فقام فتى الخطاب تحت وقاره

يجر رداء الحلم تهفو به النعل

فهوّن ذلك المشهد على الرجل شجار زوجته. لكنه أراد أن يبين لعمر أن مجيئه كان لغرض شكوى زوجته التي تسيء إليه وتشاجره دائماً. يقول من ذلك المقطع فيها:

فجئتك أشكوها فروعني الذي

سمعت وأنت الفحل ليس له مثل

ثم بعد ذلك رغب في سؤال عمر عن سبب تسامحه رغم عنف زوجته الذي وصل إلى شج وجهه بالمفتاح الذي رمته عليه. يقول في ذلك المقطع:

أهنت عليها أم حمى الدين سرحها

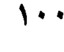
فأجفلت عنه وهي في سرحه تسلو

فقال: فراشي يا بني وخادمي

وفي حجرها يربو وينتشئ النجل

وربة بيتي بل وكنز سريرتي

وإن يبدُ حيناً في تصرفها جهل





تسوءك لا بغضاً ولا عن كراهة

ولكن في أخلاق بعض النساء طفل

فلن جانباً لو قابلتك بشدة

ورق لها يجمعكما في الهوى الشمل

○ ○ ○ ○ ○

وهل يخفى الحب؟

ومن الشعراء الذين طفح بهم كيل الحب وغمرهم فيضه من يحاول كتمانه لسبب أو لآخر ولعل العباس بن الأحنف هو أشدهم محاولة لكتمانه، ولكن هل يستطيع شاعر أن يكتم عشقه؟، لا أظن ذلك؛ لأن لسان الشاعر بطبيعته لا بد أن يلمح أو يصرح عما استتر في داخله مهما حاول كتمانه؛ لكن هناك ما يستطيع السيطرة عليه في مجال محاولة كتمان السر، وهو عدم ذكر اسم محبوبته وإن كان الكثير منهم يحوم حول ذلك ويقرب ما يستدل به على اسم محبوبته.

يقول العباس بن الأحنف حينما رأى محبوبته وحاول الدمع كسر كتمانه لعشقه:

هبوني أغض إذا ما بدت
وأملك طرفي فلا أنظر

فكيف استتاري إذا ما الدمو
ع نطقن فبحن بما أضمر

أمني تخاف انتشار الحديث
وحظي في صونه أوفر

ورغم هذا التكتم على الحب، والمحافظة على استمرارية إسدال الستار على ما يعصر قلبه من عشق إلّا أنه ينهار ويصرح باسم محبوبته «فوز»، فلما انكشف أمره حاول بعض النساء اللواتي حسدن صاحبته «فوز» بما ينشده فيها من أشعار، فسمت جارية لها باسم صاحبته «فوز» لتوهم الناس أن العباس بن الأحنف إنما كان



يتغزل في جاريتها. فما كان منه إزاء ذلك إلّا أن قال:

ما ينقضي عجبي من جهل حاسدة
كانت بذي الأثل من خدني وأنصاري

سمت وليدتها فوزاً مغايظة
عذرت لو لطمتني ذات أسوار

وما يزال النساء من قرابتها
في كل ناحية يهتكن أستاري

ومما قاله الشعراء الذين يفخرون بكتمان السر المتعلق بالحب والعشق قيس بن ذريح. وذلك في قوله:

لو أن امرءاً أخفى الهوى عن ضميره
لمتُ ولم يعلم بذاك ضمير

ولكن سألقى اللّه والنفس لم تبح
بسرك والمستخبرون كثير

○○○○○

الحادرة شاعر طغى لقبُه على اسمه

الحادرة: هو قطبة بن أوس بن مِحْصن من بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان، ثم من غطفان بن سعد بن قيس عيلان بن مضر. اشتهر بلقبه الحادرة، أو الحويدرة بالتصغير. ويرجع سبب تلقيبه بالحادرة إلى قول زبّان بن سيار الفزاري له:

كـأنـك حـادرةُ الـمـنـكـبـيـ
ـن رصـعـاءُ تـنـقـض فـي حـائـر

وذلك أثناء تهاج حصل بينه وبين قطبة. وقد ذكر أن الحادرة شاعر من شعراء قيس الذين تحوّل فيهم الشعر في الجاهلية بعد ربيعة ثم آل من بعدهم إلى تميم.

ولم تعرف سنة ولادة الحادرة ولا سنة وفاته. غير أنه يعرف بأنه شاعر جاهلي. وكان حسان بن ثابت إذا قيل له: تُنوشدت الأشعار في موضع كذا، وكذا. يقول: فهل أُنشدت كلمة الحويدرة «بكرتْ سُميّة غُدوة فتمتعي» وهذا مطلع عينية الحادرة المشهورة.

والحادرة يعد من فحول الشعراء وقد ذكره الأصمعي. وعدَّه محمد بن سلام في الطبقة التاسعة من فحول الجاهلية.

أما رد الحادرة على قصيدة ابن زبّان التي منها البيت السالف الذكر والذي كان سبباً في تغيير اسمه من قطبة إلى الحادرة، فقد كان رداً عنيفاً، إذ يقول:



لحا اللّه زبّان من شاعر
أخي خنعة غادرٍ فاجر

كأنك فقّاحة نوّرت
مع الصبح في طرف الحائر

ويقول أيضاً هاجياً زبّان بن سيَّار:

لعمرك لا أهجو مَنُولة كلها
ولكنَّما أهجو اللئام بني عمرو

مشاتيم لابن العمّ في غير كنهه
مباشيم عن لحم العوارض والتِمر

يزجّون أسدام المياه بأيْنُق
مثاليب مُسْوَدٍّ مَغابنها أدرِ

ويقول أيضاً في هجائه لزبّان:

ذكرت اليوم داراً هيجتني
لزبَّانَ بن سيَّار بن عمرو

ليالي تستبيك بجيد رِئم
ومفلوق عليه القرمُ يجري

○ ○ ○ ○ ○

الجلود من هدايا النوكي وتحف المتخلفين

قسم الخالديان: أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد ابنيْ هاشم الخالديين. كتابهما «التحف والهدايا» إلى أبواب تحت عناوين رئيسية من بينها «هدايا النوكي وتحف المتخلفين»، وقد أوردا في هذا الباب ما هو مستظرف ومستطرف. ومما جاء في ذلك ما نصه: حدثنا أبو القاسم علي بن أحمد الأصبهاني قال: كان عندنا بأصبهان رجل حسن النعمة واسع النفس كامل المروءة يقال له: ـ سماك بن النعمان ـ وكان يهوى جارية مغنية من أهل أصبهان لها قدر ومعنى تعرف «بأم عمرو» فلإفراط حبه إيّاها وصبابته بها، وهب لها عدة من ضياعه وكتب عليه بذلك كتباً، وحمل الكتب إليها على بغل فشاع الخبر بذلك، وتحدث الناس به واستعظموه. وكان بأصبهان رجل متخلف بين الركاكة، يهوى مغنية أخرى، فلما اتصل به ذلك ظن بجهله وقلة عقله أن «سماكاً» إنما أهدى إلى «أم عمرو» جلوداً بيضاء لا كتابة فيها. وأن هذا من الهدايا التي تستحسن ويجلّ موقعها عند من تهدى إليه. فابتاع جلوداً كثيرة وحملها على بغلين لتكون هديته ضعف هدية «سماك» وأنفذها إلى التي يحبُ. فلما وصلت الجلود إليها ووقفت على الخبر فيها تغيظتْ عليه، وكتبت إليه رقعة تشتمه فيها، وتحلف أنها لا كلمته أبداً. وسألت بعض الشعراء أن يعمل أبياتاً في هذا المعنى لتودعها الرقعة.

وقد بحثت عن اسم الشاعر الذي طلبت إليه تلك المغنية عمل أبيات توافق شتمها لذلك المتخلف فلم أجده. أما الأبيات فقد وجدتها في «وفيات الأعيان، ج/٥» كما هي في كتاب «التحف والهدايا». ونصها:

لا عـاد طـوعَـكَ مَـنْ عـصـاكـا
وحُـرمـتَ مـن وصـلٍ مُـنَـاكـا

فـلـقـد فـضـحـت الـعـاشـقـيـ
ـن بـقـبـح مـا فـعـلـتْ يـداكـا

أرأيـت مـن يـهـدي الـجـلـو
د إلـى عـشـيـقـتـه سـواكـا

وأظـن أنـك رُمْـتَ أن
تـحـكـي بـفـعـلـك ذا «سـمـاكـا»

ذاك الـذي أهـدى الـضـيـا
ع «لأم عـمـرو» والـصِّـكـاكـا

فـبـعـثـتَ مُـنـتـنـةً كـأنـ
ـك قـد مـسـحـتَ بـهـنَّ فـاكـا

مـن لـي بـقـربـك يـا رقـيـ
ـع ولـسـت أهـوى أن أراكـا

لـكـن لـعـلِـي أن أقـطّـ
ـع مـا بـعـثـت عـلـى قـفـاكـا

○○○○○

عمر يغني غناء مشروعاً

كان عمر رضي الله عنه في سفر فرفع عقيرته بالغناء وأنشد:

وما حملت من ناقة فوق رحلها
أبـر وأوفـى ذمـة مـن مـحـمـد

فاجتمع الركب إليه، فقرأ فتفرقوا. فعل ذلك وفعلوه مرات فصاح بهم: «يا بني المتكاء!. إذا أخذت في مزامير الشيطان اجتمعتم، وإذا أخذت في كتاب الله تفرقتم؟» قال عباس محمود العقاد في كتابه «عبقرية عمر»: لا يلومهم على الغناء وسماعه وإنما يلومهم أن يؤثروه على سماع القرآن مرات. هذا ويروى أن عمر رضي الله عنه دخل على خادمه أسلم وابنه عاصم يوماً فسمعهما يغنيان، بصوت الحداء كما يحدو راكب البعير، فوقف يستمع، ثم يستعيدهما فحسبا أن الخليفة مسرور ومعجب بغنائهما. ولما انتهيا سألاه: أينا أحسن صنعة يا أمير المؤمنين؟. فضحك عمر وقال: مثلكما كمثل حماريْ العباديّ. سئل أيّهم شرّ؟. فقال: هذا، ثم هذا.

أما البيت الذي أنشده عمر رضي الله عنه فهو من ثلاثة أبيات ذكرها أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي في كتابه «جمهرة أشعار العرب» ونسبهما إلى قرة بن هبير بن عامر بن سلمة أنهى نسبه إلى هوازن. وهي كما يلي:

حبـاهـا رسـول الـلّـه إذ نـزلـت بـه
وأمـكـنـهـا مـن نـائـل غـيـر مـفـتـد



فما حملت من ناقة فوق رحلها
أبـر وأوفـى ذمـة مـن مـحـمـد

وأكسى لبُرد الحال قبل ابتذاله
وأعطى لرأس السابح المتجرد

والأشعار التي راقت للناس وتغنى بها المغنون لا تحصر. وإن صح نصف ما ذكره صاحب «الأغاني» من الأبيات التي أطربت الناس، وتغنّى بها المغنون فإن ذلك يعني أنه كان للغناء دور في تحسس ما يطرب الناس. من ذلك ما تغنى به عبد الله بن طاهر من أبيات لفارعة المرية ترثي فيها أخاها مسعود بن شداد. منها قوله لها:

يا عين جودي لمسعود بن شداد
بكل ذي عبرات شجوة بادي

شهاد أندية رفاع أبنية
شداد ألوية فتاح أسداد

نحار راغية قتال طاغية
حلال رابية فكاك أقياد

قوال محكمة نقاض مبرمة
فراج مبهمة حباس أوراد

حلال ممرعة حمال معضلة
قراع مفظعة طلاع أنجاد

○ ○ ○ ○ ○

الحداء منطلق الغناء

يقال: إن أول من سنّ الحداء هو مضر بن نزار. سقط عن جمله فانثنت يده فكان يمشي خلف الإبل وهو يتأوه من الألم ويقول: - وايداه - وكان ذا صوت حسن فأعنقت الإبل على ذلك التأوه وذهب كللها. ومنهم من يقول: إن أعرابياً ضرب غلامه وبعض أصابعه فمشى الغلام وهو يقول: (دي دي) أراد - يا يدي، يا يدي - فسارت الإبل على صوته وبهذا الاكتشاف أصبح الحداء غناء للعرب في سفرهم.

ويقول الإخباريون: إن أول نوع عرفه العرب من الغناء اسمه (النصب)، والنصب ضرب من الغناء يشبه الحداء إلا أنه أرقّ منه. قال أبو فرج الأصفهاني: وهذا النوع من الغناء ينسب إلى رجل اسمه، أحمد النصبي، وأصل اسم أحمد هذا هو، أحمد بن أسامة الهمداني من رهط الأعشى الأدنين، وله مع الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور مواقف. فقد قيل: إنه لما انصرف المنصور من الحج ومرّ بالمدينة، فذكر له مغنية اسمها بصبص وسمع غناءها فلم تعجبه وحينما هم بالرحيل قال: الذي يعجبني أن يحدو بي الليلة حادياً بشعر طريف العنبري فهو آلف في سمعي من غناء بصبص وأحرى أن يختاره أهل العقل. فدعي بحادي شهير كان إذا حدا وضعت الإبل رؤوسها لصوته وانقادت انقياداً عجيباً. فسأله المنصور: ما بلغ من حسن حدائك؟. فقال: تعطش الإبل ثلاثاً أو خمساً وتدني من الماء ثم أحدو فتتبع كلها صوتي ولا تقرب الماء. فلما كان الليل قال المنصور: أسمعني من حدائك. فحدا به بأبيات نسبها أبو فرج الأصفهاني إلى أبي عروبة المدني:

إني وإن كان ابن عمي كاشحاً
لمزاحم من دونه وورائه
وممدّه نصري وإن كان امرءاً
متزحزحاً في أرضه وسمائه
وأكون مأوى سرّه وأصونه
حتى يحق عليّ يوم أدائه
وإذا أتى من غيبة بطريفه
لم أطلع ماذا وراء خبائه
وإذ تحيّفت الحوادث ماله
قرنت صحيحتنا إلى جربائه
وإذا تريش في غناه وفرته
وإذا تصعلك كنت من قرنائه
وإذا غدا يوماً ليركب مركباً
صعباً قعدت له على سيسائه

وقد أعاد أبو فرج الأصفهاني هذه الأبيات في أخبار حمزة بن إمبيض الحنفي، وزاد عليها بيتاً هو:

وإذا ارتدى ثوباً جميلاً لم أقل
يا ليت إن علي حسن ردائه

والقصيدة تعد في عمومها من أنصف ما قالته العرب. أما ما كان من شأن المنصور مع الحادي فقد أعطاها درهماً. فقال: لقد حدوت بهشام بن عبد الملك فأعطاني عشرين درهماً، وأنت درهم. فطالبه المنصور بردها؛ لأن هشام أعطاه إيّاها بغير وجه حق. فأخذ يبكي ويسترحم. فعفى عنه بشرط أن يحدو به ذاهباً وراجعاً ولا يأخذ منه شيئاً.

من ألوان الخداع

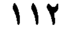
جاء في كتاب الكامل أن معاوية بن أبي سفيان لما نَصَبَ يزيد لولاية العهد أقعده في قبة حمراء فجعل الناس يسلمون على معاوية ثم يميلون إلى يزيد حتى جاء رجل ففعل ذلك ثم رجع إلى معاوية. فقال: يا أمير المؤمنين، أعلم أنك لو لم توَل هذا أمور المسلمين لأضعتها ـ والأحنف جالس ـ فقال له معاوية: ما بالك لا تقول يا أبا بحر!. قال: أخاف الله إن كذبت وأخافكم إن صدقت. فقال: جزاك الله عن الطاعة خيراً. فلما خرج الأحنف لقيه الرجل بالباب. فقال: يا أبا بحر إني لأعلم أن شرَّ من خلق الله هذا وابنه، ولكنهم قد استوثقوا من هذه الأموال بالأبواب والأقفال. فلسنا نطمع في استخراجها إلا بما سمعت. فقال الأحنف: يا هذا أمسك عليك، فإن ذا الوجهين خليق ألا يكون عند الله وجيهاً. ومن ما قيل من الأشعار في الخداع والمداهنة، قول أحدهم:

وقد بلينا بقوم لا خلاق لهم
إلى مداراتهم تدعو الضرورات

لا الدين يوجد فيهم لا ولا لهم
من المروءة ما تسمو به الذات

والصبر قد عز والآمال تطمعنا
والعمر يمضي فتارات وتارات

والموت أهون مما نحن فيه فقد
زالت من الناس واللّه المروات





يا رب لطفك قد مال الزمان بنا
من كل وجه وأبلتنا البليات

وقول الشافعي. ويروى لأحمد الخطابي:

ما دمت حياً فدار الناس كلهم
فإنما أنت في دار المدارات

وقول أبي العلاء:

أترغب في الصيت بين الأنام
وكم خمل النَّابه الصيِّت

وقول أبي سليمان:

من يدر. داري ومن لم يدر سوف يرى
عما قليل نديماً للندامات

○ ○ ○ ○ ○

أبو العتاهية، لقب لإسماعيل

لقد لقب إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان - ويكنى أبا إسحاق - بأبي العتاهية فطغى هذا اللقب على اسمه، حتى أن بعضهم ليراهن على أنه كنية له، وليس بلقب اكتسبه بفعل أو قول.

والحقيقة أن كثيراً من الألقاب تطغى على الأسماء الحقيقية فتجمدها خاصة إذا وجدت استحساناً وقبولاً لدى الملقب بها.

أما كيف لقب أو كني إسماعيل بأبي العتاهية. فقد قيل: إن المهدي قال له مرة: أنت إنسان متحذلق معتّه فاستوت له كنية غلبت على اسمه وكنيته - ويقال للرجل المتحذلق - أي المتكيّس المتظرف: - عتاهية - ويقال: أبو عتاهية بإسقاط الألف واللام.

وقيل: إنما كني بأبي العتاهية؛ لأنه كان يحب الشهرة والتّعته والمجون في حداثته. وسيان كان سبب تكنيته بأبي العتاهية بهذا التعليل أو بذاك. فإن الأمر لا يهمنا من هذه الناحية بقدر ما يهمنا منه التدليل على أن الكنية أو اللقب، يغلب في كثير من الأحيان على الاسم الحقيقي.

ويبقى أن نعرف أن أبا العتاهية شاعر لم يأت على ذكر الموت والتزهد شاعر مثله. وهذه أبيات من إحدى قصائده التي تفيض بالحكمة والموعظة:

وإذا ابـــن آدم نـــال رفـــعـــه مـــنـــزل
قُـــرن ابـــن آدم عـــنـــدهـــا بـــســفـــال



وإذا الفتى حجب الهوى عن عقله
رشُد الفتى وصفا من الأوجال

وإذا الفتى خبط الأمور تعسفاً
حمد الحرام وذمّ كل حلال

وإذا الفتى لزم التلون لم تجد
أبداً له في الوصل طعم وصال

وإذا توازنت الأمور لفضلها
فالدين منها أرجح المثقال

وإذا طمعتَ لَبِستَ ثوب مذلة
إن المطامع معدن الإذلال

وإذا سحبت إلى الهوى أذياله
كسبت يداك مودة الجهال

وإذا حللت عن اللسان عقاله
ألقاك في قيل عليك وقال

○ ○ ○ ○ ○

يتيمة الدهر

يتمية الدهر ليست فتاة مات والدها، وإنما هي اسم اختاره أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري، المتوفى سنة ٤٢٩ من الهجرة، لمؤلفه المكون من أربعة أجزاء.

أما كيف اختار هذا الاسم «يتيمة الدهر» لذلك المؤلَّف؟. فإني أظن أنه كان يقصد بأن مؤلفه هذا قد حوى ما لذ وطاب من فنون الأدب وأنه أشبه ما يكون باليتيمة التي تفردت بالحياة والبقاء حيث مات أبواها ولم ينجبا شقيقاً أو شقيقة لها يماثلها في حسنها وأدبها وجمالها فأصبحت متفردة بسبب يتمها بذلك كله.

أما موضوع اليتيمة فقد وفق إليه الثعالبي كتوفيقه لتسميتها بذلك الاسم المثير، والذي قرأ اليتيمة يجد أن الثعالبي قد أجهد نفسه في تأليفها وبذل جهداً كبيراً في تحقيق حجمها وقيمتها الأدبية. إلّا أنه رحمه الله وهو الذي له دراية بأَدب القرآن والسنّة المطهرة لم يتورع عن ذكر بعض الأشعار السخيفة المستهجنة التي ليس لذكرها والاستشهاد بها ضرورة في تأليف اليتيمة. فمثل إيراده لقول أبي القاسم الحسين بن الحسين بن واسانة المعروف بالواساني الذي قال عنه: إنه أعجوبة زمانه وفريد عصره وباقعته. وهو أحد الفضلاء المجيد في الهجاء. وكان في زمانه كابن الرومي في أوانه، والذي عرض بهجاء لابن بسطام في أبيات، منها قوله:

ومهفهف يزهو عليّ بجيده
وبخصره وبردفه وبساقه



وقوله منها:

حتى إذا مددته وحللت عن
كفل مباح الحل بعد وثاقه

وافتْ إليّ أصنة من دبره
بخلاف ما قد فاح من أطواقه

فأجبته ماذا فقال بحرقة
ودموعه تنهل من آماقه:

هذا ابن بسطام أتاني طارقاً
بلطيف حيلته وحسن نفاقه

وعلا على كفلي وبلغم مثقبي
برياله المنهل من أشداقه

فبقي صُنان رُضابه في مثقبي
زمناً لحاه اللّه بعد فراقه

فا اللّه يحرمه معيشته كما
قد سدّ مكسب مثقبي ببصاقه

وهذه الأبيات قد اخترتها من أحسن ما أورده في «اليتيمة» من ساقط القول وفاحشه مما جعلها تجيء كالتمر المخلوط بالحشف أو البر المختلط بالشعير فأفسد ما فيها من مر. ما حوته من حلو طيب المذاق. فعاف قراءتها كثير من الأدباء الذين يتأففون من قراءة ساقط القول. فعفا الله عنه.

○○○○○

اليتيمة

اليتيمة ليست طفلة مات أبواها وتركاها تشرئب عيناها إلى أيدي تفضل وتكرم الكرماء، وأذناها إلى كلمة حنان وتعطف يفوه بها الناس من حولها وإنما الذي قصدته بذلك هي القصيدة التي شاع ذكرها وذاع صيتها، وأطلق عليها اسم اليتيمة وعرفتْ به في مجال الأدب ولدى الأدباء. لكن هذه القصيدة لم تحقق بعد تحقيقاً يستند إليه في إثبات قائلها أو مناسبتها حيث كثرت الأقوال والآراء حولها وأكثر هذه الأقوال انتشاراً في كتب الأدب هو أن فتاة من بنات أمير من أمراء نجد. بارعة الجمال اسمها دعد كانت شاعرة بليغة وفيها أنفة فخطبها إلى أبيها جماعة كبيرة من كبار الأمراء. وهي تأبى الزواج إلّا برجل أشعر منها فاستحث الشعراء قرائحهم ونظموا القصائد فلم يعجبها شيء مما نظموه. وكان في تهامة شاعر بليغ حدثته نفسه أن ينظم قصيدة ويذهب بها إلى نجد فالتقى في طريقه بشاعر آخر فلما اجتمعا باح التهامي لصاحبه بغرضه، وقرأ له قصيدته فرأى أن قصيدة التهامي أعلى طبقة من قصيدته. وأنه إذا جاء بها إلى دعد أجابته إلى خطبتها فوسوس له الشيطان أن يقتل صاحبه، وينتحل قصيدته. فقتله، وحمل القصيدة حتى أتى نجداً ونزل على ذلك الأمير، وأخبر بما حمله على المجيء، فدعا الأمير ابنته، فجلست بحيث تسمع وترى، وأخذ الشاعر ينشد القصيدة فأدركت دعد من لهجته أنه ليس تهامياً، ولكنها سمعت أثناء إنشاده أبياتاً تدل على أن ناظمها من تهامة. فعلمت بنباهتها أن الرجل قتل صاحب القصيدة وانتحل قصيدته فصاحت بأبيها: ـ اقتلوا هذا فإنه قاتل بعلي ـ فقبضوا عليه، واستنطقوه فاعترف. أمَّا القصيدة فهي تبلغ اثنين



وستين بيتاً تقريباً. وقد استهلها شاعرها بالوقوف على الأطلال، ومنها قوله:

هــل بــالــطــلــول لــســائــل رد
أم هــل لــهــا بــتــكــلــم عــهــد

ثم بدأ في وصف دعد فقال:

بــيــضــاء قــد لــبــس الأديــمُ أديــم الــ
ــحــســن فــهــو لــجــلــدهــا جــلــد

ويــزيــن فــوديــهــا إذا حــســرت
ضــافــي الــغــدائــر فــاحــم جــعــد

فــالــوجــه مــثــل الــصــبــح مــبــيــضّ
والــفــرع مــثــل الــلــيــل مــســود

ضــدان لــمــا اســتــجــمــعــا حــســنــاً
والــضــد يــظــهــر حــســنــه الــضــد

وقال:

ولــهــا بــنــان لــو أردت لــه
عــقــداً بــكــفــك أمــكــن الــعــقــد

وبــصــدرهــا حــقــان خــلــتــهــمــا
كــافــورتــيــن عــلاهــمــا نــد

وقوله:

مــا شــانــهــا طــول ولا قــصــر
فــقــيــامــهــا وقــعــودهــا قــصــد

○ ○ ○ ○ ○

عتاب، ولوم، وتمني!!

إن رسوخ العقيدة وصدق الإيمان بالبعث والنشور، والتشوق إلى لقاء الله أمور تجعل المؤمن يعاتب نفسه ويلومها على كل خطيئة، ويتمنى أنه شيء لا يحاسب، ولا يحضر ذلك اليوم الذي تذهل فيه كل مرضعةٍ عما أرضعت، وترى الناس سكارى من شدة هوله وفزعه، وما هم بسكارى. ولكن الخوف من العذاب جعلهم في ذهول.

جاء في كتاب «قرة العيون المبصرة في تلخيص كتاب التبصرة» للشيخ أبي بكر بن الشيخ محمد الملا الأحسائي، قوله فيما يتعلق بالعتاب واللوم والتمني: لما قويت معارف العلماء اشتدت مخافتهم، فضج لسان الكرب يتمنى العدم. جاز أبو بكر رضي الله عنه على طائر، فقال: طوبى لك يا طائر تقع على الشجر وتأكل من الثمر، ولا حساب عليك ولا عذاب، ليتني كنت مثلك.

وقرأ عمر رضي الله عنه: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾. فرفع بها صوته، وقال: يا ليتها تمت. ثم أخذ بتبنة من الأرض، وقال: يا ليتني هذه التبنة، يا ليت أمي لم تلدني.

وقال أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه: يا ليتني كنت كبشاً وذبحني أهلي فأكلوا لحمي وحسوا مرقي. وقال عمران بن حصين رضي الله عنه: ليتني كنت رماداً تذروه الرياح.

وقد قالوا: إن لنار المخافة في قلوب الذين عاتبوا نفوسهم ولاموها وتمنوا أنهم من الأشياء التي لا تحاسب وهج، ولجيوش مجاهدتهم للنفوس رهج، ولألسنتهم بذكر تقصيرهم لهج.



بكى الحسن البصري رحمه الله يوماً حتى رعد منكباه، ثم قال: لو أن بالقلوب حياة، لو أن بالقلوب صلاحاً لأبكيتكم من ليلة صبيحتها يوم القيامة تمخض عن صبيحة يوم القيامة ما سمع الخلائق بيوم قط أكثر فيه عورة بادية وعيناً باكية من يوم القيامة. وقال أيضاً: تتعلق الأم بولدها، فتقول: يا بني ألم يكن ثديي لك سقاء، ألم يكن حجري لك وطاء، فاحمل عني بعض ذنوبي، فيقول: يا أماه لي في نفسي شغل.

شعر:

تجنب بجهدك ما كان عاراً
وما في معارك يصليك نارا

ولا تحقرنّ صغار الذنوب
فيوم الحساب تراها كبارا

وخف يوم يطلب كل امرئ
لما قد يرى من أخيه فرارا

فذلك يوم ترى الناس فيه
حيارى سكارى وما هم سكارى

فمالي أرى الناس في غفلة
إذا ذُكّروا أغفلوا الأذكارا

أطاعوا أوامر دنياهم
فزادتهم بالحياة اغترارا

أناس تناسوا مناياهم
فحين أتت أخذتهم أسارا

ففيهم لغيرهم عبرة
وموعظة إن أردت اعتبارا

لحاها الله من زوجة!!

والحديث عن المرأة المرتبطة بالحياة الزوجية يأتي بطبيعة الحال متشعباً وله اتجاهات متعددة، ومعانٍ متغايرة، ومفاهيم مختلفة.

وإذا ما نظرنا إلى المرأة من زاوية علاقتها بزوجها ومدى تأثيرها على حياة زوجها وجدناها إما أن تكون جنة يتفيأ ظلالها الرجل في حياته المقترنة بحياتها، وإما أن تكون ناراً يصطلى بلظاها فكره وعقله. فلا يرى السعادة تلوح أمامه ما دام لحياته ارتباط بحياتها.

وكثير من الرجال من يلزم الصبر في تعامله مع زوجته، بل منهم من يضاعف صبره ليتعامل بمفعوله مع ما يصدر إليه من إساءات من زوجته، فتجده يكظم غيظاً ملأت به زوجته نَفْسَه، وشتت به آماله.

أما المرأة العارفة بما لزوجها عليها من واجبات فهي تلك التي تجلب السعادة والبهجة والسرور لزوجها. وهي تلك التي تجعل منه إنساناً حليماً، وإنساناً عاملاً، وإنساناً ورعاً، وزوجاً مثالياً؛ لأنها لا تسمعه أشياء يكرهها ولا تريه أشياء يمقتها خشيةً أن يكون ما يكرهه وما يمقته مفتاحاً للتعاسة ومدخلاً للسأم من طلب الرزق، فلا تريه من نفسها إلّا ما يسره ويشرح صدره. وأما المرأة التي لا تأبه بزوجها، ولا تعرف كيف تجعل منه رجلاً وربَّ أسرة فهي تلك التي تقابل الإحسان منه بالإساءة إليه، وتصخب في وجهه، وتسبه وتشتمه، وتنكر فضله، وتجحد قيامته وتعصي أمره، وتجدّ في مشاجرته.

ومثل هذه اللجوج الجحود قال عنها الشاعر العماني عبد الله بن علي الخليلي:



لحاها الله عرسي كم تسيء تعاملي
وتقسو كما يملي لقسوتها الجهل

وترمي بأمري في الفضاء كأنه
قلامة ظفر أو كما رمي الثفل

وتصخب في وجهي كأني خادم
أقـــام بـــه فـــقـــر وســـاوره ذل

وتنكر من فضلي الكثير تجنباً
وتشكر من غيري إذ نالها القل

ويواصل الخليلي هذا اللوم في قصيدة متشعبة تبلغ نحواً من خمسين بيتاً نشرتها له المجلة «العربية» في عددها (١٥٣)، يوم ١٠ شوال ١٤١٥ هجرية، فيقول في تلك الزوجة هذه الأبيات:

تضايقني في كل آنٍ وتنثني
إلى الناس تشكوني كأن الهوى ذحل

فليلي بكاء والنهار تشاجر
وفجري تباريح ورأد الضحى كل

لحاها لحاها الله إن كان عن قلى
فلا نالها من كل ذي نسمة بذل

وإن كان عن طبع هنالك سيئ
فلا كان ذاك الطبع والخلق النذل

○ ○ ○ ○ ○

أبو العلاء في ميزان الشيخ خضر

قال ابن معصوم في كتابه: «سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل عصر» وهو يترجم للشيخ خضر بن عطاء الله الموصلي الشامي، الذي ألف كتاباً سماه «الإسعاف بشرح أبيات القاضي والكشاف» وفيه ترجمة لأبي العلاء المعري وأبيات له ـ أي لأبي العلاء ـ هي كما نقلها ابن معصوم من الإسعاف:

تقضي صاحب التوراة موسى
وأوقع بالخسار من افتراها

وقال رجاله: وحي أتاه
وقال الآخرون: بل افتراها

وما حجي إلى أحجار بيت
كؤوس الخمر تشرب في ذراها

إذا رجع الحكيم إلى حجاه
تهاون بالشرائع وازدراها

وهذه الأبيات وجدتها في لزوميات أبي العلاء وفي نص بعض كلماتها اختلاف مثل (قضى) هي فيما عندي ـ تقدم ـ (وقال الآخرون): هي فيما عندي ـ وقال الظالمون ـ ومثل (وما حجي) هي فيما عندي ـ وما سيرى ـ ومثل (إذا رجع الحكيم) هي فيما عندي ـ إذا رجع الحصيف ـ ومثل (تهاون بالشرائع) هي فيما عندي ـ تهاون بالمذاهب ـ والأبيات من قصيدة قوامها ٢٦ بيتاً وعنوانها: «البرية في ضلال»، ومنها هذا البيت الذي يعني به المذاهب:



فخذ منها بما أداه لُبٌّ
ولا يغمسك جهل في صراها

ويظهر لي أن الشيخ خضر قد استنكر على أبي العلاء هذا الكلام التشكيكي الذي فيه بعض التصريح الداعي إلى التهاون بركن من أركان الإسلام، وهو الحج، وحق له أن يستنكر. ومن ذا الذي يمتلك حكمةً أجل وأفضل من حكمة الهادي البشير النذير الذي كانت أفعاله وأقواله كلها عبادات منها المفروض والمستحب والسنة والواجب، والاستمساك بسنته والتصديق بما جاء به وأمر به، أمر لا يختلف عليه مسلمان، قال عليه الصلاة والسلام: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ» ـ أو ما معناه ـ والحج من أركان الإسلام والتشكيك في صحته كفر وزندقة وخروج من الإسلام.

أما ابن معصوم واسمه ـ علي صدر الدين المدني بن أحمد نظام الدين الحسيني ـ فلم يذكر في كتابه ـ سلافة العصر ـ شيئاً مما قاله الشيخ خضر في رده على أبيات أبي العلاء المعري، وإنما اكتفى بذكر أبيات هي عبارة عن إجابة من الشيخ خضر لأبي العلاء دون ذكر أي تعليق عليهما، والأبيات هي:

وحال اللّه من أعمى لعيني
بصيرته تناهت في عماها

يقول: إذا الحكيم رعى حجاه
تلاعب بالشرائع وازدراها

فما هذا الخبيث إذاً حكيم
ولكن ليس يدري ما طحاها

○○○○○

بدوي الجبل: هو محمد الأحمد

وبدوي الجبل هو الشاعر محمد سليمان الأحمد الذي قضى حياته في كفاح مستمر ضد المستعمرين.

والشاعر محمد الأحمد لا يُعرف إلا بـ(بدوي الجبل)، أما مناسبة هذه التسمية فهي أن وطنية الإيرلندي المناضل (ماك سويني) محافظ مدينة كوراك الإيرلندية الذي جعل احتجاجه على وجود الإنكليز في بلاده صياماً حتى الموت ثم قضى صائماً، قد هزته وألهبت فيه المشاعر الوطنية فنظم قصيدة حيّا فيها نضال (ماك سويني) وبعث بها إلى مجلة (ألف باء) وكان صاحبها الأستاذ يوسف العيسى، وفي اليوم التالي رأى قصيدته مذيلة بتوقيع (بدوي الجبل) فراح من فوره إلى الأستاذ يوسف العيسى يسأله عن السبب فأجابه العيسى: إن الناس يقرؤون للشعراء المعروفين ولست منهم، وهذا التوقيع المستعار يحملهم على أن يقرؤوا الشعر للشعر وأن يُساءلوا: من ذا يكون هذا الشاعر المجيد؟. وأنت في ديباجتك بداوة، وأنت تلبس العباءة وتعتمر العقال المقصب، وأنت ابن الجبل.

وتساءل الناس فعلاً في بيروت ودمشق. من هو بدوي الجبل؟. أهو خير الدين الزركلي؟. أم هو خليل مردم بك؟. وهما شاعرا الشام آنئذ إلى أن دعا صاحب الجريدة نخبة من الأدباء وأعضاء المجمع العلمي إلى احتفال قدّم فيه الشاعر، بقوله: «هو ذا بدوي الجبل: إنه محمد سليمان الأحمد!!» وراح البدوي يشدو وهم في نشوة مما يسمعون. وغلب هذا اللقب على الاسم حتى حل محله في البيت وخارجه، وأصبح لا يعرف إلا بـ(بدوي الجبل).

أما قصيدته التي قالها في صدق وطنية الإيرلندي (ماك سويني) فهي تعد من بواكير أعماله الشعرية، ولم يطل فيها النفس، فأبياتها لم تتجاوز تسعة عشر بيتاً، منها قوله:

أحقاً ما روت عنك الرواة
تُرى أم في حديثهم هَنَاتُ

وهل نبأ رواه البرق صدق
أم الأسلاك فيها كاذبات

غلبت الموت فيه وذاك أمر
ستكبره القرون الآتيات

وهوّنت المنون لشاربيها
فلا ألم هناك، ولا شكاة

ومنها قوله:

عصيت العاطفات فمتّ جوعاً
ومن بعض القيود العاطفات

ولم تبخل بنفسك وهي كنز
متى بخلت بأنفسها الكماة

لقد حررتها فسمت صعوداً
كما سمت النجوم النيرات

علوت بها عن الأعراض حتى
تساوى الموت عندك والحياة

○○○○○

الهدية بقيمتها المعنوية، لا بقيمتها المادية

الهدية لا تقتصر في نوعيتها على شيء معين فهي في معناها الحسِّي وقيمتها الأدبية أكبر من نوعها وشكلها. ولهذا فإن اختيارها يخضع لعدة أمور أهمها الحالة المادية للمهدِي - بكسر الدال - والشيء الثاني أن يكون لها في نفس المهداة إليه مكان وقبول.

وسواء كان مما يُقْتَنَى أو مما يتزيأ به أو مما يستخدم أو مما يؤكل ويستهلك. المهم فيها أن يكون لها في نفس المهداة إليه وقع وأثر طيب، فهي قد تكون سلاحاً كسيف أو بندقية أو ما إلى ذلك من أنواع الأسلحة كالخنجر وغيرها. وقد تكون مما يؤكل أو يشم أو يتعطر به كالفاكهة والعطورات أو غير ذلك. وقد تكون من الحيوانات كالحصان أو الناقة أو البقرة أو الحمار أو كلب الصيد أو كلب الحراسة أو ما إلى ذلك مما له صلة بعمل المهدى إليه.

قال الزمخشري في كتابه الأدبي «ربيع الأبرار»: قال محمد بن الجهم: دعاني المأمون يوماً، فقال: نبغ لك أخ يقول الشعر فأنشدني له، قال: فلم أذكر إلا قوله في الكلب: «أوصيك خيراً به»، فقال: أحسن الموصي بالكلب، وأمر لي بمال.

وقال الخالديان في كتابهما «التحف والهدايا»: وأهدى علي بن الجهم إلى بعض إخوانه كلباً وكتب معه:

أوصيك خيراً به فإن له
عندي يداً لا أزال أحمدها



يدل ضيفي عليّ في غسق الليل

إذا النار نام موقدها

وقالا: وأهدى أبو العتاهية إلى الفضل بن الربيع نعلاً، وكتب معها:

نعل بعثت بها لتلبسها

تمشي بها قدم إلى المجد

لو كان يصلح أن أشركها

خدي جعلت شراكها خدي

وقالا: وقد أهدى يعقوب التمار إلى محمد بن عبد الله بن طاهر بازياً في يوم عيد، وقال:

قل للأمير الذي يداه

قد صيغتا من ردي وجود

ما كان من حاجة الموالي

فهو حرام على العبيد

ومع رسولي إليك بازٍ

أبرش ذو مخلب حديد

جعلته تحفةً لعيدٍ

لاقاك بالطالع السعيد

قال سامي الدهان: ويعقوب التمّار هو ابن يزيد التمار أبو يوسف من شعراء العسكر كان متصلاً بالمنتصر ومات في آخر أيام المعتمد. وهذا هو ما ذكره المرزباني في معجمه.

○○○○○

من أقوال الأدباء في الغناء

قال أبو حيان التوحيدي في كتابه «الإمتاع والمؤانسة»: الغناء معروف الشرف عجيب الأثر عزيز القدر، ظاهر النفع في معاينة الروح، ومناغاة العقل وتنبيه النفس، واجتلاب الطرب، وتفريج الكرب، وإثارة الهزة، وإعادة العزة، وادكار العهد، وإظهار النجدة، واكتساب السلوى، وما لا يحصى عدده. ووصف أبو حيان التوحيدي حالة رجل اسمه أبو الحسن الجراحي كان قد أطربه ترجيع لحن تغنت به جارية اسمها شعلة في مجلس طرب وغناء، فقال: «فهناك ترى شيبة قد ابتلَّت بالدموع، وفؤاداً قد نزا إلى اللهاة مع أسف قد ثقب القلب وأوهن الروح وشق الصخر، وأذاب الحديدة».

ويأخذ أبو حيان في وصف حال جلساء ذلك الرجل وهم ينظرون إليه، وقد انقطع إلى سماع (شعلة) وهي تغني وترجع في لحنها:

لو أن ما تبتليني الحادثات به

يلقى على الماء لم يشرب من الكدر

فيقول: وهناك ترى والله أحداق الحاضرين باهتة، ودموعهم منحدرة وشهيقهم قد علا رحمة له، ورقة عليه، ومساعدة لحاله. وهذه الصورة الوصفية التي نقلها أبو حيان التوحيدي تجعلني أتصور المشاهد لها يردد قول صفي الدين الحلي:

رقصوا فشاهدت الجبال تمور

بروادف ماجت بهن خصور



وثنو قدوداً رخصة فكأنما
هزوا غصوناً فوقهن بدور

من كل مجدول القوام كأنما
في الوجه منه روضة وغدير

طوراً يغير على القلوب قوامه
مَرَحاً وطوراً للغصون يغير

وقوله:

ويطربني في مجلس الأنس بيننا
أنابيب في أجوافها الريح تصفر

ودهم بأيدي الغانيات تقعقعت
مفاصلها من هوله تتنظر

وصفر جفون ما بكت بمدامع
ولكنها روح تذوب وتقطر

○○○○○

أول من ضرب على العود بالغناء العربي

قال أبو فرج الأصفهاني: «أخبرني من رأى عود ابن سريح، فقال: إنه كان على صنعة عيدان الفرس وكان أول من ضرب به على الغناء العربي بمكة وذلك أنه رآه مع العجم الذين قدم بهم ابن الزبير لبناء الكعبة. فأعجب أهل مكة غناؤهم، فقال ابن سريح: أنا أضرب به على غنائي، فضرب به فكان أحذق الناس.

قال إبراهيم الموصلي: «غناء كل مغنٍ مخلوق من قلب رجل واحد، وغناء ابن سريح مخلوق من قلوب الناس. وكان يقول: الغنا على ثلاثة أضرب: فضرب مُلْهٍ مطرب يحرّك ويستخفُّ، وضرب ثانٍ له شجى ورقة، وضرب ثالث حكمة وإتقان صنعة. قال: وكل هذا مجموع في غناء ابن سُريح. وعاش ابن سريح خمساً وثمانين سنة، وصلع فكان يلبس جمة مركبة على نحو ما نرى في هذه الأيام من لبس الشعر المصطنع.

وقد ذكر أبو فرج الأصفهاني نسب ابن سريح، فقال: هو عبد الله بن سريح ويكنى أبا يحيى مولى بني نوفل بن عبد مناف. وقيل: إنه مولى لبني الحرث بن عبد المطلب. وقيل: إنه مولى لبني ليث، وقيل: إنه مولى لبني عائذ بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ـ وقد تغنى بقصيدة عمر بن أبي ربيعة ـ:

نظرت إليها بالمحصب من منى
ولي نظر لولا التحرج عارم

فقلت أشمس أم مصابيح بيعه
بدت لك خلف السجف أم أنت حالم



بعيدة مهوى القرط أما لنوفل
أبوها وأما عبد شمس وهاشم

ومد عليها السجف يوم لقيتها
على عجل أتباعها والخوادم

فلم أستطعها غير أن قد بدا لنا
على الرغم منها كفها والمعاصم

معاصم لم تضرب على البهم بالضحى
عصاها ووجه لم تلحه السمائم

نضير ترى فيه أساريع مائه
صبيح تفاديه الأكف النواعم

إذا ما دعت أترابها فاكتنفنها
تمايلن أو مالت بهن المآكم

○○○○○

أدب الغناء في مجالس العرب

ذكر أبو فرج الأصفهاني في كتابه ـ الأغاني ـ ما ملخصه: إن التابعي الجليل أبي عطا بن رباح وهو من أجلَّاء فقهاء مكة وزهادها وإليه وإلى مجاهد بن جبر انتهت فتوى مكة في زمانهما. وكان الأمويون يأمرون صائح يصيح: لا يفتي الناس إلا عطاء بن رباح.

وقيل: إن الإمام أبا حنيفة النعمان، قال: «أخطأت في خمسة أبواب من مناسك مكة فعلمنيها حجام أخذها عن عطاء».

وقيل في وصفه: إنه كان أسود أعور أشل أعرج مقلل الشعر ثم عمي. وكثيراً ما تكون هذه العاهات سبباً للنبوغ وتفجر العبقرية لأنها تكون سبباً في البحث عن آفاق أخرى تغطي نقص الخَلق بكمال الخُلق ووفرة العلم. وقد كان عطاء غنياً. وكان قد ختن ابنه فأمر بإحضار الطعام، وحضر مجلسه في هذه المناسبة خاصته، فقالوا: يا أبا محمد لو أذنت لنا فأرسلنا إلى الغريض وابن سريح وهما مغنيان مشهوران، فالغريض من أشهر المغنين في صدر الإسلام ومن أحذقهم في صناعة الغناء، وكان يضرب بالعود، وينقر بالدف، ويوقع بالقضيب. ولقب بالغريض لجماله ونضارة وجهه. أما ابن سريح فكان من أشهر أصحاب صناعة الغناء في عصره وكان يغني مرتجلاً فيأتي، باللحن المبتكر. وأخذ المغنيان ابن سريح والغريض يغنيان في بيت في دار عطاء وهو ثابت في مجلسه ولم يدخل مع خاصة البيت الذي اتخذوه مكاناً للغناء في تلك المناسبة إلّا أنه كان يسمع الغناء. ومما تغنى به ابن سريح قول عمر بن أبي ربيعة:

خليلي عوجا نسأل اليوم منزلاً
أبى بالبِراق العُفْر أن يتحولا

بفرع النبيت فالشّرى خفّ أهله
وبُدّل أرواحاً جنوباً وشمألا

ضرائر أو طنّ العِرّاص كأنما
أجلْن على ما غادر الحيّ مُنْخُلا

دِيارَ التي قامت إلى السجف غُدْوة
لتنكأ قلباً كان قِدماً مُقتلا

أرادت فلم تسطع كلاماً فأومأت
إليّ ولم تأمن رسولاً فترسلا

بأنْ بِتْ عسى أن يُسْترِ الليل مجلساً
لنا أو تنام العين عنا فتغفلا

فوطنتُ نفسي للمبيت فَوَلِّجُوا
لي الرَّبضَ إلا على مطياً وأرحلا

وقالت لتُرّبيها: اعلما أن زائراً
على رِقبةٍ آتيكما متغفلا

ooooo

يقظة.. وأوبة

كثير من الشعراء بل غير الشعراء من يمر بمرحلة من العمر يمارس خلالها أشياء من اللهو اللفظي أو الحركي. ثم ما يلبث أن يثوب ويرجع عن لهوه وسوء فعله رجعة تلبسه الوقار والهيبة، وتضفي عليه من جلال الإيمان رداء السعادة التي تغمر بنورها قلبه وتعم أرجاء جوانحه وجوارحه. والشعراء هم أكثر الناس، بل هم أقدرهم على التعبير عن ذلك. فهم كثيراً ما نقرأ لهم جرأتهم على الاعتراف بما سلكوه وخاضوه من لهو منافي للآداب العامة، وقواعد الفضيلة في مرحلة من مراحل حياتهم. وكأنما هم بذلك الاعتراف يحذرون غيرهم من الانزلاق في اللهو كما انزلقوا فيه وقضوا فيه عمراً عضوا عليه أصابع الندم.

ثم هم بعد ذلك الاعتراف يظهرون افتخارهم باطراح كل ما هو منافي للأخلاق والآداب، ويعلنون عن تصميمهم على التزام قواعد الآداب والرجوع إلى الله والتوبة إليه في نظم بديع يطرب السامع، بل يفرحه بأوبة صاحبه، وبادّكاره. ادكاراً يأخذ بيده إلى الاستقامة التامة ويمضي به في طريق السعادة في الدنيا والآخرة.

ذكر صاحب كتاب «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» أحمد بن محمد المقري التلمساني: أن الفقيه القاضي الفاضل أبو الفضل بن العلم حين أقلع وأناب وودع ذلك الجناب، وتزهد وتنسك، وتمسك من طاعة الله بما تمسك وتذكر يوماً يتجرد من أمله، وينفرد فيه بعمله، قال:

أما أنا فقد أرعويت عن الصبا

وعضضتُ من ندم عليه بناني

فأطعتُ نصاحي ورُبّ نصيحة
جاؤوا بها فلججت في العصيان

أيام أسحب من ذيول شبيبتي
مَرحاً وأعثر في فضول عناني

وأجل كأسي أن ترى موضوعة
فعلى يدي أو في يديْ ندماني

أيام أحيا بالغواني والغنا
وأموت بين الراح والريحان

في فتية فرضوا اتصال هواهم
فمنا هم دنٌّ من الأدنان

هزّتْ عُلاهم أريحيّاتُ الصبا
فهي النسيم وهم غصون البان

من كل مخلوع الأعنة لم يسل
في غيه بمصارف الأزمان

○○○○○

مسكين الدارمي اسمه ربيعة بن عامر

قال الأصبهاني: مسكين لقب غلب عليه، واسمه ربيعة بن عامر بن أنيف بن شريح بن عمرو بن زيد بن عبد الله بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم. قيل: إنه لقب بمسكين لقوله:

وسميت مسكيناً وكانت لجاجة

وإني لمسكين إلى اللّه راغب

ويقال: إن «مسكيناً» كان شريفاً من سادات قومه. وقيل: إن الفرزدق قال: نجوت من ثلاثة أشياء لا أخاف بعدها شيئاً. نجوت من زياد حين طلبني، ونجوت من ابني رميلة وقد نذرا دمي وما فاتهما أحد طلباه قط، ونجوت من مهاجاة مسكين الدارمي لأنه لو هجاني اضطرني أن أهدم شطر حسبي وفخري لأنه بحبوبة نسبي وأشراف عشيرتي فكان جرير حينئذ ينتصف مني بيدي ولساني.

وروي عن الأصمعي أنه قال: خطب مسكين الدارمي فتاة من قومه فكرهته لسواد لونه وقلة ماله، وتزوجت بعده رجلاً من قومه، ذا يسار له مثل نسب مسكين. فمر بهما مسكين ذات يوم وتلك المرأة جالسة مع زوجها، فقال:

أنا مسكين لمن يعرفني

لوني السمرة ألوان العرب

من رأى ظبياً عليه لؤلؤ

واضح الخدين مقروناً بضب



أكسبته الورق البيض أباً
ولقد كان وما يدعي لأب

رب مهزول سمين بيته
وسمين البيت مهزول النسب

أصبحت ترزق من شحم الذرى
وتخال اللؤم دراً ينتهب

لا تلمها إنها من نسوة
صخبات ملحها فوق الركب

كشموس الخيل يبدو شغبها
كلما قيل لها: هال وهب

○○○○○

الشعر الحسن يشفي المرضى

روى أبو علي القالي في كتاب «الأمالي» عن ابن دريد أنه قال: أخبرنا عبد الرحمٰن عن عمه قال: نزلتُ في وادٍ من أودية بني العنبر وإذا هو مَكانٌ بأهله وإذا فتية يريدون البصرة فأحببت صحبتهم، فأقمت ليلتي تلك عليهم وإني لَوَصِبٌ محموم أخاف لا أستمسك على راحلتي، فلما قاموا ليرحلوا أيقظوني. فلما رأوا حالي رحلوا بي وحملوني، وركب أحدهم ورائي يمسكني فلما أمعنوا في السير تنادوا: ألا فتى يحدو بنا أو ينشدنا فإذا منشد في جوف الليل بصوتٍ حَزين، يقول:

لعمرك يوم بانوا فلم أمت
خفاتاً على آثارهم لصبور

غداة المنَقّى إذْ رَمَيْتُ بنظرة
ونحن على متن الطريق نسير(١)

ففاضت دموع العين حتى كأنها
لناظرها غُصْنٌ يُراح مطير

فقلت لقلبي حين خَفّ به الهوى
وكاد من الوجد المُبِرِّ يطير(٢)

فهذا ولمَّا تمض للبين ليلة
فكيف إذا مرَّتْ عليك شهور

---

(١) المنقى: موضع بين أُحد والمدينة.

(٢) المبرّ: من أبرز إذا غلب.

وأصبح أعلام الأحبة دونها
من الأرض غولٌ نازح ومسير

وأصبحت نجدي الهوى متهم النوى
أزيد اشتياقاً إذ يحن بعير

عسى اللّه بعد النأي أن يَصْقَبَ النوى
ويُجمّع شملٌ بعدها وسرور

قال: فسكنت عني الحمى حتى ما أحس بها، وقلت لرديفي: انزل إلى راحلتك فإني مفيق متماسك، جزاك الله وحُسن الصحبة خيراً.

○○○○○

مجلس الشعراء يهابه الشعراء

مجلس الأدباء والشعراء يمتاز على ما سواه من المجالس ذات الهيبة والوقار بأمور كثيرة، أهمها أن جميع أعضائه، على درجة من بلوغ التصرف في كثير من فروع المعرفة والثقافة. ولهذا فإن جميع الجلساء الذين يضمهم ذلك المجلس يكونون على غاية من الحذر من ألسنتهم فلا يتفوهون إلا بكل عبارة تناسب مقام الحضور وتتفق مع ما يتبادلونه من أحاديث، وما يتجاذبونه من آراء.

وتقل الجرأة في مجلس الشعراء من قِبَل الشعراء أنفسهم خاصة فيما يعرضونه من أشعار لهم. لأنهم يعرفون أن الشعر أكثر تعرضاً للنقد من غيره، وأنه ينظر إليه في حالة دراسته من عدة نواحي يستلزم وجودها في القصيدة. ولهذا فإنه إذا ما طُلب من أحدهم وصف مجلسهم امتنع عن ذلك مخافة أن لا يصفه بحالته التي هم عليها، أو أن يأتي بأسلوب يكون للناقد منه مدخلاً عليه.

روى ابن بسام أن جماعة من أصحاب ابن شهيد قالوا له: يا أبا عامر إنك لآتٍ بالعجائب، وجاذب بذوائب الغرائب، ولكنك شديد الإعجاب بما يأتي منك هازٌّ عطفك عند النادر يتاح لك. ونحن نريد منك أن تصف لنا مجلسنا هذا، وكان الذي طلبوه منه زبدة التعنيت لأن المعنى إذا كان جلفاً ثقيلاً على النفس قبيح الصورة عند الحس كلّت الفكرة عنه، وإن كانت ماضية وأساءت القريحة في وصفه وإن كانت محسنة. وكان في المجلس باب مخلوع معترض على الأرض، ولبد أحمر مبسوط قد صُفّت نعالهم عند حاشيته، فقال مسرعاً:

وفتية كالنجوم حسناً

وكلهم شاعرٌ نبيل

مُتَّقد الجانبين ماضٍ

كأنه الصارم الصقيل

في مجلس زانه التّصابي

وطاردت وصفه العقول

كأنما بابه أسيرٌ

تُعْرِضُ من دونه النُصُول

يراد منه المقال قسراً

وهو على ذاك لا يقول

ينظر من لبدة لدينا

بحرُ دمٍ تحتنا يسيل

كأن أخفافنا عليه

مراكب مالها دليل

ضلت فلم تدر أين تجري

فهي على شطه ثَقيل

فعجب القوم من أمره.

○○○○○

الصنوبري يهدي شمعاً، ويهدى إليه نعلاً

ذكرت في موضوعات تقدمت، عن الهدايا وأنواعها وقيمتها، وقلت: إن الهدية ليست موقوفة على نوع معين مما يتداوله الناس من مطعوم أو مركوب أو ملبوس أو مقتنى أو ما إلى ذلك من الأشياء التي تستطيبها النفس وتلتذ برؤيتها العين. بل ربما جاءت في قالب غير ملموس كأن تكون قصيدة أو قطعة نثر أدبية. لكن عرف الهدية لدى الناس والمفهوم السائد لتعريفها هو أنها عطاء وقبول وتسليم واستلام لمادّةٍ بعينها.

والهدية تهدى عرفاناً بالجميل، وقبولها رمز عن الرضا. ولا أريد أن أزيد على ما تقدم من نماذج للهدايا وأساليب تقديمها، وإنما الذي أردت الوقوف عليه في هذا الموضوع هو أسلوب الشاعر أبي بكر الصنوبري الذي قال شعراً فيما أهدى وفيما أهدي إليه. ففيما أهدى من شمع لبعض إخوانه، قال:

وتأملتُ الهديّا
ت صغاراً وكبارا

لم أجد شيئاً كشيءٍ
يجعل الليل نهارا

فتأمل من قريب
شجراً يحمل نارا

واكسها منك قبولاً
تكسُ مُهديها فخارا

أما فيما أهدي إليه، فقد قال طاهر بن محمد الهاشمي: كان أبو بكر الصنوبري صديقاً لوالدي كثير الإلمام به والسلام عليه، وكان والدي محباً له باراً به. وكنت وأنا غلام أميل إليه وأكتب شعره، فأهديت إليه يوماً نعلاً صفراء فكتب إليَّ:

بخير الهدايا جدت يا خير منتم
إلى خير بادِ في الأنام وحاضر

بمحذوّة حذو اللسان شبيهة
أوائلها في حسنها بالأواخر

مخالفة الوجهين قام خلافها
مقام اتفاق عند أهل البصائر

فأما الذي من فوقها وجه عاشق
وأما الذي من تحتها وجه شاعر

ooooo

ولابن سريج موقف آخر مع أبي رباح

قال أبو فرج الأصفهاني: لقي عطاء ابن أبي رباح مفتي أهل مكة المغني ابن سريج وعليه ثيابٌ مصبّغة، وفي يده جرادة مشدودة الرجل بخيط يطيّرها ويجذبها به كلما تخلَّفت. فقال له عطاء: يا فتّان! ألا تكف عما أنت عليه؟، كفى الله مؤونتك. فرد ابن سريج قائلاً: وما على الناس من تلويني ثيابي ولعبي بجرادتي؟. قال عطاء: تفتنهم أغانيك الخبيثة. قال ابن سريج: سألتك بحق من تبعته من أصحاب رسول الله ﷺ وبحق رسول الله ﷺ عليك إلا سمعت مني بيتاً من الشعر. فإن سمعت منكراً أمرتني بالإمساك عما أُنْهَ عنه، لأفعلن ذلك، فأطمع ذلك عطاء في ابن سريج، وقال: قل. فاندفع يغني بشعر جرير:

إن الذين غدوا بلبك غادروا
وشلا بعينك ما يزال معينا

غيضن من عبراتهن وقلن لي:
ماذا لقيت من الهوى ولقينا

قال الأصفهاني: فطرب عطاء وأخذ يردد ما سمعه طيلة يومه، ولم يفت ذلك اليوم لأحد. تلك صورة عرضها أبو الفرج الأصفهاني بأسلوب فيه من الرقة والجمال وحسن العرض ما فيه. أما واقعيتها فالله أعلم. ومن تلك القصيدة التي تغنى ابن سريج بها، وهي لجرير قوله:

أمسيتُ إذ رحل الشباب حزيناً
ليت الليالي قبل ذاك فنينا



ما للمنازل لا يجبن حزيناً
أصَمِمْنَ أم قدُم المدى فبلينا

وفيها يهجو الأخطل ويفخر بنسبه التميمي، إذ يقول:

وَلَدَ الأخطل نسوةٌ من تغلب
هن الخبائث بالخبيث غذينا

إن الذي حرم المكارم تغلبا
جعل النبوة والخلافة فينا

مضر أبي وأبو الملوك فهل لكم
يا خُزْرَ تغلب من أب كأبينا

هذا ابن عمي في دمشق خليفة
لو شئت ساقكم إليَّ قطينا

○○○○○

الفقير وجاره الغني

إن الذي يرصد أوضاع الناس الذين يضعف الإسلام عندهم بنمو الكبرياء ومظاهر الغطرسة بما أعطاهم الله من بسطة في المال، يجد فئات كثيرة من الناس تنغمس في نعيم الدنيا ولا تنظر بطرف عينها إلى من غرس الفقر فيه نابه حتى ضاقت عليه الدنيا، وعجز عن الحصول على قوت يومه، وخليت داره من طعام صغاره، فعجفت سنون دهره، وتضور من الجوع من كان هو ولي أمره.

والتناقض الذي يلفت النظر في هذه الحياة ويجلب الهم والأسى والحسرات، هو أن يكون الفقير الذي يبحث عن كسرة خبز يابسة فلا يجدها جاراً لذلك الباذخ الذي تحتار الكلاب المقيمة حول داره في أي اللحوم التي ترمى تختار وتأكل.

ولقد ترجم الشاعر محمد بن عبد المطلب بن واصل بن بكر جزءاً من هذه الصورة الموغلة في التناقض القائم على كبرياء وتعالي بعض أولئك الذين وسع الله عليهم في أرزاقهم فبخلوا بها على المحتاجين، وبذخوا بها في إطعام الأغنياء والموسرين.

أقول: لقد ترجم جزءاً من تلك الصورة - في قصيدة طويلة بلغت نحواً من سبعة وأربعين بيتاً - أكد فيها على وجود هذه الظاهرة المنافية لدين الإسلام، والقائمة على الكفر بنعم الله، يقول من تلك القصيدة:

وارحمتا للكريم يشكو

نوائب العيش أم يداري



وإن دعا الصبر لم يجبه
وحوله جائع وعاري

فمن ذكور ومن إناث
ومن صغار ومن كبار

إذا استطاع الكبير منهم
صبراً فلا صبر للصغار

ثم ينتقل بعد أن يصف شموخ قصر الغني المجاور لذلك الفقير الذي وصف حالته، ليقول على لسان الفقير المسكين الذي لا يناله من أصناف الأطعمة التي تطهى وتؤكل بإسراف في ذلك القصر الشامخ فوق بويته إلّا الروائح التي لا تغني من جوع وإنما تزيد الجوع جوعاً ولهفة، يقول:

يا جارنا لو رعيت فينا
ما أوجبت حرمة الجوار

يا جارنا لو أقلْت إحدى
أذنيك من ظاهر الستار

سمعت خلف الستار صوتاً
يُنبيك عن صبية صغار

تشكو إليك النهار لمّا
أمَضّها الجوعُ بالنهار

○○○○○

ذو الرمة هو: غيلان بن عقبة بن بهيس العدوي

ونسب ذي الرمة الذي جاء في ديوانه هو: غيلان بن عقبة بن بهيس بن مسعود بن حارثة بن عمر بن ربيعة بن ساعدة بن كعب بن عوف بن ثعلبة بن ربيعة بن ملكان بن عدي بن عبد مناة بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن أد بن معد بن عدنان وكان يكنى بأبي الحارث.

قال أبو عمرو الشيباني: إنما سمي ذا الرمة؛ لأنه أصابه شرى ـ أي بثور أحدثت حكة شديدة في جلده ـ فقيل له: لو علقت على نفسك قطع الحبال والعظام ذهب عنك هذا الداء. ففعل فَسُمّيَ به. لأن الرمة ما بقي في الوتد من حبل أو خيط.

وذو الرمة يعد من فحول الشعراء؛ لأنه راوية وشَاعر. قال الشافعي: ليس يقدّم أهل البادية على ذي الرمة أحداً.

وقال حماد الراوية: قدم علينا ذو الرمة الكوفة فلم أر أفصح ولا أعلم بغريب منه. أما راوية شعر ذي الرمة فهو صالح بن سليمان قيل: إنه أنشد يوماً قصيدة له وأعرابي يسمع، فقال الأعرابي: إنك لفقيه تحسن ما تتلو. وكان يحسبه قرآناً. وفي كتاب «الأغاني» أن الطرمّاح قال لذي الرمة: إن عنان الشعر لفي كفك. وقال حماد الراوية: قال الكميت حين سمع قول ذي الرمة:

أعاذل قد أكثرتِ من قول قائل
وعيب على ذي الود لوم العواذل

هذا والله ملهم. وما علم بدوي بدقائق الفطنة وذخائر كنز العقل



المعد لذوي الأسباب؟. أحسن ثم أحسن. ومن القصيدة التي ورد فيها هذا البيت الذي أعجب الكميت، قوله:

لعل انحدار الدمع يُعقب راحةً
من الوجد أو يشفي نجيَّ البلابل

وإن لم تكن إلا رسوماً محيلةً
ورُمْكاً على ورقٍ مطايا مراجل

ومنها قوله:

وما يوم خرقاء الذي فيه نلتقي
بنحسٍ على عَيْني ولا متطاول

ومنها قوله:

أقول بذي الأرطى عشيّة أرشقت
إلى الركب أعناق الظباء الخواذل

لإدمانةٍ من وحش بين سُوَيْقَةٍ
وبين الجبال العُفْر ذات السلاسل

أرى فيك من خرقاء يا ظبية اللوى
مشابهَ جُنِّبتِ اعتلاق الحبائل

فعيناك عيناها ولونك لونها
وجيدُك إلا أنها غير عاطل

والقصيدة طويلة تبلغ نحواً من واحد وأربعين بيتاً.

○ ○ ○ ○ ○

حث على العناية بالمرأة

وقد تواصل الحثُّ على العناية بالمرأة، والاعتناء بها منذ فجر الإسلام الأول. كما توالت التأكيدات على أن أي إهمال لها سينجم عنه خطر يحيط بالمجتمع المهمل أمرها.

وأصدق التأكيدات وأبلغ التحذيرات هو ما جاء في حديث المصطفى ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً فإنهن خلقن من ضلع، وإن أعْوَجَ شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعْوَجَ، فاستوصوا بالنساء خيراً». رواه البخاري في صحيحه.

والمرأة إذا لم تكن صالحة كانت المنطلق إلى التخلف، وكانت نقطة البداية للدخول بمجتمعها في السلبيات وممارسة الشذوذ والفساد، والتحول من الصلاح إلى كل ما هو ضد للإيجابيات فيحصل التفكك والانهيار الخلقي وفوضى الحياة الاجتماعية.

والمرأة بطبيعتها وتكوينها تعد الركيزة الأولى في بناء صرح المجتمع ولهذا فإن سعادة المجتمع مقرونة بمدى تمسكها بالفضيلة والتقوى، وشقاءه كثيراً ما يكون مردّه إلى المرأة التي تيسّر له سبيل الانحراف وتمهد له طريق الانحلال والتخلي عن الفضائل والأخلاق الحميدة. وإذا كانت المرأة أقرب بعقليتها إلى حب التقليد فإن أصحاب الأقلام والشعراء في العالم الإسلامي ينبهون بين حين وآخر إلى هذه النقطة التي يخشون أن يؤتوا منها.

وفي هذا الموضوع أستعرض واحدة من تلك التنبيهات التي يطلقها



الشعراء بصوت مدوي، وعبارة صادقة، ونغمة مؤثرة، تقول: إن الخطر يأتينا من اختلاط النساء بالرجال.

ومن تنبيهات الشعراء وتحذيراتهم من ذلك الخطر - خطر الاختلاط - ما جاء في إحدى مقاطع قصيدةٍ طويلة للشاعر صالح جودت، وفيه يقول:

يا شباب الجيل لا تندفعوا
خلف تيار الحضارات الجدد

ألزموا المرأة خدراً طاهراً
قائم الأركان مرفوع العمد

لا تجروها إلى مجتمع
لم يطأه مَلَك إلا فسد

وادرؤوا الأعين عنها واحذروا
عبث اللبوة إن نام الأسد

واستبدوا في حمى الخبر بها
(إنما العاجز من لا يستبد)

واتقوا التاريخ في أبنائها
إنها تكتبه فيما تلد

فهي أرض تنبت النسل فمن
زرع الخير أو الشر حصد

وهي في الحرية العمياء. لا
تقْدر الزوج ولا ترعى الولد

○○○○○

الضحك التعجبي!!

والضحك الذي يبدد الهموم ويطرد الغموم ويزيل عن النفس ما تحدثه الوساوس من كلوم، هو الذي يجب على المرء أن يبحث عنه إذا كان مقيداً بمنهج أدبي لا يخرج عن الروح الإسلامية وإلّا فتركه أولى.

وإذا ما رجعنا إلى فعالية الضحك وتأثيره على النفس وجدنا العلماء المتخصصين في علم النفس يحثون الناس على الضحك كوسيلة مضادة للاكتئاب النفسي، ويدعون إلى المرح، وكل ما ينسي ما توسوس به النفس ويولد فيها من الهموم ما يعلّها ويصرفها عن منهجها الطبيعي. وللضحك مفاهيم ومعانٍ تفسرها نغماته وتظهر على ملامح الضاحك. فهناك مثلاً الضحك الذي يكون باعثه السرور المفاجئ، وهناك الضحك المعبر عن الرضا، وهناك الضحك الذي يرمز إلى السخرية والاستهزاء، وهناك الضحك التعجبي، وهناك ما يسمونه الضحكة الصفراء، وهي الضحكة التي يطلقها الحاقد ليخفف بها ما يجيش في صدره من حقد وحسد.

ونجد للشعراء إشارات كثيرة لأنواع الضحك بل وقفات تكاد تكون منهجية. أما الشاعر صالح جودت فقد أمر بالضحك التعجبي المطعم بنوع من السخرية الواقعية في قصيدة طويلة ضمنها ديوانه «أغنيات على النيل»، أقتطف منها الأبيات المشتملة على الأمر بالضحك التعجبي الساخر، يقول:

اضحك من الجامع أمواله

يعدُّ فيها ثم يخفيها

اضحك من الواله في دمية
يسهر بالليل يناجيها

اضحك من العالم في برجه
يشبع أهل الأرض تشويها

اضحك من التائه في كبره
وما أضل الكبر والتيها

اضحك من الحسناء مجلوة
تشتاقها الناس وتطريها

فإن دنت للناس يا ويلها
تعبث فيها ثم ترميها

اضحك من الشاعر في مهمه
يبني بيوتاً ثم يلقيها

ضحّى لها العمر فلم تغنه
وإن يك الدّر قوافيها

ο ο ο ο ο

الاتئاد في الصلاة مطلب المؤمن المأموم

يقول الشاعر بهاء الدين الأميري مخاطباً إمام المصلين:

اتئد يا إمام.. لا ترفع الرأ
س سراعاً من السجود لربي

إن لم تنسّم الروح عبر الأفـ
ـق عُرْفاً عن أشرف الخلق يُنْبي

وتطلعت خاشعاً مستهاماً
بجنان موله مشرئب

فتراءت لعين قلبي أنوا
ر نبي الهدى الرسول المربي

هام قلبي بين السموات والأفلا
ك يسعى هاتفاً من كل درب

ثم لما سجدت في الروضة الغرا
ء أرمي عن كاهلي عبء ذنبي

خلتُ قلبي ألقى النياط جذوراً
في جنان الهوى لغرسة حبي

فاتئد يا إمام.. لا ترفع الرأ
س سراعاً، تكاد تجتث قلبي

وهذه الصورة التي أبرزها الشاعر بهاء الدين في هذه المقطوعة

الشعرية الجميلة المؤثرة أستطيع أن أتقدم بها تنبيهاً لأولئك الأئمة الذين يسابقون حركات ثواني الساعة في ركوعهم وسجودهم ووقوفهم وجلوسهم في الصلاة فلا يمكنون مأموميهم من خشوع يستلهمون فيه الدعاء إلى الله والتضرع ويلقون فيه قلوبهم في مواضع سجودهم لتمتلئ من خشية الله، ولتطمع في الاستزادة من إلصاق الجباه بالأرض لتستعبر استعباراً ينثر الدمع من الأعين ويزخر بالتوسل إلى الله. فلا تجعلوا يا من تسابقون حركات الثواني في جميع أفعال الصلاة فرضية متابعتكم تحول دون من تأمونهم ودون استزادتهم من الخشوع والتضرع في الصلاة خلفكم. كما أتقدم بها - وأعني بذلك أبيات بهاء الدين - رمزاً لفضيلة الأئمة الذين يصطحبون الطمأنينة في صلاتهم فيوجدون بذلك فرصة كافية لمأموميهم لاستكمال أفعال الصلاة واستحضار الخشوع واستلهام التوسل إلى الله، وذلك امتثالاً لقوله تعالى في سورة المؤمنون الآية رقم ١، ٢: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾. مدركين بذلك أن بخشوعهم وطمأنينتهم تخشع قلوب جميع مأموميهم فيحصل لهم إن شاء الله الأجر والثواب من الله العزيز الحكيم.

○ ○ ○ ○ ○

إبليس يعلّم إبراهيم الموصلي الغناء

روى أبو الفرج الأصفهاني في كتابه «الأغاني»: أنَّ إبراهيم الموصلي طلب من الرشيد أن يهب له يوماً من أيام الأسبوع لا يبعث إليه أحد في طلبه ليخلو فيه بجواريه فأذن له الرشيد بيوم السبت. قال إبراهيم الموصلي: وكنت في كل يوم سبت أغلق الأبواب وأطلب من البواب أن لا يأذن لأحد بالدخول عليَّ، وبينما أن جالس بين خدمي إذ بشيخ ذا هيئة وجمال. فغضبت لذلك وهممت بطرد بوَّابي، لكن هذا الشيخ سلم علي أحسن تسليم فرددت عليه وأمرته بالجلوس فجلس وأخذ يحدثني بأيام العرب وأشعارها حتى سلّ ما بي من غضب، وعرضت عليه الطعام والشراب، فقال: لا حاجة لي بذلك إلا الشراب، فشرب ثم طلب مني أن أغني له شيئاً مما صنعته، فأخذت العود وغنيت، فقال: أحسنت يا إبراهيم، فزاد غضبي؛ لأنه سماني ولم يكنني، ثم استزادني من الغناء فغنيت. فقال: أجدت. ثم استأذنني الغناء فأذنت له وقد استضعفت عقله في أن يغنيني بعدما سمع مني. فأخذ العود فوالله لخلته ينطق بلسان عربي لحسن ما سمعته من صوته وغنائه ولقد خلت أعضائي وثيابي والأبواب والحيطان وكل من في البيت يجيبه ويغني معه، وقد تغنى بالأبيات التالية:

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد

لقد زادني مسراك وجداً وعلى وجدي

أإن هتفت ورقاء في رونق الضحى

على فنن غض النبات من الرند



بكيت كما يبكي الحزين صبابة
وذبت من الحزن المبرح والصد

وقد زعموا أن المحب إذا دنا
يمل وأن النأي يشفي من الوجد

بكل تداوينا فلم يشف ما بنا
على أن قرب الدار خير من البعد

ولما فرغ قال: يا إبراهيم هذا هو الغناء فانح نحوه وعلمه جواريك. ثم غاب من بين يدي وارتعت فقمت بالسيف أطلبه وعدوت نحو الأبواب فإذا هي مغلقة والبواب يقول: ما دخل إليك اليوم أحد. ورجعت إلى مجلسي فإذا هو قد هتف بي من بعض جوانب البيت: لا بأس عليك يا أبا إسحاق: أنا إبليس، وأنا كذلك جليسك ونديمك اليوم فلا ترع. والأبيات المتقدمة من قصيدة لابن الدمينة، ومنها قوله:

فوالله رب البيت لا تجدينني
تطلّبت قطع الحبل منكم على عمد

ولا أشتري أمراً يكون قطيعة
لما بيننا حتى أغيب في اللحد

فمن حبها أحببت من لا يحبني
وصانعت من قد كنت أبعده جهدي

○○○○○

اشتراك الشعراء في الكنى مشكلة

حينما يقال: قال الشاعر أبو تمام. فإنه لن يتوانى أحد عن القول: «هو حبيب بن أوس الطائي»، لكنه يجب على الذي يدرك أن الكنية كثيراً ما تكون مشتركة ومشاعة بين الأعلام وغير الأعلام أن لا يتعجل بالتعريف ونسبة ما يسمعه من شعر إلى حبيب بن أوس. كما يجب على الذين يستشهدون بأبيات من الشعر فيما يكتبونه من موضوعات أن لا يكتفوا بذكر الكنية في نسبة الشعر.

وعلى سبيل المثال نجد أن هناك شعراء تكنوا بأبي تمام. وذلك كأبي تمام غالب بن رباح المعروف بالحجام شاعر قلعة بني رباح غربي طليطلة. الذي قال عنه الشنتريني في كتابه «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»: إنه كان متخلفاً في شعره؛ لأن طبعه كان ينبو عن الرقيق السهل، ولا يلحق بالفصيح الجزل. وربما ندرت له أبيات في النظام، كرمية من غير رام. قال الشنتريني: وقد أخذت هنا من شعره بطرف يعرب عما به ذكر ووصف.

وقد اختار الشنتريني أبياتاً من قصائد لأبي تمام المعروف بالحجام، ومن تلك الأبيات التي اختارها من إحدى قصائده قوله:

عرفتُ الدهر ثم طلبت منه

ليسقيَ صفوة فسقى زعاقا

فكنتُ كطالب في البحر ماءاً

تشكك في مرارته فذاقا



ولم أر مثل أيام التصابي
وقد ضرب الهوى فوقي رواقا

وقد زُفّت عروس الكأس نحوي
وقد كتبوا لها شعري صداقا

ومن كلفي بها وبمن سقاني
وصلتُ بها اصطباحاً واغتباقا

غزال لم يزل قلبي عليلاً
بعلّة مقلتيه فلا أفاقا

رقيق الخصر لو شاء احتزاماً
بخاتمه لكان له نطاقا

ومنها قوله:

سلاماً لم يكن إلّا وداعاً
وجمعاً لم يكن إلّا افتراقا

وأنا أقول: لو أن الحجام ما قال إلّا هذا البيت الأخير والبيتين الأوليين لكفته شهرة لكنه قال أكثر وأكثر من ذلك، فيما رواه له الشنتريني الذي لم ينصفه حينما ترجم له تلك الترجمة التي أوردت جزءاً منها آنفاً.

○ ○ ○ ○ ○

صَرّدُرٌّ.. لقب وليس اسماً

وصردُر: اسمه الرئيسي أبي منصور علي بن الحسن بن علي بن الفضل. قال مؤلف ديوانه أحمد نسيم: وصردر شاعر يعد أحد نجباء عصره، جمع بين جودة السبك وحسن المعنى. وعلى شعره طلاوة رائقة، وله ديوان شعر صغير وإنما قيل له صَرّدُرّ لأن أباه كان يلقب (صَرّدُرّ)، وقيل: إن أول من لقبه بصردر هو نظام الملك.

وقد ذكر أحمد نسيم في مقدمة ديوان صَرّدُرّ الاختلاف الحاصل في ضبط (صاد) (صردُرّ)، فمن قائل: بالضم، ومن قائل: إنها بالفتح، وذكرت بعض المراجع التي ورد فيها اسمه - كـ«شذرات الذهب»، و«البداية والنهاية»، و«الكامل في التاريخ»، «ووفيات الأعيان» - ثم رجّح في الأخير أنها بالفتح مستشهداً ببيتين هجاه بهما الشريف أبو جعفر المعروف بالبياضي وهو أحد المعاصرين لصردر. يقول فيهما:

لأن لقب الناس قدماً أباك

وسموه من شحه صربعرا

فإنك تنثر ما - صره -

عقوقاً له وتسميه شعرا

وقد ذكر أن سبب وفاته - أي صَرّدُر - أنَّه تردى في حفرة حفرت لأسد في قرية بطريق خراسان، وذلك سنة خمس وستين وأربعمائة هجرية، أما ولادته فقد قيل: إنها قبل الأربعمائة.

وشعره هو في الحقيقة كما وصفه أحمد نسيم من القوة والحسن وسلامة الصياغة وقوة التعبير. وليس أدل على ذلك من هذه الأبيات

التي سأقتطفها من قصيدة له يعاتب فيها أحد أصدقائه، بقوله:

ومتى ثكلت مودة من صاحب
فلقد عدمت بها سوادَ الناظر

ولذاك نُحتُ على آخائك مثلما
ناح الحمام على الربيع الباكر

وبقوله:

لا تنبذ الخلان حولك حَجْرَةً
فالعين لا تبقى بغير محاجر

وبقوله:

فلأن أقمت على التصارُم لم تجد
ريباً سوى عتب الحبيب الهاجر

وإن استقلت أقلتُها وجزاؤها
منّي مثوبةُ تائب من غافر

وبقوله:

لو لم تكن في وسط قلبي حَبّةً
لسلوتُ عنك سُلوّ بعض دخائري

ooooo

تصوير الواقع

تصوير الواقع بالأسلوب الشعري أمر لا يتيسر لكل شاعر لأنه يحتاج إلى إمعان نظر ودقة ملاحظة، وسَوْسٍ للكلمات التي ترسم الخطوط الرئيسية للشكل الذي يريد تصويره. ولهذا فإننا نرى بعضهم يمثل ما يراه، ويصفه ويشبهه، ويدور حول معناه لكنه لا يرسم الصورة الحقيقية التي أمامه.

أمَّا الشاعر القدير فإنه يلوِّنُ الصورة التي يراها كما هي وبلونها، ويضعها في إطار بحجمها الحقيقي أمام قارئ شعره فيجعله ينظر إليها بعينه من خلال أبيات القصيدة التي هي أشبه ما تكون في عصرنا هذا بآلة التصوير التي لا تزيد ولا تنقص في نقل ما توجه إليه.

جاء في كتاب «بدائع البدائة» لصاحبه علي بن ظافر الأزدي: إن الملك العزيز أبرز أمره إلى وزيره الأجل نجم الدين أن يصنع غزلاً في جارية صنعت على خدها بالمسك صورة حية وعقرب. فصنع الأبيات التالية:

فديتها من غادة
مخلوقة من طرب

سألتها في قبلة
في خدها المذهب

فجاوبت معجبة
بكفها المخضب

وابأبي وابأبي
من عظم هذا الطلب

وليس هذا ممكناً
على ممر الحقب

روضة خدي حُرست
بحية وعقرب

من رام أن يلثمها
فليرقها بالذهب

وليشرب الدرياق من
رضاب ثغري الشنب

○ ○ ○ ○ ○

آشى يهدي إلى لسان الدين، قباباً!!

ذكر أحمد بن محمد المقري التلمساني في كتابه «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب»: إن أبا الحسن علي بن محمد بن علي بن البناء الوادي آشى أهدى إلى لسان الدين بن الخطيب، قباقب خشب جوز، وكتب معها أبياتاً، منها قوله:

هاكها ضمراً مطايا حساناً
نشأت في الرياض قضباً لدانا

وثوت بين روضة وغدير
مرضعات من النمير لبانا

ثم أراد إكرامها الله
وسنّى لها المنى والأمانا

قصدت بابك العليّ ابتداراً
ورجتْ في قبولك الإحسانا

ومجمل الأبيات يعني أنه أهداه قباقب مصنوعة من خشب الجوز، بعد أن قطع وأضمره اليبوس بعد أن كان قائماً في روضة يرضع من الغدير والماء النمير. وقد وقعت هذه الإشارة الجميلة في البيتين السابقين.

وقد كان من الطبيعي أن يرد لسان الدين على الوادي آشى. فجاء رده في أبيات جميلة عبّر فيها عن حسن قبوله لتلك القباقب التي كنّاها بالجياد. كما كنّاها الوادي آشى قبله بالمطايا في إهدائها.

ومن أبيات لسان الدين بن الخطيب التي أعلن فيها قبوله لتلك الهدية، قوله:

قد قبلنا جيادك الدهم لمّا
أن بلونا منها العتاق الحسانا

أقبلت خلف كل حجرٍ تبيعٍ
خلعتْ وصفها عليه عيانا

فعنينا برعيها وفسحنا
في ربوع العلا لها ميدانا

وأردنا امتطاءها فاتخذنا
من شراك الأديم فيها عنانا

○○○○○

مناصبة الشعر الحر..
وعبير من الشعر الأندلسي لشاعر سعودي

إن القارئ اليوم ـ وأعني بذلك قارئ الشعر ـ ليكاد يضع أصبعه في أذنيه حينما يقرأ ما تزج به أقلام الحداثيين من كلام يسمّون به أنفسهم شعراء العصر، ولا أدري أي عصر أو معاصرة يعنون بذلك لكن السؤال الذي يفرض نفسه أمام هذا الزخم من الكلام الذي يسمونه شعراً. هو: هل ما يأتي به الحداثيون والبنيويون من شعر. هو ذاتي يستحق النقد؟، أم هو كما يزعم بعضهم عرضي جاء ليفرض نفسه وكأنه الذي لا قبله قبل، ولا بعده بعد؟. والجواب على ذلك أنه لا هذا ولا ذاك، وإنما هو سطور يشبه في نظام حروفه بآثار الفئران المترددة، وفي معناه: القفل المغلق الذي علاه الصدأ.

وأنصار ذلك الشعر الحر، وأصحابه.. لا يشعرون بأنهم يشكلونه في صورة عارية من جمال القافية، وحسن نظم صدور الأبيات وأعجازها، وعذوبة اللحن الموسيقي وإيقاعات تفعيلاته ذات النغمة المطربة بتساويها.

وأصحاب الشعر الحر يقصدون به الآن مظاهرة الشعر المقفَّى ومفاخرة الشعراء القدامى، والحقيقة أن مظاهرتهم تلك ما هي إلّا وسيلة يقدمونها للكشف عن ركاكة أسلوبهم وإعطاء معنىً للحداثة والبنيوية المتمزقة اللسان والضائعة الأسلوب والبيان.

ولهذا فإن القارئ المتذوق للشعر الحقيقي في عصرنا هذا يجد بغيته بل يحس بارتياح نفسي إذا ما قرأ قصيدة مقفاة تحمل معنى الشعر الذي تضيء ألفاظه بإشراقة العصر، وتشير عباراته إلى الأصالة وسحر



البيان، وتستوعب مفرداته ما جدّ على الحياة العصرية من فكر وسياسة وثقافة مدنية وعمرانية وصناعية.

وبالإضافة إلى أن الشعر العمودي الأصيل أكثر استيعاباً وأطول نفساً فإنه أشد تحكماً في الألفاظ وأوسع إحاطة بالمعنى، وأقوى على تطويع العبارة في أي منحى ينتحي إليه الشاعر. خذ مثلاً هذه الأبيات التي أقتطفها من قصيدة للشاعر السعودي المعاصر محمد سعد المشعان والتي يُشم منها عبير الشعر الأندلسي، ويلحظ فيها أسلوبه اللفظي:

أنا شاعر يهفو إلى الزهر والندى
ويُغْرمُ بالأنهار والروض واللحن

يردد في ليل السهارى نشيده
ويجهش في ليل الحزانى من الحزن

ويطرب إن طير تغنّى بلحنه
ويبسم إن جدّ البكاء من المزن

ويكبر في حواء لفتة جيدها
ويدهشه منه مشابهة الغصن

يرى إن في اللذات إشباع توقة
ويلهبه شوق يصيح به.. زدني

* * *

وتمضي به الأيام في الغيّ راتعاً
فلا شوقه يخبو ولا رتعه يغني

وتدنيه من آلامه صحوة الأسى
فذاك الهوى يقصي وهذا الأسى يدني

ويحنيه إدلاجُ الليالي ضعائناً
على ظهره والدهر يغتال أو يحني

تهنئة

والأدباء والشعراء تنقفل أمامهم في بعض الأحيان الطرق التي تتسلل منها إلى نفوسهم فتشرئب أعناقهم إلى أي قادم نحوهم، أو أي حركة تحدث من حولهم، أو يحدثها واحد منهم لتكون مفتاح الصمت الجاثم على ألسنتهم، ومعراج الخيال المجنح الذي يمزق التقهقر الفكري الذي يتسرب إلى مناطق التفكير لديهم. ولو استقينا درساً من حياة الشعراء القدامى لتبينا أنهم كثيراً ما ينتهزون الفرص التي يحدثها الزمان والحركات التي يقوم بها زملاؤهم فيجعلون منها مادة لبناء قصائدهم، ومنصة للبوح من فوقها بمشاعرهم وخلجات نفوسهم. فالمناسبات التي تزامن حياتهم، كاستكتاب كاتب في ديوان الدولة أو استوزار وزير أو تنصيب أمير على مقاطعة أو ولاية. أو ما إلى ذلك من التعيينات التي تحدث في جهاز الدولة ويكون لها وقع في حياة المجتمع الذي يعيشون بين ظهرانيه، يكون عاملاً من عوامل كسر صمتهم.

ولا أريد أن أستشهد بشيء من الماضي ولدي من الحاضر ما يغطي مساحة هذا الموضوع. ألا وهو تعيين معالي الدكتور أحمد محمد الضبيب مديراً لجامعة الملك سعود خلفاً لمديرها السابق معالي الدكتور منصور التركي الذي قام على إدارة الجامعة خير قيام. وبهذه المناسبة حصل سباق من أسرة التدريس بالجامعة بل من كل منسوبيها في ميدان تقديم التهاني للدكتور الضبيب. وكان للصحافة دور في إبراز هذه الصورة. فمن تلك التهاني التي قدمت للدكتور الضبيب بمناسبة توليه إدارة جامعة الملك سعود التي هي أكبر جامعات المملكة العربية

السعودية - السبع - قصيدة نظمها الشاعر الدكتور محمد أحمد سليمان إدريس قوامها ٢٧ بيتاً، وقد نشرتها جريدة «الرياض» في عددها ٥٣٧٩، وتاريخ ٧ رمضان سنة ١٤١٠هـ، منها قوله:

أتى الشعر منّي يحي الضبيبا
يصافح زُخْراً أديباً أريبا

إليه الإدارة منقادةً
وتمشي الهوينى تميسُ حبيبا

وألقت قلادتها عنده
وعطرُ اليلنجوج قد فاح طيبا

هنيئاً لنا اليوم إذ (ضادنا)
إلى النجم تعلو وصارت ضريبا

وعلامة صقلته العلو
م ربات إلى الجاهليّ طبيبا

يدرس آدابها كلها
فكان البيان وكانَ الخطيبا

ويشير إدريس إلى أن الضبيب كان يدافع عن القصيدة العربية، ويرد على المستشرقين الذين يشككون في قيمة الشعر العربي:

وشاد وأسس في وُحدة
تسودُ القصيدة لا لن تغيبا

ويختم إدريس تلك القصيدة التي استعرض فيها طائفة من أسماء الشعراء القدامى، بقوله:

وآخر قولي كمطلع شعري
زفاف تهانٍ يلاقي الضبيبا

جرير يعترف بأن للمغني دوراً في تقويم الشعر وتمليحه

أحياناً يكون للمغني دور مهم في إبراز القصيدة وذيوع صيت الشاعر، وذلك عندما يتغنى بقصيدة من قصائده غناء يطرب الناس ويحملهم على فهم معاني الكلمات.

قال أبو الفرج الأصفهاني في كتاب «الأغاني»: أقبل جماعة من المغنين على الشاعر جرير وفيهم أشعب المغني، وكان أشدهم إلحاحاً في سؤال جرير، فقال جرير: والله إني لأراك أقبحهم وجهاً، وأراك ألأمهم حسباً، فقد أبرمتني منذ اليوم. فقال أشعب: إني والله أنفعهم وخيرهم لك. قال جرير: ويحك! كيف ذلك؟. قال أشعب: إني أملح شعرك، وأجيد مقاطعه ومبادئه. قال جرير: قل؛ ويحك. فاندفع أشعب مغني بلحن ابن سريح:

يا أخت ناجية السلام عليكم
قبل الرحيل وقبل عذل العذل

لو كنت أعلم أن آخر عهدكم
يوم الرحيل فعلت ما لم أفعل

فطرب جرير وجعل يزحف نحوه حتى ألصق بركبته ركبته، وقال جرير: لعمري لقد صدقت، إنك لأنفعهم لي، وقد حسنته وأجدته، وزينته، أحسنت والله. ثم وصله وكساه، فلما رأى بعض أهل المجلس إعجاب جرير بذلك الصوت، قالوا له: فكيف لو سمعت واضع هذا

الغنا؟، قال جرير: أَوَ أن له واضعاً غير هذا؟. فقيل له: نعم. فقال: فأين هو؟. فقيل له: بمكة. قال جرير: فلست بمفارق حجازكم حتى أبلغه. فبحث عنه فوجده ابن سريج.

والبيتان المتقدمان من قصيدة طويلة لجرير هجا فيها الفرزدق والأخطل، ومنها قوله:

أعددت للشعراء سماً ناقعاً
فسقيت آخرهم بكأس الأول

لما وضعت على الفرزدق ميسمي
وضغا البعيث جدعت أنف الأخطل

ومنها قوله:

إني انصببت من السما عليكم
حتى اختطفتك يا فرزدق من عَلِ

من بعد صكتي البعيث كأنه
خَرَبٌ تنفج من حذار الأجدل

ومنها قوله:

إني إلى جبليْ تميم معقلي
ومحل بيتي في اليفاع الأطول

أحلامنا تزن الجبال رزانة
ويفوق جاهلها فعال الجهل

○○○○○

الحَيْص بَيْص اسمه سعد بن محمد

والشاعر حَيْصَ بَيْصَ هو الأمير شهاب الدين أبي الفوارس سعد بن محمد بن سعد بن الصيفي التميمي البغدادي ولد عام ٤٩٢هـ تقريباً، وتوفي عام ٥٧٤هـ، له مكانة سامية في مجتمعه ولشعره وقع خاص في نفس قارئه وسامعه، وله ديوان في ثلاثة أجزاء حققها كل من الأستاذين مكي السيد جاسم وشاكر هادي شكر. أما لماذا لقب بالحَيْصَ بَيْصَ واشتهر به؟. فقد قرأت موضوعاً في العدد الأول من مجلة «نور الإسلام» الصادر في غرة محرم سنة (١٣٤٩) هجرية جاء فيه: إن سبب تلقيبه بالحَيْصَ بَيْصَ أنَّه رأى الناس يوماً في حركة مزعجة وأمر شديد فقال: ما للناس في حَيْصَ بَيْصَ؟ فبقي عليه هذا اللقب ومعنى هاتين الكلمتين: الشدة والاختلاط.

ويذكر أن الحَيْصَ بَيْصَ قد تفقه على مذهب الإمام الشافعي، لكنه غلب عليه الأدب ونظم الشعر. وكان مجيداً فيه. وكان إذا سئل عن عمره يقول: أنا أعيش في الدنيا مجازفة لأنه كان لا يحفظ مولده.

ويروى أن نصر الله بن مجلي وكان من الثقاة وأهل السنة قال: رأيت علي بن أبي طالب رضي الله عنه في المنام، فقلت له: يا أمير المؤمنين! تفتحون مكة فتقولون: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن. ثم يتمّ على ولدك الحسين ما تم!! فقال لي: أما سمعت أبيات ابن الصيفي في هذا؟. فقلت: لا. فقال: اسمعها منه. ثم انتبهت فبادرت إلى حَيْصَ بَيْصَ فذكرت له الرؤيا. فشهق وبكى وحلف بالله لم تخرج من فمه ولا خطه إلى أحد، وما نظمها إلا في ليلته ثم أنشدني قوله:

ملكنا فكان العفو منا سجيةً
فلما ملكتم سال بالدم أبطح
وحَلّلتمو قتل الأسارى وطالما
عَدَوْنا على الأسرى فنعفو ونصفح
وحسبكمو هذا التفاوت بيننا
وكل إناء بالذي فيه ينضح

وليستوفي شرطي لتأليف كتابي هذا «الأدب المثمن» اكتمال ثمانية أبيات لكل موضوع، أقتطف من قصيدة كتب بها الحَيْصَ بَيْصَ إلى قاضي القضاة علي بن الحسين الزينبي العباسي الأبيات التالية:

رعى اللّه نجراً زينبياً تألقت
معاليه حتى خابط الليل موضح
تفارط فامتاح الجمام من العلى
وغادر للورّاد ما ليس ينْضح
أغر غماميّ البنان وأنه
لا غدق من ماء الغمام وأسمح
يخف إلى نصر الطريد بسالةً
ويُربي على الأطواد حلماً ويرجح
فتى ملئ برديه إذا ما بلوته
نَهُوضٌ بأعباء المغارم أسجح

ooooo

ليس كل شعر يصلح للتغني به

روى الأصفهاني في كتابه «الأغاني» قال: تغنى معبد بقول عمر بن أبي ربيعة:

آب لــيــلــى بــهــمــوم وفَــكــرْ
مــن حــبــيــب هــاج حــزنــي والــســهــر

يــوم أبــصــرتُ غــرابــاً واقــعــاً
شــر مــا طــار عــلــى شــر الــشــجــر

فعارضه مغن آخر اسمه مالك وتغنى أبياتاً من القصيدة نفسها، فقال:

وجــرت لــي ظــبــيــة يــتــبــعــهــا
لــيــن الأظــلاف مــن حــور الــبــقــر

كــلــمــا كــفــكــفــت مــنــي عــبــرة
فــاضــت الــعــيــن بــمــنــهــل درر

فتلاحيا وقال كل واحد منهما لصاحبه: أنا أجود صنعة منك فتحاكما إلى ابن السريج فمضيا إليه بمكة، وقالا له: إنا خرجنا إليك لتحكم بيننا في صوتين صنعناهما. فقال لهما: ليغن كل واحد منكما صوته. فابتدأ معبد يغني. فقال ابن السريج: أحسنت والله على سوء اختيارك للشعر! يا ويحك! ما حملك على أن ضيعت هذه الصنعة الجيدة في حزن وسهر، وهموم وفكر؟. أربعة ألوان من الحزن في بيت واحد. وفي البيت الثاني شرَّان في وقت واحد وهو قولك: شرٌّ ما طار



على شر الشجر. ثم قال لمالك: هات ما عندك. فغناه مالك، فقال له: أحسنت والله ما شئت.

وفي الحكاية ما يدل على أن ابن السريج لم يرض على اختيارهم للشعر الذي تغنيا به. قال الأصفهاني: ثم طلب من معبد أن ينشد القصيدة التي تغنيا بها. فأخذ في إنشادها حتى انتهى إلى قول عمر بن أبي ربيعة:

تنكر الأثمد لا تعرفه
غير أن تسمع منه بخبر

فصاح ابن السريج بأعلى صوته وقال: هذا خليلي وهذا صاحبي - يعني البيت - ثم تغنى ابن السريج بالقصيدة ولما انتهى، انصرف معبد ومالك مغلولين مفضوحين بسبب سوء اختيارهما للأبيات التي تغنيا بها.

وفيما تقدم نرى أن أبا الفرج نسب الأبيات لعمر بن أبي ربيعة لكننا نراه عند ذكر آخر أخبار ابن السريج يقول: والشعر لعبد الرحمٰن بن حسان بن ثابت وليس لعمر بن أبي ربيعة والأبيات من قصيدة قالها في رملة بنت معاوية بن أبي سفيان ومنها قوله بعد ذكر البيت الذي آخره (شر ما طار على شر الشجر):

ينتف الريش على عبرية
مرة المقضم من دوح العشر

وفي وصف الظبية يقول:

خلفها أطلس عسال الضحى
صادقته يوم طل وخصر

وفي تشبيه رملة يقول:

إن عينيها لعينا جُوذر
أهدب الأشفار من حور البقر



معبد إمام أهل المدينة في الغناء

معبد بن وهب هو أحد الموالي وقد اختلف في نسبته لمولاه فمن قائل: إنه مولى ابن قطن، ومن قائل: إنه مولى العاص بن وابصة. وقد روى الأصفهاني في كتابه «الأغاني»: إن إسحاق الموصلي، قال: كان معبد من أحسن الناس غناء وأجودهم صنعة وأحسنهم خلقاً وهو فحل المغنين وإمام أهل المدينة في الغناء. وروي عن معبد أنه قال: قدمت مكة فقيل لي: إن ابن صفوان قد أعد جائزة يتسابق على نيلها المغنون فأتيت بابه فطلبت الدخول فقال لي آذنه: قد تقدم إليّ أن لا آذن لأحد عليه ولا أُذنه به، قال: فقلت له: دعني أدنو من الباب فأغني صوتاً. قال: أما هذا فنعم. فدنوت من الباب فغنيت. فقالوا: معبد وفتحوا لي فأخذت الجائزة. وقال إسحاق: قيل لمعبد: كيف تصنع إذا أردت أن تصوغ الغناء؟. قال: أرتحل قعودي وأوقع بالقضيب على رحلي وأترنم عليه بالشعر حتى يستوي لي الصوت.

وروي عنه أيضاً أنه قال: كنت غلاماً مملوكاً لآل قطن موالي بني مخزوم وكنت أتلقى الغنم بظهر الحَرَّة وكنت آتي بالليل إلى صخرة ملقاة بالحرة فأستند بها فأسمع وأنا نائم صوتاً يجري في مسامعي فأقوم من نومي فأحكيه، وهذا كان مبدأ غنائي. وروي عنه أنه قال: والله لقد صنعت ألحاناً لا يقدر شبعان ممتلئ، ولا سقاء يحمل قربة على الترنم بها. ولقد صنعتُ ألحاناً لا يقدر المتكئ أن يترنم بها حتى يقعد مستوفزاً ولا القاعد حتى يقوم. وقال إسحاق: سمعت من لا أحصي من أهل العلم بالغناء يقولون: لم يكن فيمن غنى أحد أعلم بالغناء من معبد، ومن أشهر ما تغنى به معبد من الأشعار قول النابغة الذبياني:

بانت سعاد وأمسى حبلها انصرما
واحتلت الغور فالإجراع من أضما

إحدى بلـيٍّ وما هام الفؤاد بها
إلا السفاهَ وإلا ذكرةً حلما

والقصيدة طويلة، منها قوله:

غراء أكمل من يمشي على قدم
حسناً وأملح من حاورته الكلما

قالت: أراك أخا رحل وراحلة
تغشى متالف لن يُنظرنك الهرما

حباك ربي. فإنا لا يحل لنا
لهو النساء وإن الدين قد عزما

مشمرين على خُوص مزممة
نرجو الإله ونرجو البرّ والطُعَما

هلا سألت بني ذبيان ما حسبي
إن الدخان تغشى الأشمط البرما

وهبت الريح من تلقاء ذي أُرُلٍ
تزجي مع الليل من صُرَّادها صَرما

○ ○ ○ ○ ○

مروان بن الحكم يجيز بيتاً لعبد الله بن الزبير

روى علي بن محمد بن حبيب الماوردي المتوفى عام ٤٥٠ للهجرة، في كتابه «الأمثال والحكمة» الذي حققه الدكتور فؤاد عبد المنعم أحمد: إن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه دخل على عائشة رضي الله عنها وعندها مروان بن الحكم، فتحدثت به، وقالت: لقد أجاد لبيد حيث يقول:

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه
يحول رماداً بعد إذ هو ساطع

فقال ابن الزبير: لو شئت لقلت ما هو خير منه، وقال:

وفوّض إلى اللّه الأمور إذا اعترت
وباللّه لا بالأقربين فدافع

فقال مروان بن الحكم: أفلا تقول:

وفوّض إلى الرحمٰن أمرك إنه
سيكفيك. لا يَسْبَع برأيك سابع

فقال الزبير: أفلا تقول:

وللخير أهل يعرفون بهديهم
إذا اجتمعت عند الخطوب المجامع

فقال مروان: أفلا تقول:

وللخير أهل يعرفون بهديهم
إذا جمعتهم في الحقوق المجامع

فقال ابن الزبير: أفلا تقول:

وللشر أهل مُلْبسون ثيابَهُ

عليهم سرابيل له وبراقع

فقال مروان: أفلا تقول:

وللشر أهل هم تُشير إليهم

على كل حال بالأكف الأصابع

فقال ابن الزبير: أفلا تقول:

وفينا أناس... وأرتج عليه. فقال مروان: أفلا أجيزه عليك؟ فقال ابن الزبير: هات وما أراك تفعله. فقال مروان:

وفينا أناس لا تُرَد عليهم

إذا استودعوا أخرى الليالي الودائع

ولهذه الإجازة بقية من أحب الاطلاع عليها فليرجع إلى كتاب «الأمثال والحكم» الذي أشرت إليه آنفاً.

○ ○ ○ ○ ○

الإجازة في الشعر

أورد جلال الدين بن عبد الرحمٰن السيوطي في كتابه «حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة» قولاً لصلاح الدين الصفدي في تاريخه، جاء فيه قوله: حكى صاحب كتاب «الأشعار بما للملوك من النوادر والأشعار»، فقال: كان الملك الكامل ليله جالساً فدخل عليه مظفّر الأعمى، فقال له: أجز يا مظفر، قد بلغ الشوق منتهاه.

فقال مظفر: وما درى العاذلون ما هواه.

فقال السلطان: ولي حبيب رأى هواني.

فقال مظفر: وما تغيرت عن هواه.

فقال السلطان: رياضة النفس في احتمال.

فقال مظفر: روضة الحسن في حُلاه.

فقال السلطان: أسمر لدن القوام ألميَ.

فقال مظفر: يعشقه كل من رآه.

فقال السلطان: وريقه كلّه مدام.

فقال مظفر: ختامه المسك من لماه.

فقال السلطان: ليلته كلها رقاد.

فقال مظفر: وليلتي كلها انتباه.

فقال السلطان: وما يرى أن أكون عبداً.

فقام مظفر على قدميه، وقال:

بالملك الكامل احتماه

العالم العامل الذي في

كل صلاة ترى إباه

ولا أرى من تعليق على هذا التكافؤ إلا أن أشبهه بقولهم: (كل كلمة وغطاها) وهذا التقاول يعرف بالتمليط.

○○○○○

عمران بن حطان أحد رؤوس التابعين للخوارج

جاء في كتاب «الملل والنحل»: إن كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجياً سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين أو كان بعدهم على التابعين بإحسان والأئمة في كل زمان.

والذين خالفوا رأي أمير المؤمنين علي رضي الله عنه سموا خوارجاً وصاروا فرقاً. وقد قيل: إن أول من خرج عليه رضي الله عنه هم جماعة كانوا معه في حرب صفين. وأشدهم عليه مروقاً من الدين: الأشعث بن قيس الكنْدي، ومسعر بن فدكي التميمي، وزيد بن حصين الطائي حين قالوا له رضي الله عنه: القوم يدعوننا إلى كتاب الله وأنت تدعونا إلى السيف. ثم صار لهم أتباع ورثوا عنهم منهج المخالفة والخروج على العقيدة. ومن رؤوس أولئك التابعين عمران بن حطان بن ظبيان بن شعل السدوسي البصري التابعي المشهور. قيل: إنه من القَعَدَ بفتحتين. وهم الذين يرون الخروج ويحسِّنونه لغيرهم ولا يباشرون بأنفسهم القتال. وقيل: إنما صار من القَعَد لأن عمره طال وكبر وعجز عن الحرب وحضورها فاقتصر على الدعوة والتحريض بلسانه.

وقيل: إنه كان أولاً مشمِّراً لطلب العلم والحديث، ثم بُليَ بذلك المذهب. وقد أدرك صدراً من الصحابة، وروى عنه أصحاب الحديث. وقيل: إنه أخرج له البخاري وأبو داود واعتذر عنه بأنه إنما خرّج عنه ما حدّث قبل أن يبتدع. قيل: إن سبب ابتلائه أنه تزوج امرأة من الخوارج فكلموه فيها، فقال: سأردها عن مذهبها فأضلته. وذكر المدائني أنها كانت ذات جمال، وكان دميماً قبيحاً، فقالت له مرة: أنا



وأنت في الجنة، قال: من أين علمت بذلك؟. قالت: لأنك أعطيت مثلي فشكرت، وابتليتُ بمثلك فصبرت، والشاكر والصابر في الجنة. ولقد أدى تأثيرها عليه وصرفه عن مذهبه إلى مذهبها أن قال شعراً مدح فيه عبد الرحمٰن بن ملجم المرادي قبحهما الله تعالى، قاتل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، منه قوله:

للّه درّ المرادي الذي سفكت
كفاه مهجة شر الخلق إنسانا

أمسى عشية غشّاه بضربته
معطي مناهُ من الآثام عُريانا

يا ضربة من تقيّ ما أراد بها
إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

إني لأذكره حيناً فأحسبه
أوفى البرية عند اللّه ميزانا

وقد ردَّ الشعراء والعلماء على هذه القصيدة رداً مفحماً من بينهم القاضي أبو الطيب الطبري، حيث قال:

إني لأبرأ مما أنت ذاكره
عن ابن ملجم الملعونِ بُهتانا

إني لأذكره يوماً فألعنه
ديّناً وألعنُ عمران بنَ حطانا

عليك ثُمَّ عليه من جماعتنا
لعائن كثرت سراً وإعلانا

فأنتما من كلاب النار جاء به
نص الشريعة إعلاناً وتبيانا

صريع الغواني، واسمه مسلم بن الوليد

وصريع الغواني كما جاء في مقدمة ديوانه ـ الذي طبع على نفقة محمد أحمد رمضان المدني وقام بتصحيحه وتنقيحه والتعليق عليه الأستاذ الجليل حسن أفندي أحمد البنا. هو: مسلم بن الوليد، أبوه الوليد مولى الأنصار ثم مولى أبي أمامة أسعد بن زرارة الخزرجي، ويكنى بأبي الوليد، ولقب بصريع الغواني وبه اشتهر وغلب على اسمه، وهو شاعر متقدم من شعراء الدولة العباسية قيل: إن منشأه ومولده الكوفة، وهو فيما زعموا أول من قال الشعر المعروف بالبديع وهو الذي لقب هذا الجنس البديع واللطيف، وتبعه فيه جماعة من الشعراء أشهرهم أبو تمام الطائي. قال عنه محمد بن يزيد: كان مسلم بن الوليد شاعراً حسن النمط جيد القول في الشراب. وقد قرنه كثير من الرواة بأبي نواس، ولا يعرف متى ولد، أما وفاته فكانت سنة ٢٠٨ للهجرة.

ولم أعثر فيما قرأته عن مسلم بن الوليد ما يدل على سبب تلقيبه بصريع الغواني إلا أن يكون السبب في ذلك قوله:

ما لذة الدنيا إذا لم تكن
فيها فتى كأس صريع حبائب

وهذا بيت ختم به قصيدة طويلة نسبياً إذ تبلغ اثنين وثلاثين بيتاً، أو أنه لقب بذلك اللقب لاستخدامه (كلمة صريع) أكثر من مرة في تغزله، فبقراءتي لديوانه وتتبعي للفظه (صريع) وجدته قد جاء بها خمس مرات في مواضع مختلفة، فهو يقول حيناً: (صريع الغواني) وحيناً يقول: (صريع الهوى) وحيناً يقول: (صريع المدام).

وبعد فهذه أبيات أقتطفها من القصيدة التي ختمها بالبيت المتقدم حيث يقول فيها:

إن كـان ذنـبي أن حـبـك شـاغـلـي
عـمـن سـواك فـلـسـت عـنـه بـتـائـب

لـو رام قـلـبـي عـن هـواك تـصـبـراً
لـمـا كـان لي طـول الـحـيـاة بـصـاحـب

سـلـب الـهـوى عـقـلي وقـلـبي عـنـوة
لـم يـبـق مـنـي غـيـر جـسـم شـاحـب

إنـي لأسـتـر عـبـرتـي بـأنـامـلـي
جـهـدي لـتـخـفـى، والـبـكـاء مـغـالـبي

الـحـب سـم طـعـمـه مـتـلـون
بـفـنـونـه أفـنـى دواء طـبـائـبي

يا سخر قد جرعتني غصص الهوى
كـدرت بـالـهـجـران صـفـو مـشـاربي

أشـعـبـت قـلـبي بـالـهـوى وصـدعـتـه
بـالـهـجـر مـنـك فـمـالـه مـن شـاعـب

○○○○○

الموت ليس وقفاً على الكبير دون الصغير!!

ولا يختلف اثنان على أن الكبير هو إلى الختام أقرب وإلى ورود حوض المنية أدنى لأنه ببلوغه سن الكبر والشيخوخة يدخل معترك المنايا. كما لا يختلف اثنان على أن الآجال ليست مقصورة أو موقوفة على من طالت أعمارهم، ولكنها ـ وأعني بذلك المنية أو الآجال ـ لها كر وفر مستمر فهي كما نشهد تتخطى الكبار لتختطف الصغار في بيت، وتتخطى الصغار لتختطف الكبار في بيت آخر. ولكن الحزن والأسى والتألم يكون على الصغير أشد منه على الكبير الذي هرم وأصبح عاجزاً عن ممارسة الحياة وتدبير شؤون نفسه، ولهذا كثرت الإشارة إلى عظم حزن من يصاب بأبنائه وإخوته، وكل من لم ينتهي به طول العمر إلى الهرم. قيل: إنه مات ولد لإبراهيم الحربي، وكان قد قرأ القرآن وتفقه، فقال: قد كنت أحب موته. فقيل له: لِمَ؟. قال: رأيت في المنام القيامة قد قامت والناس عطاش، وإذا بصبيان معهم قلال الماء يتلقون الناس بها. فقلت لأحدهم: اسقني. فقال: لست أبي.

والموت طالب يدرك من طلبه صغيراً كان أم كبيراً. وعلى هذا قالوا: من الذي طلبه الموت فأعجزه؟. من الذي تحصن في قصره وما أبرزه؟. من الذي سعى في مناه فما أعوره؟. من الذي آمل طول الأجل فما حجزه؟. أي عيش صفي وما كدّره؟. أي قدم سعى وما عثره؟. أي غصن علا على ساقه ما كسره؟ـ أما أخذ الآباء والأجداد؟. أما ملأ القبور والألحاد؟. أما حال بين المريد والمراد؟. أما سلب الحبيب وقطع الوداد؟. أما أرمل النسوان وأيتم الأولاد؟. أما تتبع قوم تُبّع وعاد على عاد؟. شعراً:



بكى الناس من قبل أحبابهم
فهل منهم أحد راجع

عرفنا المصائب قبل الوقو
ع فما زادنا الحادث الواقع

فدليَّ ابن عشرين في قبره
وتسعون صاحبها راتع

وللمرء لو كان ينجي الفرا
ر في الأرض مضطرب واسع

ومن حتفه بين أضلاعه
أينفعه أنه دارع

وكان أبيّ لداعي الحما
م إن يدْعه سامع طائع

يسلم مهجته سامحاً
كما مدّ راحته البائع

وكيف يوقى الفتى ما يخا
ف إذا كان حصده الزراع؟

○○○○○

شيء من خصائص النبيّ ﷺ

لقد خصّ الله سبحانه وتعالى نبينا محمداً ﷺ حينما اصطفاه بكرامات فاقت في عدها ومعناها وقيمتها ما خص الله به من سبقه من الأنبياء.

وحصر هذه الخصائص لا يمكن في مثل هذا الموضوع. ولكنني أكتفي بذكر شيء منها، بل بنقله من كتاب قيم عنوانه: «على طريق المصطفى في مكارم الأخلاق» للأستاذ فوزي سالم عفيفي حيث جمع خلاصات قيِّمة مما خصه الله به عن سائر الأنبياء، منها: أنه ﷺ أعطي جوامع الكلم، وأمته أفضل الأمم وهي معصومة من أن تجتمع على ضلال، وكتابه محفوظ من التحريف والتبديل وهو حجة على الناس بعد وفاته. نصره الله بالرعب مسيرة شهر وجُعلت له الأرض مسجداً وطهوراً، وأُحلت له الغنائم، وأرسل للناس كافة. وهو أول شافع وأول مشفّع وأول من يقرع باب الجنة، وأكثر الأنبياء تبعاً، وصفوف أمته في الصلاة كصفوف الملائكة، وتبعث أمته غراً محجَّلين من أثر الوضوء، وتنام عينه ولا ينام قلبه، ولا ينتقض وضوؤه بالنوم مضطجعاً. ولد مختوناً نقياً مقطوع السرة، ولا يقع الذباب عليه ولا يدنس ثوبه؛ لأنَّ علة الدنس من الذنب وهو لا ذنب له، ولا يقع ظله على الأرض، ولا يتثاءب، وتبتلع الأرض ما يخرج منه من الأذى ولا يُرى منه شيء. واصطفاه الله بالمحبة والمودة والخلة والقرب والمعراج، والصلاة بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والبشارة والنذارة والهداية، والأمانة، والشفاعة، والرحمة للعالمين، والشفاعة الكبرى، وإعطاء الرضا، وإتمام النعمة والعفو عما تقدم وتأخر، وشرح الصدر، ورجحان العقل، ووضع الوزر، ورفع الذكر، وعز النصر، ونزول السكينة، والتأييد بالملائكة،

وصلاة الله وملائكته عليه، والحكم بين الناس بما أراه الله، ووضع الإصر والأغلال عنهم، وإجابة دعوته، وإظلال الغمام، وإبراء الآلام، والعصمة من الناس، زوجاته أمهات المؤمنين. وهن أفضل من غيرهن من النساء، وجعل ثوابهن وعقابهم ضعفين، وهن محرمات على غيره بعد وفاته. وقد اختص بإباحة تسع نسوة. ويرى من وراء ظهره كما يرى من أمامه.

شعراً:

لقد خص النبي طه بعشر
ومن يحفظ لها جمع الخصالا

فما وقع الذباب له بجسم
وما خالوا لقامته الظلالا

كذا الفضلات قد خفيت بأرض
فلم يك في الكمال له مثالا

ولم يتثاءب المختار يوماً
ولم يذق احتلاماً وانفعالا

تنام المقلتان ولم يخالط
منام قلبه أبداً محالا

يرى من خلفه أو من أمامه
ومن حاذاه في كتف تعالى

ويظهر نوره في كل واد
وما هربت دواب منه حالا

وقد ولدته آمنة نظيفاً
ومختوناً بقدرته تعالى

معارضة الجدّ بالهزل

والقارئ للآداب وخاصة منها الشعر وما يتصل به من نقد ودراسة يلاحظ وفرة في معارضة القصائد المشهورة، والبحث في وفرة هذه المعارضات ينتهي إلى نتيجة خلاصتها تعاقب الشعراء على معارضاتها، واستمرارية تناولها من كل شاعر مغرم بمعارضة القصائد الشهيرة.

أما منهج القصيدة المعارِضة، فإنه يأتي مطابقاً للقصيدة المعارَضة (بفتح الراء) من حيث الوزن والقافية. أما الموضوع فليس شرطاً من شروط المعارضة ولهذا نجد أن بعض القصائد الحماسية تعارَض بقصائد هزلية.

والشاعر المعارِض للقصيدة الحماسية بقصيدة هزلية يقع تحت رأيين لقلم الناقد: فهو إما أن يكون أراد بمعارضته الهزلية امتصاص الحماس المستمر للقصيدة التي عارضها، أو أنه أراد بذلك إبراز شخصيته ولمعان اسمه من خلال الدخول في ساحة القصيدة الذائعة الصيت بمعارضته لها. وقد يكون هناك رأي ثالث، وهو أن عدم مقدرة الشاعر على صنع قصيدة تتحدث بها الركبان كما يقولون، حمله على صنع المعارضات للقصائد الرّنّانة. وهذا رأي فيه ضعف. والمعارضات الهزلية التي يدخل بها أسلوبها إلى ميدان النكتة والفكاهة كثيرة جداً من ذلك ما حدث من معارضات للامية العجم للطغراني، ولامية ابن الوردي. فالشاعر عامر الأنبوطي عارض كلتا اللاميتين. فمما عارض به لامية العجم قوله:

قوائم الضأن ترياق من العلل
وصحن الرز فيها منتهى أملي



أكلي غذاء وأكلي في العشا على
حد سواء إذا اللحم السمين قُلي

فيم الإقامة في الأرياف لا شبعي
فيها ولا نزهتي فيها ولا جذلي

فلا خليل بدفع الجوع يرحمني
ولا كريم بلحم الضأن يسمح لي

طال التلهف للمطعوم واشتعلت
حشاشتي بحمام البيت حين قلي

ومما عارض به لامية ابن الوردي قوله:

اجتنب مطعوم عدس وبصل
في العشاء فهو للعقل خبلْ

واحتفل بالضأن إن كنت فتى
زاكي العقل ودع عنك الكسل

من كباب وضلوع قد زكت
أكلها ينفي عن القلب الوجل

○ ○ ○ ○ ○

الشعر من أقوى الوسائل لبث الحماس!!

تفرض الظروف في بعض الأحيان ضرورة بثّ الحماس في نفوس الناس وإشعال نار النخوة فيهم، سواء منه ما يدعو إلى نجدة ملهوف، أم إلى دفاع عن عقيدة وكرامة، أو إلى إغاثة مظلوم أو ما إلى ذلك مما تشرع فيه النجدة وتحبذ فيه النخوة.

ويتوقف إلهاب جذوة الحماس في نفوس الناس على مدى تأثير المحمِّس (بكسر الميم المشددة) وقوة فاعلية أسلوب التحميس ووسائل الإثارة التي يطرقها أو يستخدمها ومن بين تلك الوسائل والأساليب: أسلوب الخطابة وأعني بالخطابة: الخطابة التي تتضمن بعض العبارات الصارخة التي تدوي في أرجاء نفس المستمع. أما الشعر فهو الذي يهز النفوس بسحره بل يقعد الواقف، ويوقف القاعد بجلجلة ألفاظه وعبارته التي هي أشبه ما تكون بالصخور الضخمة التي تنهد من قمم الجبال.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه ليس كل خطيب يستطيع استنفار الناس كما أنه ليس كل شاعر يملك القدرة على استصراخ الناس وتهييجهم. ولا كل قصيدة تثير حماس الناس. وإنما هناك من يعرف كيف يوظف العبارة التي تكون في القصيدة أشبه بالرعد الذي يزمجر في السحاب المتراكم، فتجعل من الجبان شجاعاً يستجيب لدويها ويخف على سماع نغمتها.

ولا أذهب بعيداً للبحث عن مصدر أقتطف منه صورة من صور الحماس في الشعر وعدد مجلة «الرسالة الإسلامية» ١٠٤ شعبان سنة ١٤١٠هـ، بين يدي حيث يحمل بين طياته قصيدة حماسية للشاعر



الدكتور مصطفى الجوزو، فهي وإن لم تكن في الدرجة الأولى من قصائد الحماس إلّا أنَّ فيها ما يكفي للاستشهاد على نغمة الشعر الحماسي حيث استحثَّ الشاعر الجوزو العالم العربي والإسلامي على فعل شيء يردع اليهود ويحرر الأراضي المحتلة، منها قوله:

يحيا العبيد ويقتل الأحرار
فإلى متى تتمهل الأقدار؟

وإلى متى صوت الخيانة ناعب
أفلا يثور بصدرنا إعصار؟

وإلام يلتهم اللهيب جراحنا
وإلام يغلي في الصدور الثأر؟

أم قد غدونا كالرماد فلا لظى
إذ أخمدت بين الضلوع النار

ومنها قوله:

ما كان للوغد الجبان تحكم
في أمة أبناؤها أحرار

أين الأولى للّه باعوا نفوسهم
ودعاهم داعي الوغى الهدّار

وتهيؤوا للموت دون حياضهم
ليطهروا ما شانه الأشرار

ويحطموا صهيون يوم لقائهم
ويكلل الوطن السليب الغار

○ ○ ○ ○ ○

مجلس غناء وطرب

ذكر ابن عبد ربه في كتابه الشهير ـ العقد الفريد ـ أشياء كثيرة عن الغناء والطرب وأفاض في ذلك إفاضة شملت الكثير عما قيل في الغناء من أقوال مختلفة في ذم الغناء واستحسانه. وقد أولى ابن عبد ربه في ذلك بدلوه حيث قال: «وأعدل الوجوه في هذا أن يكون سبيله ـ ويعني بذلك الغناء ـ سبيل الشعر، فحسنه حسن وقبيحه قبيح». ومن الصور التي نقلها في هذا الموضوع ما ذكره عن ثلاثة مغنين هم: المسدود، وزنين، ودبيس. وحكايتهم أن أبي عكرمة كان في طريقه إلى المسجد ومعه قرطاس يريد أن يكتب ما يسمعه من العلماء فمر بباب أبي عيسى بن المتوكل، فإذا ببابه المسدود الذي يعد من أحذق المغنين في عصره فرغبه في الدخول على أبي عيس فرفض. ولما علم أبو عيسى بذلك بعث إليه غلمان له فجاؤوا به يحملونه حملاً. وذكر ابن عبد ربه كلاماً طويلاً تضمن وصف عكرمة لدار أبي عيسى والطعام والشراب الذي قدم للحاضرين إلى أن قال: وقد جلس المسدود، وزنين، ودبيس. ولم يكن في الزمان أحذق من هؤلاء الثلاثة بالغناء. ثم أخذ المسدود في الغناء وتبعه زنين، ودبيس فكلما غنّى غنًّيا من بعده بلحنه وقافيته.

وقد ذكر ابن عبد ربه أشعاراً كثيرة تغنوا بها لا يتسع المجال هنا لذكرها. وعلى الراغب في الاطلاع عليها النظر في الصفحات الأولى من الجزء السابع من «العقد الفريد». ووفقاً لخطة تأليف الأدب المثمن، أذكر من الأشعار التي تغنوا بها ما يلي: قال أبو عكرمة: ابتدأ المسدود فغنّى:

لما استقل بأرداف تجاذبه
واخضر فوق حجاب الدر شاربه

وتم في الحسن والتامت محاسنه
ومازحت بدعاً فيها غرائبه

وأشرق الورد في نسرين وجنته
واهتز أعلاه وارتجت حقائبه

كلمته بجفون غير ناطقة
فكان من ردّه ما قال حاجبه

ثم سكت فغنى زنين:

الحب حلو أمرّته عواقبه
وصاحب الحب صب القلب ذائبه

أستودع اللّه من بالطرف ودعني
يوم الفراق ودمع العين ساكبه

ثم سكت، فغنّى دبيس:

إن يوعد الوعد يوماً فهو مخلفه
أو ينطق القول يوماً فهو كاذبه

عاطيته كدم الأوداج صافية
فقام يشدو وقد مالت جوابنه

○○○○○

ابن الحنفية.. هو محمد بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه

وابن الحنفية هو أبو القاسم محمد بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه المعروف بابن الحنفية قال ابن خلكان في كتابه «وفيات الأعيان»: وأمه خولة بنت جعفر بن قيس بن سلمة بن ثعلبة بن يربوع بن ثعلبة بن الدول بن حنيفة بن لجيم. ويقال: بل كانت أمه من سبي اليمامة. وصارت إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه فاستولدها فولدت له محمد بن علي الذي يدعى محمد بن الحنفية. وقيل: بل كانت سندية سوداء، وكانت أمة لبني حنيفة ولم تكن منهم.

ولعلّي لا أقع في سوء فهم في ترجيح سبب تعريفه رحمه الله بابن الحنفية حينما أقول: إنما جاء ذلك حتى لا يقع المؤرخون، والإخباريون في خطأ عندما يترجمون له فيجعلونه أخاً من أم وأب للحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب من فاطمة الزهراء ابنة رسول الله ﷺ ورضي الله عن علي وفاطمة وابنيهما.

أما تكنية ابن الحنفية بأبي القاسم قال ابن خلكان: إنه يقال: إنها رخصة من رسول الله ﷺ، وأنه قال لعلي رضي الله عنه: «سيولد لك بعدي غلام وقد نحلته اسمي وكنيتي، ولا تحل لأحد من أمتي بعده». ولعل الرسول ﷺ أراد بذلك أن لا يكون محمد في منزلة اجتماعية أقل من منزلة أخويه الحسن والحسين. فإخباره عنه وتوصيته ﷺ بتسميته باسمه وتكنيته بكنيته شرف عظيم لمحمد بن علي رقى به إلى مستوى أخويه الحسن والحسين ابني فاطمة.

ولقد وقفت على أبيات للصحابي المجاهد أبو عمارة خزيمة بن ثابت بن عمارة بن الفاكه بن ثعلب الأنصاري يمتدح فيها ابن الحنفية، منها قوله:

محمد ما في عودك اليوم وصمة
ولا كنت في الحرب الضروس مُعَرَّدا

أبوك الذي لم يركب الخيل مثله
علي، وسماك النبيّ محمدا

فلو كان حقاً من أبيك خليفة
لكنت ولكن ذاك ما لا يرى بدا

وأنت بحول اللّه أطول غالب
لساناً، وأنداها بما ملكت يدا

وأقربها من كل خير تريده
قريش وأوفاها بما قال موعدا

وأطعنهم صدر الكمي برمحه
وأكساهم للهام عضباً مهندا

سوى أخويك السيدين كلاهما
إمام الورى، والداعيان إلى الهدى

أبى اللّه أن يعطي عدوك مقعداً
من الأرض أو في الأوج مرقى ومصعدا

○ ○ ○ ○ ○

الغناء في عصرنا

لم تزد رقعة العالم العربي عما كانت عليه في عهد الدولة العباسية أو ما بعدها، وما مرّ به العالم العربي من أحداث ومتغيرات شملت الكثير من شؤون الحياة الاجتماعية والعقيدية والثقافية والأدبية. وقد تغير بعض وجوه هذه الأشياء وحصل لبعضها مد وجزر والبعض الآخر ركود واستقرار. إلَّا الغناء فقد ظل ينمو في إطار متعدد الألوان، وذلك نتيجة لتعدد اللهجات التي فرضتها الانقسامات الحدودية وأحدثتها الألسن الأعجمية التي خالطت العرب، وتمركز أصحابها في وسط العالم العربي واندمج اندماجاً كان له تأثير على كثير من شؤون الحياة العربية ومنها الغناء.

وفي عصرنا هذا بلغ الغناء درجة لا يمكن وصفها من حيث التطور الذي حدث على آلة الطرب المصاحبة له والتي دخل في صنعها العامل التكنولوجي والاختراع الصناعي المتطور. أما من حيث عدد المغنين والمغنيات فقد فاق العد وقصر عنه الإحصاء. كما أنه لا يمكن حصر الألحان أو وصفها وتصنيفها غير أن لكل لحن مستمع ومتذوق. فلا تكاد تفتح المذياع إلّا وتسمع العجب العجاب مما يذاع من الأغاني.

وإذا كان أبو الفرج الأصفهاني وغيره ممن اهتم بتصنيف المغنين في عصره وما قبله وحاول تسليط الضوء بأسلوبه الجذاب على مشاهيرهم آنذاك فإن الأمر في عصرنا هذا يختلف اختلافاً كبيراً عن عصر الأصفهاني، ولذا فإن اتباع أثره في رصد المغنين ووصف ألحانهم يعد أمراً غير مستطاع للأسباب التي تقدم ذكرها، لكنه لا بأس من أن

أذكر واحداً تشير إليه كل كفٍّ بلا استثناء. فأم كلثوم مثلاً هي وإن كانت قد فارقت الحياة إلا أنها ما زالت متربعة بما خلفته من أغاني على عرش الغناء العربي إذ لم يستطع أحد أن يخلفها في ذلك فهي حتى الآن سيدة الغناء العربي. ولقد تغنت أم كلثوم المصرية بشتى الألحان ومختلف القصائد وألوان الشعر فصيحه وعاميه. ولعل أجمل ما تغنت به من الشعر الفصيح أبيات من قصيدة للشاعر أحمد شوقي وهي:

ولد الهدى فالكائنات ضياء
وفم الزمان تبسم وثناء

الروح والملأ الملائك حوله
للدين والدنيا به بشراء

والعرش يزهو والحظيرة تزدهي
والمنتهى والسدرةُ العصماء

وحديقة الفرقان ضاحكة الربى
بالترجمان شذيّة غناء

والوحي يقطر سلسلاً من سلسل
واللوح والقلم البديع رواء

والقصيدة طويلة جداً وكلها في مدح النبي ﷺ، ومنها قوله:

يوم يتيه على الزمان صباحه
ومساؤه (بمحمد) وضاء

بك يا بن عبد اللّه قامت سمحة
بالحق من ملل الهدى غراء

والدين يسر والخلافة بيعة
والأمر شورى والحقوق قضاء

ابن حطان يرتحل من عند ابن زنباع ويخلف قصيدةً

لقد ذكرت في موضوع سابق عنوانه: «عمران بن حطان أحد رؤوس التابعين للخوارج» أن عمران هذا كان من رؤوس الخوارج، وأنه قال شعراً مدح فيه عبد الرحمٰن بن ملجم المرادي قاتل علي كرم الله وجهه. وجاء في «خزانة الأدب» أنه لما بلغ شعره الذي مدح فيه ابن ملجم عبد الملك بن مروان نذر دمه ووضع عليه العيون، فكان ينتقل في القبائل، وكان إذا نزل حيًّا انتسب نسباً يقرب منه. وفيما هو على هذا الحال نزل عند روح بن زنباع الجذامي وانتمى إلى الأزد وكان روحٌ يقري الأضياف، وكان مسامراً لعبد الملك بن مروان أثيراً عنده، وكان روح لا يسمع شعراً نادراً ولا حديثاً غريباً عند عبد الملك فيسأل عنه عمران بن حطان إلا عرفه وزاد فيه. فذكر ذلك لعبد الملك فقال: إن لي جاراً من الأذكار ما أسمع من أمير المؤمنين خبراً ولا شعراً إلّا عرفه وزاد فيه. فقال عبد الملك: خبرني ببعض أخباره. فخبره وأنشده، فقال عبد الملك: إن اللغة عند نانيه، وإني لأحسبه عمران بن حطان. وتذاكروا ليلة قول عمران بن حطان:

يا ضربة من تقي ما أراد بها
إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

فلم يدر عبد الملك لمن هو. فرجع روح فسأل عمران بن حطان عنه، فقال عمران: هذا يقوله عمران بن حطان يمدح به عبد الرحمٰن بن ملجم قاتل علي بن أبي طالب رحمه الله. فرجع روح إلى عبد الملك

فأخبره. فقال عبد الملك: ضيفك عمران بن حطان. اذهب فجئني به، فرجع إليه فقال: إن أمير المؤمنين قد أحب أن يراك. فقال عمران: قد أردت أن أسألك هذا فاستحيت منك، فامض فإني بالأثر. فرجع روح إلى عبد الملك فخبّره. فقال عبد الملك: أما إنك سترجع فلا تجده. فرجع فوجد عمران قد احتمل وخلّف رقعة فيها:

يا روحُ كم من أخي مثوىً نزلت به
قد ظنَّ ظنك من لخمٍ وغسان

حتى إذا خفته فارقت منزله
من بعد ما قيل: عمران بن حطان

قد كنت جارك حولاً ما تروعني
فيه روائع من إنسٍ ومن جان

حتى أردت بي العظمى فأدركني
ما أدرك الناس من خوف ابن مروان

فاعذر أخاك ابن زنباع فإن له
في النائبات خطوباً ذات ألوان

يوماً يمانٍ إذا لاقيتُ ذا يمنٍ
وإن لقيتُ معدياً فعدنان

لو كنت مستغفراً يوماً لطاغية
كنت المقدَّم في سري وإعلاني

○○○○○

ابن حطان يخلف قصيدة في منزل زفر الكلابي

في موضوع تقدم تحت عنوان: «ابن حطان يرتحل من عند ابن زنباع ويخلف قصيدة» ذكرت حكاية عمران بن حطان الذي هدر دمه عبد الملك بن مروان بسبب قصيدة قالها في مدح عبد الرحمٰن بن ملجم قاتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه مع روح بن زنباع، وكيف كان رحيله من عند روح. ويستمر صاحب «خزانة الأدب» في متابعة أخبار عمران بن حطان فيقول: ولما ارتحل من عند روح بن زنباع نزل بزفر بن الحارث الكلابي، أحد بني عمرو بن كلاب وانتسب له أوزاعياً. وكان عمران بن حطان يطيل الصلاة. وكان غلمان من بني عامر يضحكون منه فأتاه رجل يوماً ممن رآه عند روح بن زنباع فسلم عليه. فدعاه زفر. فقال له: من هذا؟. فقال: من الأزد رأيته ظيفاً لروح بن زنباع. فقال له زفر: يا هذا: أزدياً مرة، وأوزاعياً مرة. إن كنت خائفاً أمنَّاك، وإن كنت فقيراً جبرناك. فلما أمسى عمران رحل وخلف في منزل زفر بن الحارث الكلابي رقعة فيها:

إن التي أصبحْت يعيابها زفر
أعيت عياءً على روح بن زنباع

ما زال يسألني حولاً لأخبره
والناس ما بين مخدوع وخداع

حتى إذا انقطعت عني وسائله
كف السؤال ولم يولع بأهلاع

فاكفف كما كف عني إنني رجل
إما صميم، وإما فقعة القاع



واكفف لسانك عن لومي ومسألتي

ماذا تريد إلى شيخ لأوزاع

أما الصلاة فإني لست تاركها

كل امرئ للذي يعني به ساعي

أكرم بروح بن زنباع وأسرته

قومٌ دعا أوّليهم للعلا داع

جاورتهم سنة فيما أسرُّ به

عرضي صحيحٌ ونومي غيرُ تهجاع

ثم ارتحل حتى أتى عُمان فوجدهم يعظموا أمر مرداس أبي بلال ويظهرونه، فأظهر أمره فيهم فبلغ ذلك الحجاج فكتب إلى عامل عُمان فيه. فهرب عمران حتى أتى قوماً من الأذر فلم يزل فيهم حتى مات. وفي نزوله قال قصيدة يمنعني من ذكرها شرطي لتأليف هذا الكتاب وعلى الذي يودُّ الاطلاع عليها مطالعة «خزانة الأدب» ٥/٣٥٩.

○○○○○

من ألوان الفكاهة

والفكاهة لها أوجه متعددة سواء كانت نثراً أم شعراً، ولها قيم مختلفة في ميزان الأدب العربي. ولا أريد أن أدخل في تفاصيل هذه القيم في هذا الموضوع لأنني سأتناولها في مواضيع لاحقة في هذا الجزء إن شاء الله تعالى. أما هنا فإنني ناقل صورة من منقول لأستاذ حسين حسن كمال في كتابه «الفكاهة والمجون في الوطن العربي»، حيث أشار إلى أنه ورد في ديوان «نزهة النفوس ومضحك العبوس»، الذي ألفه ابن سودون في العصر المملوكي. قال حسين في منقوله: وكان ابن سودون الذي عاش في القرن التاسع الهجري يعتمد في فكاهاته على المفارقة المنطقية. فهي المفتاح الذي ينصب منه نغم الهزل عنده. وكان يسلك إلى هذه المفارقة طريقة واضحة هي أن يقف بين يديك موقفاً جاداً يريد أن يروي لك بعض العجائب ولكنه لا يبدأ في ذكرها. حتى تحس تهاوناً ونبواً وشذوذاً عن منطق الحوادث. وبذلك يسترسل في الضحك، لا لسبب إلّا لأنك تشعر كأنك فقدت توازنك، فقد كنت على استعداد لكي تستمع إلى أشياء غريبة، فإذا بك تستمع إلى بدهيات مسرفة في البداهة. ومن هنا يأتي الضحك؛ لأن الحقائق تصعد أمامنا وتهوي، وكأنها تهوي من أمكنة عالية.

هي أمكنة المنطق والعقل الواعي فتضطرب معها، ولا تلبث أن تضحك في غير نظم بل في فوضى كفوضى الكلام الذي نسمعه، وأقرأ هذا الشعر:

عجب عجب هذا عجب
بقرٌ تمشي ولها ذنب
ولها في بزبزها لبن
يبدو للناس إذا حلبوا
من أعجب ما في مصر يُرى ال
كرمُ يُرى فيه العنب
والنخل يرى فيه بلح
أيضاً ويرى فيه رطب
(أوسيم) بها البرسيم كذا
في الجيزة قد زرع القصب
والمركب مع ما قد وسقت
في البحر بحبل تنسحب
والناقة لا منقار لها
والوزة ليس لها قتب
لا بُدّ لهذا من سبب
حزّر. فزّر. ماذا السبب

○○○○○

وللفكاهة في السياسة موضع!!

وإذا ما نظرنا إلى الفكاهة في مجال الشعر وجدنا أنه يكاد يكون لها شعراء متخصصون حيث يوجد لها سوق ورواج في مجالس الأدب وحفلات السمر. وإذا ما فتشنا في الشعر الفكاهي وجدنا فيه الكثير الذي صنع لخدمة أغراض وتحقيق مآرب، ولهذا يستطيع المتتبع له أن يميّز طبقاته، إذ أن فيه ما يرقى إلى درجة الأدب الرفيع، وفيه ما هو مناسب يأتي وليد الحاجة. ومنه ما هو سافل تلفظه مجالس الأدباء وتأبى الاستماع إليه، وفيه ما هو ساقط القول ونابي الكلمات. وهذا النوع الأخير ربما كان له عشاق من سفلة السوقة وحثالات القوم، والشعراء الذين يجيدون قول الشعر الفكاهي يستخدمونه في بعض الأحيان كلون من ألوان السخرية، أو رافداً من روافد الهجاء أحياناً أخرى. فهم يصرفونه كيفما شاؤوا ووفقاً للظروف والحالات التي تدعو إلى صنعه وإنشائه. من ذلك ما ذكره حسين حسن كمال في كتابه «الفكاهة والمجون في الوطن العربي» مما قيل في أحد الباشوات الذين كانوا يتواطنون مع إدارات الانتداب الاستعماري لبعض البلاد العربية. وقد اشتملت على تساؤلات هي على بساطتها صعبة في معناها. ولهذا نجد أن في الإجابة عليها ضحكة صفراء تنم عن الإحساس بالاضطهاد الذي كانت تعاني منه تلك الشعوب التي وقعت تحت الانتداب:

رأيت بجانب الأردنّ شيخاً

عريض الذقن ينتفش انتفاشا





فقلت له وقد مُلئتْ شقاءً
أمستك الشقاوةُ. قال: حاشا

فقلت: أما ترى الأجناد فرّت
وقد حرمت من الرزق المعاشا

ألست ترى الإدارة كيف باتت
مقلقلة كأن بها ارتعاشا

ألست ترى المذلة كيف أمست
بوجه القوم تنتفش انتفاشا

ألم تعلم بأن الأمر فوضى
وأن الشر بين ذويك جاشا

ألم تبصر لحاف الحُرّ أضحى
يباع هنا وقد باع الفراشا؟

فقال: نعم أرى هذا، ولكن
ألم يبلغك أني صرتُ باشا؟!!

○○○○○

العكوك: اسمه علي بن جبلة

والعكوك: هو الشاعر العباسي: علي بن جبلة. قيل: إنّه عربي بالولاء وأنه ربما كان أصله سندياً حبشياً. وكان يكنّى بأبي الحسن. وكل ما يُعرف عن العكوك أنه ولد لأبيه بحيّ الحربية في الجانب الغربي من بغداد سنة مائة وستين للهجرة.

أما سبب تلقيبه بالعكوك ـ ومعناه: القصير السمين ـ فقد روي أن الأصمعي هو الذي لقبه به حين رأى هارون الرشيد متقبلاً له معجباً به، وهو ينشده بعض مدائحه الجيدة. وقيل: إنه من شيعة العباسيين الخراسانيين. وقد روي أنه نظم مدحة في المأمون، غير أنه لم ينشدها بين يديه وإنما سأل حميداً الطوسي ممدوحه وصديقه وأحد قواد المأمون أن يوصلها إليه، أي إلى المأمون. فاستجاب له حميد وأدخلها على المأمون فأظهر المأمون سخطه وبرمه به؛ لأنه كان نوّه بأبي دلف العجلي وبحميد الطوسي تنويهاً طارت شهرته في الآفاق، على حين تأخر عن مدحه والإشادة به.

ولما رأى أن أمر مدح الخلفاء غير ذي جدوى بالنسبة له، اتجه نحو مدح الوزراء والقادة، وقد نجح في ذلك خاصة في مديحه لحميد، وأبي دلف. فقد قيل: إن حميداً الطوسي أعطاه على مدحته مائة ألف درهم وأن أبا دلف العجلي أعطاه أربعمائة ألف درهم.

ويكاد يجمع القدامى على أن العكوك توفي سنة ثلاث عشرة ومائتين ولكنهم يختلفون في سبب وفاته. فمنهم من يذهب إلى أنه مات حتف أنفه. ومنهم من يقول: إن المأمون هو الذي قتله لأنه رآه يبالغ

في مدح أبي دلف القاسم بن عيسى العجلي، وحميد بن عبد الحميد الطوسي ويخلع عليهما صفات الله. وإن صح أن المأمون هو الذي قتله، فلعل المأمون اتخذ لأسباب قتله ما مدح به أبا دلف العجلي من مديح بالغ فيه مبالغة خرجت به إلى الكفر. وذلك بقوله:

خَلّفْتَني نِضو أحزان أُعالجها
بالجزع أندب في إنضاء أطلال

لولا أبو دلف لم تحي عارفة
ولم يَنوءْ نَوْءَ مأمول بآمال

يا ابن الأكارم من عدنان قد عُلِموا
وتالد المجد بين العم والخال

أنت الذي تُنزِل الأيام منزلها
وتنقل الدهر من حال إلى حال

وما مددتَ مدى طرف إلى أحد
إلا قضيتَ بأرزاق وآجال

تزور سُخطاً فتمسي البيض راضية
وتستهل فتبكي أعين المال

كأن خيلك في أثناء غمرتها
أرْسَال قَطْر تهامى فوق أرسال

يخرجن من غمرات الموت سامية
نشر الأنامل من ذي القرّة الصالي

ooooo

الحَيْصَ بَيْصَ. لا ينشد شعره إلّا وهو جالس

والذي يتتبع مصادر الشعر ويبحث في ذاتيته يجد أن أكثر الشعر المتسم بالجزالة والقوة في الهجاء، والرثاء، والوصف، والغزل. صادر من شعراء تميميين. بل إن القارئ النابه المتذوق يستطيع إذا ما قرأ قصيدة مجهولة الهوية أن يعرف أهي لشاعر تميمي أم لغيره من الشعراء، لأن شعر شعراء تميم يأتي متميزاً بأسلوبه ولغته وقوة عبارته وشموخ لهجته وواقعية وصفه.

ومن شك في ذلك فعليه أن يستعرض شعر قطري بن الفجاءة وذي الرمة وجرير والفرزدق وغيرهم من شعراء تميم، ثم يقارن به شعر غيرهم وسيدرك الفرق الشاسع في سمو المعنى ووضوح الصورة، وقوة البناء، وحسن السبك وانقياد العبارة مع لطافة التتابع.

ومواكبة استعلائهم في الشعر على غيرهم لاستعلاء نسبهم جعلهم يتميزون في المحافل والمنتديات بأشياء معنوية يفضلون بها الشعر في عزة النفس، وهي: تفضيلهم لأماكن الصدارة ومحاريب المجالس وطريقة الإنشاد. فهذا الفرزدق مثلاً لا ينشد الشعر إلّا وهو جالس جلسة من إليه أسند شعره. وكذلك الأمير شهاب الدين أبو الفوارس سعد بن محمد بن سعد بن الصيفي التميمي البغدادي المعروف بـ«حَيْصَ بَيْصَ» المتوفى سنة ٥٧٤هـ. اقتدى بالفرزدق فلا ينشد إلّا وهو على كرسي من ذهب أو فضة، وإن تعذر وجود ذلك فلا بد من كرسي خشبي.

قال أحد نقاد شعره: من يلقِ نظرة على شعر أبي الفوارس تروعه منه تلك المتانةُ، وشدة الأسر التي اصطنعها الشاعر في صوغ شعر،

فتظن وأنت تقرأه أنك تقرأ لشاعر جاهلي أو أموي فالصياغة ذات الصياغة واللفظ هو ذلك اللفظ والصورة الشعرية هي نفسها في ذينك العهدين. ومن حماسته قوله في إحدى قصائده التي مدح بها السلطان طغرل بن محمد بن ملكشاه:

أأهجع أم آوي إلى لين مرقدٍ
ولم يرو في كفي غرار مهندي

إذن فمقامي في تميم بن خندف
مقام أخي عُرٍ بقفرٍ مُعقّد

سل الهول عني هل نبت بي عزيمةٌ
وخُمس الجلاد هل جبنتُ بمشهدِ

نماني صيفيٌّ وسفيان والذي
أباح دماً يوم الكلاب ولم يدِ

ملوك إذا عد الفخار تساندوا
إلى حسب بالمكرمات موطدِ

غنيون بالبأس الجريء على القنا
وبالحمد عن نعمى لُجين وعسجد

إذا خمدت نيران قرٌّ مراوح
بأهداب رجّاف العشية مرعد

رأيت ضيوف الدارميين هجّعاً
لدى خير مثوى من رجال وموقد

○ ○ ○ ○ ○

البطن أثلاث!!

من الناس من لا يستطيع دفع نفسه وردعها عن الإفراط في الأكل. فهو يأكل بشهية حيوانية لا يقدر على منعها من الطعام، ولا ينتهي إلى كفاية تجنبه البطنة وتقيه من مخاطر الشره. وإنما هو يطلق يده في الالتقام حتى تفيض معدته ويتعذر عليه الابتلاع، عند ذلك تراه يكف يده ثم يقوم حاملاً بطناً أشبه ما يكون بامرأة في الشهر التاسع من حملها.

وأجدها مناسبة لأُذكّرَ كل أكول شرهٍ بحديث شريف رواه الترمذي في «الجامع الصحيح» جاء فيه أن النبي ﷺ قال: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه وثلث لشرابه، وثلث لنفسه».

ولأعرض له وصية لقمان لابنه التي جاء فيها قوله: يا بني إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة.

والكلام عن مضار البطنة التي يكون سببها الشراهة في الأكل كثير جداً. من ذلك قول أحد الحكماء: من كثر أكله كثر شربه، ومن كثر شربه كثر نومه، ومن كثر نومه كثر لحمه، ومن كثر لحمه قسا قلبه، ومن قسا قلبه غرق في الآثام. أما الشعراء فلهم مساهمات ليست قليلة في تصوير الرجل الأكول. ولهم رأي في توجيهه ونصحه. ومن أولئك الشعراء الشاعر العراقي «معروف الرصافي» الذي قال قصيدة قوامها أربعة وعشرين بيتاً، وعنوانها «الخوان»، منها قوله:



أكب على الخوان وكان خفّاً
فلما قام أثقله القيام
ووالى بينها لقماً ضخاماً
فما مرئت له اللقم الضخام
وعاجل بلعهنّ بغير مضغ
فهن بفيه وضع فالتهام
فضاقت بطنه شبعاً وشالت
إلى أن كاد ينقطع الحزام

ثم يخاطب ذلك الأكول بقوله:

أتزدرد الطعام بغير مضغ
على أيام صحتك السلام
فلا تأكل طعامك بازدراد
معالجة فيأكلك الطعام

ثم يحذر من الجشع في الأكل وماله من عواقب سيئة:

حَذَارِ حَذَارِ من جشع فإني
رأيت الناس أجشعها اللئام
وأغنى العالمين فتى أكول
لفطنته ببطنته انهزام

○ ○ ○ ○ ○

عمر يعاقب عمرو بن مالك

على هجائه تميم بن مقبل

كان قيس بن عمرو بن مالك يكنى أبا الحارث وأبا محاسن. يقال له: النجاشي. لأنه كان يشبه لون الحبشة. وهو واحد من شعراء علي بن أبي طالب رضي الله عنه. يحكى أنه هجا تميم بن مقبل فاستعدى عليه عمر بن الخطاب، وقال: يا أمير المؤمنين هجاني فأعدني عليه «أي انصرني عليه وانتقم لي منه». قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا نجاشي ما قلت؟ قال: يا أمير المؤمنين قلت ما لا أرى علي فيه إثماً. وأنشد:

إذا اللّه جازى أهل لؤم بذمة
فجازى بني العجلان رهط ابن مقبل

قبيلة لا يغدرون بذمة
ولا يظلمون الناس حبة خردل

فقال عمر: ليتني من هؤلاء. فقال:

ولا يردون الماء إلّا عشية
إذا صدر الوراد عن كل منهل

فقال عمر: ما على هؤلاء متى وردوا. فقال:

وما سمي العجلان إلّا لقوله:
خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

فقال عمر: خير القوم أنفعهم لأهله. فقال تميم: فسله عن قوله:





أولئك أولاد الهجين وأسرة اللئـ

ـيم ورهط العاجز المتذلل

فقال عمر: أما هذا فلا أعذرك عليه، فحبسه وضربه.

والنجاشي هذا: هو الذي خاطب ذئباً كاد يقتله الظمأ وقد صور هذه الحادثة في قصيدة كلها تقاولات بينه وبين الذئب منها أن الذئب الظامئ قال له: دع لي فضلة ماء في الحوض فأنا لا أستطيع الوصول إلى قاع البئر فأشرب. وذلك بقوله شعراً:

فلستُ بآتيه ولا أستطيعه

ولاك أسقني إن كان ماؤك ذا فضل

فكان جواب عمرو، أو النجاشي كما يقال له:

فقلت عليك الحوض إني تركته

وفي صفوة فضل القلوص من السجل

فطرِّب يستعوي ذئاباً كثيرة

وعدت وكل من هواه على شغل

○ ○ ○ ○ ○

أم كلثوم على ألسنة الشعراء

لعبت أم كلثوم دوراً كبيراً في ميدان الغناء العربي حيث شنفت بغنائها آذان مئات الآلاف من الناس. ورقصت لسماع صوتها العذب الجميل مئات الآلاف من الشعوب العربية وغير العربية.

ولقد كان لأم كلثوم دور قيادي في عالم الغناء حيث ارتفعت بالأغنية العربية إلى مكان اتجهت صوبه أنظار المهتمين بالأغنية الراقية.

والذين يملكون حساً مرهفاً تجرّهم الإيقاعات الموسيقية إلى ميدان الأغنية بخيط موصول باللحن الجميل الذي ينساب من كل حنجرة متناغمة مع صوت الآلة وتوزيع اللحن.

وحنجرة أم كلثوم تكاد تكون المتفردة بالإبداع في الانسجام مع التلحين والإيقاع وتوزيع الأغنية إلى مقاطع ذات إيقاعات مختلفة التلحين والنغم، والصوت والتكيف مع اللحن والإبداع في الأداء، والإحساس بالمعنى. كل هذه الأشياء وغيرها امتلكتها أم كلثوم، وبها تربعت على عرش الغناء في العالم العربي بلا منازع. وهذا الواقع لأم كلثوم جعل الشعراء يتسابقون في إطرائها والإشادة بتغنيها. فمن الشعراء الذين أظهروا إعجابهم بها الشاعر عزيز أباظة حيث ألقى قصيدة في حفل أقيم لها. من تلك القصيدة قوله:

قالوا نكرّمها والهاء معرفة
فقلت من غيرها أولى بتكريم

تعطيك من دمعها لحن الخلود فما
داود أحرى وإن أوفى بتقديم



تنهل كالراح إن قرّتْ وإن رفعت
فالناس ما بين مشدوه ومنهوم

ومنها قوله:

ما أنت إلا الذي شفّتْ سلافته
في بسمة الصبح أفواه البراعيم

ومنها قوله:

سمراء من قرية من كان يعرفها
في أي ناحية أو أي إقليم

مشبوبة كشعاع الخمر رفّ على
ثغر تألق فيه الدرّ ملثوم

هزّت ربى الشرق هزاً فاستدار لها
وقال: من تلك؟ في فخر وتعظيم

تلك التي ازدانت الدنيا بها فغدت
غنيةً باسمها عن كل تقديم

○○○○○

الصحافة أنجح وسائل التثقيف!!

والصحافة المقروءة بوجه عام تعدّ من أكبر، وأعظم وأنجح وسائل تثقيف الناس في عصرنا الحاضر، وقد يختلف اثنان على وسيلة الإعلام المرئية وهي (التلفزيون) والذي عربوه فقالوا: المرناة، والمسموعة (الراديو) والذي عربوه فقالوا: (المذياع). وقال آخرون: الراد، على أنهما الآن أجدر بتثقيف الناس. لكن هذا الخلاف يحسمه واقع كل من تلك الوسائل. وواقع الصحافة يثبت بلا شك أنها هي الأداة الرئيسة لتثقيف الناس، وهي صاحبة الصوت المرتفع وهي الجليس المستمر الذي لا تؤثر عليه الأسباب الفنية وليس له محدودية في البرمجة ولا فترات زمنية معيّنة. ولهذا فإن الصحف بأنواعها المختلفة تعد وسيلة مساندة للكتاب، بل هي صنوه ومن أهم المميزات التي تمتاز بها على وسائل الإعلام التثقيفية الأخرى أنها أيسر في اصطحابها في السفر والإقامة، فهي ليست بحاجة إلى وسيلة ولا إلى طاقة تشغلها ولا يخشى عليها من العطل. وهي ـ وأعني بذلك الصحافة طبعاً ـ بالإضافة إلى تلك المميزات حيوية وذات عراقة وكرم عطاء. ولهذا فهي ما زالت تحتفظ بلقب «صاحبة الجلالة» وستظل لأن جميع المؤثرات التي حاولت التقليل من قيمتها صَغُرَتْ أمامها، وكيف لا تصغر وتتضاءل وهي محسوس يفوت بإغضاءة عين أو إقفال أذن يقف أمام ملموس تحت اليد ورهن الإشارة، وطوع البنان.

والصحافة منذ خروجها وانتشارها وهي تحظى بالإشادات والتمجيد الواسع من فئات كثيرة من أصحاب الفكر والأدب. وقد ترجم واقعها كثير من الشعراء في قصائدهم وأفاضوا في امتداحها وبما هي أهل له.

وللشاعر صالح جودت قصيدة تبلغ ثمانية عشر بيتاً تضمنها ديوان «أغنيات على النيل» وقد جعل عنوانها: «الصحافة» وقال: إنه ألقاها في حفل أقامته نقابة الصحافيين بالقاهرة في أول يوليه سنة ١٩٦٠م، منها قوله:

مليكتنا الحلوة المسعده
مآثرها تملك الأفئده

تقوم مع الفجر كالبشريات
تحيي الحمى والذي وحده

وتهدي القلوب وتغذو العقول
وتصدّح داعية منشده

وتروي التواريخ والحادثات
وتصرخ منذرة مرشده

وتحسن للمحسنين الكرام
وتوفي لهم أكرم الأرصده

وإن غضبت لحقوق الشعوب
تجلجل مرغية مزبده

وتدعو الأنام لظل السلام
وتمحو الحفيظة والموجده

ومنها قوله:

وتثبت في حلبات الصراع
ثبوت الكتاب ومن أوجده

○ ○ ○ ○ ○

ابن الدهان.. هو عبد الله بن أسعد

وابن الدهان: هو أبو الفرج مهذب الدين عبد الله بن أسعد بن علي بن عيسى بن علي الموصلي الحمصي الفقيه النحوي. هكذا نعته المهتمون بالتراجم وكتابة السير. ولُقّب بابن الدهان لأن والده كان يبيع الدهان. وليس هو وحده الذي لقّب بهذا اللقب فهناك الكثير ممن اشتهر بهذا اللقب وقد حرص الأستاذ عبد الله الجبوري، محقق ديوان ابن الدهان على إحصاء من لقب بابن الدهان من العلماء والشعراء فحصل على ثمانية كلهم قد لقب بابن الدهان عدا صاحبنا عبد الله بن أسعد وهم: أبو صالح بن درسم الدهان ولد في بغداد سنة ٣٤٦هـ، وتوفي سنة ٣٩٩هـ. وأبو أحمد بن محمد حسن بن محمد بن علي بن رجاء المعروف بابن الدهان، توفي سنة ٤٤٧هـ. وأبو محمد تاج الدين سعيد بن المبارك بن علي بن عبد الله بن سعيد بن محمد بن نصر بن عاصم الأنصاري المعروف بابن الدهان ولد سنة ٤٩٤هـ وتوفي سنة ٥٦٩هـ، وأبو شجاع فخر الدين بن محمد بن علي بن شعيب البغدادي المعروف بابن الدهان توفي سنة ٥٩٠هـ. وأبو بكر المبارك بن المبارك بن سعيد الضرير الواسطي المعروف بابن الدهان ولد سنة ٥٣٢هـ، وتوفي سنة ٦١٢هـ. وعز الدين يحيى بن تاج الدين سعيد بن المبارك ـ المذكور آنفاً ـ توفي سنة ٦١٣هـ. ومحمد بن علي بن عمر شمس الدين الدهان توفي سنة ٧١٢هـ. أما ابن الدهان عبد الله بن أسعد فقد ذكر أنه توفي سنة ٥٢١هـ. وقيل: إنه عاش ما يقارب ستين سنة وأنه ولد في الموصل. وهناك من يذكر أنه توفي في شعبان سنة ٥٨١هـ في حمص وللعلماء والمؤرخين آراء في ابن الدهان منها ما قاله جمال الدين

الأسنوي حيث قال: وكان ابن الدهان فقيهاً فاضلاً أديباً نحوياً شاعراً عالماً بفنون كثيرة لكن غلب عليه الشعر.

وابن الدهان من الشعراء الذين يفتتحون قصائدهم بالغزل جرياً على نمط الشعراء القدامى. من ذلك قصيدته التي امتدح بها الملك الناصر صلاح الدين يوسف والتي ضمنها هذه الأبيات الغزلية العذبة:

أما وجفونك المرضى الصحاح
وسكرة مقلتيك وأنت صاحِ

وما في فيك من برد وشهد
وفي خديك من وردٍ وراح

لقد أصبحت في العشاق فرداً
كما أصبحت فرداً في الملاح

فما أسلو هواك لنهي ناهٍ
ولا أهوى هواك للحي لاح

أما للائمي عليك شغل
فيشتغلوا بعشاق القباح

فيا سقمي بذي طرف سقيم
ويا قلقي من القلق الوشاح

يهز الغصن فوق نقي ويرنو
بحدّ ظُبىً ويبسم عن أقاح

مليح الدل معشوق المزاح
وحلو اللفظ معسول المزاح

○○○○○



المناسبة والخاطرة!!

وقل أن تمر مناسبة معتادة المرور أو غير معتادة إلّا ويغتنم مرورها أصحاب الأقلام فيسجلون ما يجول بخواطرهم مما يبقى ذكرى لمرورها، ويمتحدون ما تخلفه من أثر في نفوس المتعطشين لحلول المناسبات السعيدة. ولعل أكثر ما يبقى عالقاً في الأذهان وباقياً على الألسن من خواطر الذكرى هو قول بعض الشعراء، أقول بعض الشعراء. وأعني بذلك الشعراء الذين يعطون تلك المناسبة حقها من الذكرى بأسلوب جيد يستساغ استساغة تفرض على القارئ حفظه عن ظهر قلب.

وما أكثر المناسبات الجديرة بوقف الكاتب والشاعر أمامها ليرسم صورتها ويمعن في تشخيص الفائدة العائدة من تكرارها.

وإذا ما أخذنا الأعياد مثالاً لتلك المناسبات التي تتكرر في كل سنة مرة واحدة وجدنا الشعراء لا يتركون عيد أي سنة يمر دون أن يسجلوا مشاعرهم بحلوله ويُذكرون الناس بالحياة التي لها ارتباط بمعناه ومظهره وفوائده وقيمته وتأثيره وأثره.

والشاعر السعودي المعاصر معيض البخيتان واحد من الشعراء الذين يغتنمون مرور تلك المناسبات ليتخذوا منها سبباً لبثّ مشاعرهم المعبرة عن السعادة والفرحة والابتهاج.

وإذا كان عيد الفطر الذي هو يوم توزيع الجوائز على من أحسن صيام شهر رمضان وقيامه، فإن الشاعر يجد في الحديث عن منافع رمضان للصائم متعة. وفي التحدث عن فضائله وختمه بعيد الفطر منطلقاً



يذهب منه إلى آفاق تذكيرية وإرشادية وابتهالات ودعوات وحث على المؤاخاة ونبذ الخلافات.

وقد قال الشاعر معيض في أحد أعياد الفطر أبياتاً فيها ابتهال وتمجيد وتسبيح لله، وفيها تذكير بما سيجده الصائم عند الله لقاء صيامه. يقول منها:

في مثل هذا اليوم تدنو السما
ويمطر الخير ويزكو النما

وتنهد الأرواح رفافة
نورية الترتيل خضر الدما

تطوف بالإيمان في نشوة
مثل العصافير وقطر همى

سبحان من زان الوجود ومن
ميّز بالتوحيد هذا الحمى

وخلص الإنسان من ضعفه
وترهات الجهل حتى سما

ما أجمل العيد وأحلى الندى
على الشفاه لخضر قد نمنما

الصائمون البيض قد أيقنوا
أن البياض الحر ما علّما

وأن درب الحق غير الهوى
وحكمة الأبصار غير العمى

○ ○ ○ ○ ○

عمران بن حطان يجيد ما لا يجيده الشعراء

لقد تقدم التعريف بعمران بن حطان ومذهبه في موضوع سابق تحت عنوان «عمران بن حطان أحد رؤوس التابعين للخوارج».

أما عن شاعريته فقد قيل: إنه ليس كالشعراء؛ لأنه يجيد ما يجيدونه ولا يجيدون ما يجيدهُ. وفي «خزانة الأدب»: إن المرزباني قال: كان عمران من أشعر الناس لأنه لو أراد أن يقول مثلنا لقال، ولسنا نقدر أن نقول مثله. وقد روي أن أبا زيد أورد في «النوادر» قصيدة طويلة لعمران بن حطان نقل منها صاحب «خزانة الأدب» ثمانية أبيات كلها تحكي وصفاً واقعياً للدنيا وحال أهلها.

وقد ذكر أن سيبويه استشهد على أن (هاتا) اسم إشارة للمؤنث بمعنى «هذه» بالبيت الأول من تلك الأبيات. كما أشير إلى أن كلمة (المهاه) بهاءين وفتح الميم، التي اشتمل عليها البيت الأول أيضاً تعني: الصفاء والرقة، أما بقية الأبيات فكلها مشحونة بالتزهيد في أمر الدنيا، والقناعة بما يتيسر منها إذ أنها ليست بدائمة. وقد وصفها بالطريق الذي يسلكه المسافر حيث ينتهي به السفر إلى دار المقر. يقول:

وليس لعيشنا هذا مهاهٌ
وليست دارنا هاتا بدار

وإن قلنا لعلّ بها قراراً
فما فيها لحيّ من قرار

لنا إلّا ليالي هيِّناتٍ
وبُلْغتنا بأيامٍ قصار

أرانا لا نملُّ العيش فيها
وأُولِغْنا بحرص وانتظار

ولا تبقى ولا نبقى عليها
ولا في الأمر نأخذ بالخيار

ولكنا الغداة بنو سبيل
على شرف ييسَّرُ لانحدار

كركب نازلين على طريق
حثيثٍ رائح منهم وساري

وغادٍ إثرهم طرَباً إليهم
حثيث السير مُؤتَنَفَ النهار

○○○○○

حوار شعري فوري بين ابن المؤيد، والأزدي

قال علي بن ظافر الأزدي في كتابه «بدائع البدائه»: كنت في بعض العشايا بالقرافة أنا والقاضي الأعز بن المؤيد رحمه الله في منزل قد انعطفت قدود أشجاره. وابتسمت ثغور أزهاره، وذاب كافور مائه على عنبر طينه. ومدت بكاسات الجلنار بنان غصونه. والنسيم قد خفتَ فاعتل، وسقط رداؤه في الماء فابتل، ووهت قواه فضعُف عن السير واشتدّ مرضه حتى ناحت عليه نوائح الطير. فاقترح علينا أصحاب لنا كانوا معنا أن نضع في صفة تلك العشية على هذه القافية. فقال الأعز:

جاء النسيم إلى الغصون رسولاً
ومشى يجرّ على الرياض ذيولا

فقلت:

نشوان يعثر في الخمائل عابثاً
بالزهر مبلول الرداء عليلا

فقال:

فتمايلت قاماتها فكأنما
شربت بكاسات الشمال شمولا

فقلت:

فكأنه قد هزّ رايات له
خضراً وسلّ من المياه نصولا



فقال:

قد أطلعت من زهرها غرراً ومن
جاري المياه يسوقها تحجيلا

فقلت:

تحكي العرائس في القلائد للثرى
لبستْ خلاخل فضة وحجولا

فقال:

ضحكت مباسم زهرها ولطالما
بُكِيَتْ بدمع الهاطلات طويلا

فقلت:

وبدا عليها الجلنار كأنه
وجنات خود سُمتها التقبيلا

ولهذه المحاورة بقية هي في المرجع الذي أشرت إليه آنفاً.

○ ○ ○ ○ ○

ورع الشاعر حَيْصَ بَيْصَ

لقد جاء في مقدمة ديوان الشاعر شهاب الدين أبي الفوارس سعد بن محمد بن سعد بن الصيفي التميمي البغدادي المعروف بـ(حَيْصَ بَيْصَ)، والذي حققه كل من الأستاذين مكي السيد هاشم، وشاكر هادي شكر: أن حيص بيص كان قد ألمّ بكثير من المعارف والعلوم وتفقه في مذهب الإمام الشافعي. إلّا أن مهنة الأدب والشعر غلبت عليه فأصبح شاعراً لا يشق له غبار. وطبيعي أن يكون لمعظم الشعراء إن لم يكن جميعهم مواقف يكون لألسنتهم فيها فلتات فإن لم يكن هو البادي يكن منه الرد الذي يشتمل على فلتات اللسان.

وحيص بيص قيل عنه: إنه عندما دوَّن ديوان شعره استبعد منها جميع ما كان فيه فلتات لسان وسبق خاطر في تناول من قد أحرجوه وابتدؤه بالأذى فلم يسعه إلّا أن يجيبهم بمثله. ولم يكتف باستبعاد كل ما استهجنه من شعره، بل أوصى كل من رواه أن لا يروّيه أحداً فقال ما نصه: (وأنا أنشد الله رجلاً سمع مني كلمة تتضمن انتهاك عرض إلّا جعلها تحت قدمه، ودبر أذنه. فأنا مطالبه بذلك في جمع القيامة، مطالبة المظلوم بمال أو دم. فلا يحمله استحسان لفظ أو معنى على خسارة العقبى فاللذات ذاهبة والتبعات باقية، وإلى الله تصير الأمور).

ومما يدل على أن الشعراء يبادئونه بالأذى ما روي من أن هبة الله بن الفضل المعروف بابن القطان المتوفى سنة ٥٥٨هـ عمل فيه الأبيات التالية:

كـم تـبـادي وكـم تُـطـولُ طـرطـو

رك مـا فـيـك شـعـرة مـن تـمـيـم



فكل الضب وأقرض الحنظل اليا
بس واشرب ما شئت بول الظليم

ليس ذا وجه من يجير ولا يقـ
ـري ولا يدفع الأذى عن حريم

وقيل: إن قائلها هو الرئيس علي بن الأعرابي الموصلي المتوفى سنة ٥٤٧هـ.

فأجابه بقوله:

لا تَضَعْ من عظيم قدرٍ وإن كنـ
ـت مشاراً إليه بالتعظيم

فالشريف الكريم ينقص قدراً
بالتعدي على الشريف الكريم

ولعُ الخمرِ بالعقول رمى الخمْـ
ـر بتنجيسها وبالتحريم

وحيص بيص شديد على تقييد لسانه ما أمكنه ذلك، كيف لا وهذا الشاعر خطيب الحويز المعروف بالبحيري يحاول إثارته بنفي انتسابه إلى تميم وذلك في قوله:

لست وربك حَيْصَ بَيْـ
ـصَ من الأعارب في الصميم

ولقد كذبت على بحيـ
ـر كما كذبت على تميم

فلزم حيص بيص الصمت خوفاً من أن يجتره ذلك إلى تساب وتشاتم يربأ بنفسه عنه.

أيهما أبلغ رثاءاً الرجال أم النساء؟!!

وشعر الرثاء ربما يكون هو القاسم المشترك بين الشعراء من الجنسين فقلما عاش شاعر أو شاعرة ولم يرث أي منهما أباً أو أماً أو زوجاً أو أخاً أو صديقاً أو قريباً مات وتأثر لموته إلّا ما قلّ من الشعراء.

وطالما أن الرثاء قد اشترك في قوله الرجال والنساء، فلا بأس من إلقاء نظرة على قصائد الرثاء لنحاول من خلالها إيجاد مقارنة بين ما قالته النساء الشاعرات بصفة عامة أو ما كان خاصاً بأزواجهن وأولادهن وإخوانهن، وبين ما قاله الشعراء من الرجال.

والحقيقة أن الممعن النظر في شعر النساء الرثائي يجد صورة تفوق في تأثيرها المتعمق في اغتراف الحزن من باطن النفس الصورة التي يرسمها الرجال في مراثيهم.

ولعل السر في ذلك يرجع إلى أن النساء أقدر وأجدر وأمهر في سكب الأحزان في العبارات المبكية. والعلة في تفوق النساء في رسم الصورة المؤثرة في قصائد الرثاء وإن لم يكن لهن مطولات يعود إلى عوامل نفسية وإحساسات هي عند المرأة أرهف منها عند الرجل وعواطف لا يمتلك الرجل رقتها. ومن تلك الصور أن الشاعرة الفارعة بنت طريف بن الصلت الشيباني التي حذت حذو الخنساء في الرثاء، وذلك حينما قتل مزيد بن زائدة الشيباني أخاها الوليد سنة ١٧٩هـ بأمر من هارون الرشيد حيث خلع الوليد ربقة الطاعة من خلافة هارون الرشيد. ويروى أن الفارعة لبست عدة حربها لما علمت بقتل أخيها



وحملت على جيش يزيد. لكن يزيداً خرج لها فضرب فرسها بالرمح، وقال لها: (اغربي غرّب الله عينيك فقد فضحت العشيرة) فاستحيت وانصرفت، ومما رثت به أخاها الوليد هذه الأبيات:

بتل نهاكي رسم قبر كأنه
على جبل فوق الجبال منيف

تضمن مجداً عدملياً وسؤدداً
وهمة مقدام ورأي حصيف

فيا شجر الخابور مالك مورق
كأنك لم تحزن على ابن طريف

فتى لا يحب الزاد إلّا من التقى
ولا المال إلّا من قنا وسيوف

ولا الذخر إلّا كل جرداء صلدم
معاودة للكرِّ بين صفوف

كأنك لم تشهد هناك ولم تقم
مقاماً على الأعداء غير خفيف

ولم تسع يوم الحرب والحرب لاقح
وسمر القنا ينكرنها بأنوف

حليف الندى ما عاش يرضى به الندى
فإن مات لا يرضى الندى بحليف

○○○○○

وضاح اليمن هو عبد الرحمن بن إسماعيل

ووضاح اليمن هو عبد الرحمٰن بن إسماعيل بن عبد كلال بن داذ بن أبي جمد وتروي المصادر التي منها «الأغاني» أن سبب تسميته بوضاح اليمن يرجع إلى أن فئتين تنازعتا فيه فاحتكمتا إلى حاكم فادعى الحميريون نسبته إليهم، وادعى أبناء الفرس أنه ابن للفارسي الذي تزوج أمه بعد وفاة إسماعيل بن عبد كلال. فنظر الحاكم إلى عبد الرحمٰن وكان وسيماً وتفرس في ملامحه ثم قال: اذهب فأنت وضاح اليمن لا من أتباع ذي يزن ـ يعني الفرس الذين قدموا اليمن مع وهرز لنصرة سيف بن ذي يزن على الحبشة (فعلق به هذا الاسم) وضاح اليمن، وأصبح لا يعرف إلّا به. وقيل: إنه كان يخشى على نفسه من فتنة النساء لما أودع الله فيه من الجمال فصار يصنع لثاماً يغطي به جانباً من وجهه. وقيل: إن وضاحاً كان يهوى امرأة يقال لها: روضة بنت عمرو من ولد فرعان بن ذي الردوع الكندي. وقيل: إنما روضة هذه التي يهواها وضاح إنما هي امرأة من بنات الفرس، وقد خطبها فامتنع قومها من تزويجه إياها، وبلغ به حبها مبلغاً ظهر في أشعاره ثم أصيبت بالجذام فاغتم وحزن لذلك.

وقيل: إنه كان له مع أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان زوجة الوليد بن عبد الملك وهي أم ابنه عبد العزيز بن الوليد حكاية غريبة لا يستبعد أنها من نسج الخيال ملخصها أن أم البنين كانت ترسل إليه فيدخل إليها ويقيم عندها فإذا خافت وارته في صندوق عندها، فأهدى إلى الوليد جوهراً له قيمة فدعا خادماً له فبعث به معه إليها وقال: قل لها: إن هذا الجوهر أعجبني فآثرتك به فدخل الخادم عليها فجأة ووضاح عندها فأدخلته في الصندوق وهو يرى. فدفع إليه الجوهر وطلب إليها أن تهبه منه حجراً،

فقالت: لا يا ابن اللخناء. فرجع إلى الوليد وأخبره فكذبه الوليد ثم أمر بقتله ولبس نعاله ودخل على أم البنين وجلس على الصندوق الذي وصفه له الخادم ثم قال لها: هبيني صندوقاً من هذه الصناديق قالت: كلها لك. قال: لا أريدها، وإنما هذا الذي جلست عليه. قالت: هذا أحتاج إليه. قال: ما أريد غيره. قالت: خذه. فدعا بالخدم وأمرهم بحمله حتى انتهى به إلى مجلسه ثم دعا عبيداً فحفروا حفرة عميقة فألقى الصندوق فيها وأهيل عليه التراب. ثم ما رؤي بعد ذلك اليوم لوضاح أثر في الدنيا إلى هذا اليوم. أما حبه لروضة فقد صرح به في أكثر من قصيدة فمن ذلك قوله من قصيدة:

طرب الفؤاد لطيف روضة غاشي
والقوم بين أباطح وعشاش

إني اهتديت ودون أرضك سبسب
قفر وحزن في دجى ورشاش

أدعوك روضة رحب واسمك غيره
شفقاً وأخشى أن يشي بك واشي

قالت: فزرنا قلت: كيف أزوركم
وأنا امرؤ لخروج سرك خاشِ

قالت: فكن لعمومتي سلماً معاً
وألطف لإخوتي الذين تماشِ

فتزورنا معهم زيارة آمن
والسر يا وضاح ليس بفاشي

ولقيتها تمشي بأبطح مرة
بخلاخل وبحلة أكياش

فظللت معموداً وبتُ مسهداً
ودموع عيني في الرداء غواشِ

أم كلثوم غنت بطبق ـ مهلبية ـ

الذين اهتموا بترجمة حياة المطربة الشهيرة ـ أم كلثوم ـ أتوا على ذكر صور كثيرة من حياتها الفنية فقالوا: إنها ولدت عام ١٩٠٦م، وإنها سميت بأم كلثوم تيمناً باسم إحدى بنات النبي ﷺ. وقالوا: إنها أخذت تمارس بدايات الغناء وهي طفلة صغيرة حيث أخذت تلك البدايات من أبيها الشيخ إبراهيم السيد وشقيقها خالد. وقد غنت لأول مرة في حفلة مع والدها بأجرٍ قدره طبق (مهلبية) تشجيعاً لها من والدها ثم أحيت حفلة حتى الصباح بأجر قدره عشرة قروش مصرية.

وقالوا: إن أول حفلاتها كانت في عام ١٩١٨م. وقالوا: إنها سجلت أول إسطوانة لها عام ١٩٢٤م، وقد تقاضت خمسين جنيهاً عن كل إسطوانة من الشركة التي سجلت وهي شركة (أوريون). أما الفيلم الأول الذي وقفت فيه أمام الكاميرا لأول مرة فهو في عام ١٩٣٦م. وقالوا: في ٣١ آيار عام ١٩٣٤م افتتحت الإذاعة المصرية فكانت أم كلثوم أول من دخلها وأحيت أول حفلة غنائية فيها، وقد تقاضت عنها أجراً قدره خمسة وعشرين جنيهاً. وقالوا: إنها قامت ببطولة ستة أفلام دفعت لها أجوراً باهظة مقابل ذلك، وقد وصلت في تدرج ارتفاع أجور تلك الأفلام إلى سبعة عشر ألف جنيه مصري عن الفيلم السادس وكان اسمه (فاطمة).

وقالوا: إنها غنّت أكثر من ثلاثمائة أغنية تختلف في طولها من خمس دقائق إلى ساعة ونصف. وقد تغنت بقصائد كثير من الشعراء منهم الشاعر الأمير عبد الله الفيصل، حيث تغنت بقصيدته (ثورة الشك) والتي منها:

أكـاد أشـك فـي نـفـسـي لأنـي
أكـاد أشـك فـيـك وأنـت مـنـي

يـقـول الـنـاس إنـك خـنـت عـهـدي
ولـم تـحـفـظ هـواي ولـم تـصـنـي

وأنـت مـنـاي أجـمـعـهـا مـشـت بـي
إلـيـك خـطـى الـشـبـاب الـمـطـمـئـن

يـكـذب فـيـك كـل الـنـاس قـلـبـي
وتـسـمـع فـيـك كـل الـنـاس أذنـي

وكـم طـافـت عـلـيّ ظـلال شـك
أقـضـت مـضـجـعـي واسـتـعـبـدتـنـي

كـأنـي طـاف بـي ركـب الـلـيـالـي
يـحـدّث عـنـك فـي الـدنـيـا وعـنـي

ومـا أنـا بـالـمـصـدق فـيـك قـولاً
ولـكـنـي شـقـيـت بـحـسـن ظـنـي

تـعـذب فـي لـهـيـب الـشـك روحـي
وتـشـقـى بـالـظـنـون وبـالـتـمـنـي

○ ○ ○ ○ ○

الفكاهة في التعزية !!

والفكاهة محبوبة بوجه عام. ولها محبّون وعشاق بوجه خاص. ولكن ما هي الفكاهة؟. وما لونها؟. وهل كل مضحك فكه أو كل ما يضحك الناس فكاهة؟. هذه تساؤلات قد يتوقعها المرء بسيطة وأن الإجابة عليها أبسط، لكن الواقع ربما أتى بخلاف هذا التوقع. لأن الفكاهة بوجه عام فن من فنون الآداب، وليس كل متحدث فكه ولا كل حديث فكاهة، لأن الفكاهة لها نص خاص وهي لا تضحك إذا لم تأت على لسان إنسان فكه. ومن هذا الواقع نستطيع القول بأن الفكاهة ذاتها مدرسة لا يتتلمذ عليها وينجح فيها إلّا القليل من المتحدثين.

أما نصوص الفكاهة فإنها خليط مجموع ومؤلف من نوادر جرت على ألسن أناس ليسوا متخصصين فتلقفتها ألسن الفكهين المضحكين واستملحتها فأضافتها كعنصر من العناصر التي تألف منها منهج الفكاهة وعلومها. والدليل على ذلك أننا نقرأ لبعض الشعراء الذين لا يعدون من شعراء الفكاهة مقطوعات شعرية تفوق في معناها الدعابي ما يأتي به الشعراء الذين تميزوا بالميل في أشعارهم إلى الهزل المضحك. فمن ذلك أن محمود صفوت الساعاتي عَزّى الشيخ زي العابدين المكي في فرس له نفقت بأبيات منها قوله:

قضت وهي تدعو فالق الحَبّ والنوى
بقلب كئب دقه الحب والنوى

فكيف نعزي الشيخ في الفرس التي
به طوت الأسفار صبراً على الطوى



وفيها تلميحات طريفة وظريفة تشير إلى أن موت فرس زين العابدين كان مبعثه عدة أسباب ذكر منها أنه إذا ركبها حملها لثقل وزنه، وأنه يجهدها بالسير ويتعبها باستمراره، وأنه لا يعلفها بالأعلاف المفيدة لبخله. ومما يضحك، أنه قد ذكر في تلك التعزية اللطيفة أنه لن يجد مثلها فرساً صبورة وأن لا يحدث نفسه مرة ثانية بامتلاك الأفراس، وعليه أن يبحث عن حمار عوضاً عنها فلعله يكون أصبر على الكد والتعب والجوع من تلك الفرس. يقول:

وكانت به تجري مع الريح خفة
وأشبعها جرياً فعاشت على الهوا

وكانت لتقواها تزول من الهوى
فتمشي حياءً وهي تعثر في النوى

وإن حملت ما لا تطيق لضعفها
تعوج منها الظهر والذنب استوى

هوت فوق تل عمرت وهي تحته
فكيف هوت والتل من فوقها هوى

قضت وهي ما ذاقت شعيراً لزهدها
فما شعرت إلّا وعرقوبها التوى

فعش أنت واسلم والحمير كثيرة
ومثلك معدوم النظير لما حوى

○○○○○

المعلم هو صاحب الأولوية!!

والمعلم هو بحق أحق بالأولوية والتقديم في كل شيء لأنه إنْ عُدّ المناضلون فهو على رأسهم، وإن عد البَنَّاؤون فهو في مقدمتهم، وإن عد الذين يؤثرون على أنفسهم ويتفاعلون في وسط مجتمعهم فالمعلم زعيمهم، وإن عد الذين يستنفدون طاقاتهم في سبيل أساعد بني قومهم فالمعلم يأخذ الأول في ترتيب أسماء من يقدمون لأمتهم خدمات لا غنى عنها.

وإن شبه أحد بذبالة السراج التي تحترق لتضيء دروب السالكين فما غير المعلم لها شبيه وإن وجد غيره فهو الأول والمقدم.

وإن عد الذين يجب أن يكرمهم المجتمع فالمعلم أولى الناس بذلك. وكيف لا يكون المعلم صاحب أولوية وهو الذي يبني العقول، وهو الذي يصنع الرجال، وهو الذي ينثر عبير المعرفة بسخاء ليملأ بعطرها أجواء مجتمعه فتلتذ به نفوسهم وتستنير بشميمه بصائرهم.

وهو الذي يسقي بمعين علمه وبخير معرفته الأرض التي تقل قومه فتنبت أشجاراً يانعة ثمارها الثقافة التي تغذي العقل والروح معاً. وهو الذي يحصد بمنجله طفيليات الحياة الاجتماعية ويجتث بمعوله عروق الجهل، ويمزق بيده كل ستارة تلقى على العلم ليعرضه صافياً في صورة مشرقة. وهو الذي أخذ من الشمس صفتها في محو الظلام وإحلال الضياء. وهو الذي أخذ من المطر فاعليته في إحياء الأرض وإنباتها وإحالتها من الإمحالِ والتصحر إلى خضرة ذات بهجة. يقول الشاعر مصطفى رشيد عثمان من قصيدة له عنوانها «صانع الأجيال» نشرتها



جريدة «المدينة المنورة» في عددها ٨٤٣٢، السبت ٢٣/١١/١٤١٠هـ، ومنها قوله:

ماذا أقول وقد تغيّر حالي
وأنا المعلم صانع الأجيال

إن المعلم مرشد وموجه
هو في الحقيقة منشئ الأبطال

قبس يشع فيهتدي بشعاعه
جيل من الأنجاد والأنجال

هو شمعة ضاءت لتحرق نفسها
وتنير درباً حالك الأوصال

منه استفدنا خبرة وثقافة
فهو المربّي صاحب الأفضال

ومنها قوله:

لولاه ما درس الكواكب عالم
وغزا الفضاء بمركب متعالي

لولاه عمّ الجهل في دنيا الورى
شرقاً وغرباً ضم كل مجال

إن المعلم في الحقيقة قائدٌ
لمسيرة الأجيال دون جدال

○○○○○

الدين أساس السعادة!!

ما ارتضى الله سبحانه وتعالى ديناً لعباده إلّا ولهم في التمسك به لب السعادة في الدنيا والآخرة. ولهذا فإنه لا أحد يجرؤ على القول بأن في الأديان السماوية التي جاءت متتابعة على ألسنة الرسل الذين اختارهم الله لتبليغها إلى قومهم نقص يحرم البشرية كمال السعادة أو يسلبها شيئاً من معناها. قال الله تعالى في سورة النساء آية ١٦٥: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾.

ولهذا فإن القول بعدم اكتمال السعادة مردّه إلى سوء تطبيق الدين أو الخروج عليه والمروق منه بالمكابرة والتكبر حيناً، والمكر والخداع والجحود حيناً آخر. والدين الإسلامي القائم الآن هو آخر الأديان السماوية وأتمّها وأفضلها على الإطلاق، ولهذا جعله تبارك وتعالى دين الناس جميعاً، وارتضاه لأهل الأرض قاطبة فلا يحيد عنه إلّا هالك قد ملأ قلبه النفاق وتشربت نفسه الكفر والفسوق والعصيان فكان ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢٧].

ولا غرو إذا مَجّد المسلمون هذا الدين الذي ختمت به جميع الأديان فهم قد سعدوا به، وتفيؤوا ظلاله، واعتصموا به اعتصاماً يرجون به النجاة في يوم يعض الظالم على يده حينما يرى سوء المنقلب.

والشعراء الإسلاميون لهم في تمجيد دينهم أقوال تشرح الصدر

ويطيب بها الخاطر يقول الشاعر المهدي محمد بن عبد المطلب بن واصل بن بكر ينتهي نسبه إلى جهينة من قصيدة طويلة قوامها اثنين وخمسين بيتاً:

ما الدين إلّا نظام للحياة إذا
سار الأنام على منواله سعدوا

لطف الخبير وتدبير القدير ومن
هو البصير بنا والسيد الصمد

ورحمة البارئ الرحمٰن منّ بها
على العباديْن من زاغوا ومن عبدوا

سبحانه لم يكل قوماً لأنفسهم
حتى يحاروا فيستغويهم الفند

ومنها قوله:

دين هو الفطرة الأولى يَمُتّ بها
إلى السعادة قومٌ بالهدى سعدوا

لا خير في هذه الدنيا إذا عريت
منه ولو أنصف الغاوون ما لحدوا

من شاء أن يبلغ الدنيا بلا كدر
فالدين كالروح والدنيا له جسد

وقد ختم تلك القصيدة الرائعة بقوله:

من يعرف اللّه يعرفه الإله وما
تقدموا عنده من صالح تجدوا

○○○○○

شيطانهم.. واحد!!!

كان جرير باليمامة بنجد حيث مرابعه قد صنع قصيدة يمتدح بها الحجاج ومطلعها:

هـاج الـهـوى لـفـؤادك الـمـهـتـاج
فـانـظـر بـتـوضـح بـاكـر الأحـداج

وما أن فرغ منها إلّا وأحد رواة شعره يسافر إلى الشام فيجد الشاعر المعروف (الفرزدق) هناك فيسأله الفرزدق بقوله: هل صنع. أو قال: أحدث ابن المراغة بعدي من شيء؟. وكان يعني بذلك جريراً. قال: نعم.

قال الفرزدق: هات. فأنشد الراوية:

هاج الهوى لفؤداك المهتاج..

فقال الفرزدق: فانظر بتوضح باكر الأحداج.

فقال الراوية: هذا هوى شغف الفؤاد مبرح.

فقال الفرزدق: ونوى تقاذف غير ذات خداج.

فقال الراوية: إن الغراب بما كرهت مولع.

فقال الفرزدق: بنوى الأحبة دائم التشحاج.

فقال الراوية: هكذا والله، أفسمعتها من غيري؟.

قال الفرزدق: لا. ولكن هكذا ينبغي أن يقال. أوما علمت أن شيطاننا واحد؟.. ثم سأله الفرزدق: أمدح بها الحجاج؟. فأجابه الراوية: نعم. فقال الفرزدق: إيّاه أراد.



أما القصيدة بكاملها فتبلغ واحداً وعشرين بيتاً وقد أشاد فيها بمضاءة الحجاج بن يوسف الثقفي وقوة هيبته في وجه أعدائه، وصرامة حكمه، وحكمة إرادته التي أهم مبادئها استتباب الأمن لدولة بني أمية وقد تحقق له ذلك بتتبع فلول المناوئين لها. يقول جرير من تلك القصيدة الآنفة الذكر:

قل للجبان إذا تأخر سرجه
هل أنت من شرك المنية ناجِ

فتعلّقَنْ ببنات نعش هارباً
أو بالبحور وشدة الأمواج

مَنْ سدّ مُطّلع النفاق عليهم
أم من يصول كصولة الحجاج

أم من يغار على النساء حفيظة
إذ لا يثقن بغيرة الأزواج

إن ابن يوسف فاعلموا وتيقنوا
ماضي البصيرة واضح المنهاج

○○○○○

تأبط شراً. هو ثابت بن جابر

وصحة اسم تأبط شراً هو ثابت بن جابر بن سفيان بن عميثل بن عدي ينتهي نسبه إلى قيس عيلان، وكنيته: أبو زهير. ولسبب تلقيبه بـ(تأبط شراً) عدة أقوال:

أحدها: وقيل هو المشهور: أن ثابت بن جابر تأبط سيفاً وخرج فقيل لأمه: أين هو. فقالت: لا أدري تأبط شراً وخرج.

وثانيهما: أن أمه قالت له في زمن الكمأة: ألا ترى غلمان الحي يجتنون لأهلهم الكمأة فيروحون بها؟. فقال لها: أعطيني جرابك حتى أجتني لك فيه. فأعطته فملأه لها أفاعياً من أكبر ما قدر عليه وأتى به متأبطاً له فألقاه بين يديها ففتحته، فسعين بين يديها في بيتها فوثبت وخرجت منه. فقال لها نساء الحي: ماذا كان الذي تأبط ثابت اليوم؟. قالت: تأبط شراً.

وثالثها: أنه رأى كبشاً في الصحراء فاحتمله تحت إبطه فلما قرب من الحي رمى به فإذا هو الغول. فقال له قومه: بم تأبطت؟ فأخبرهم. فقالوا: لقد تأبط شراً.

ورابعها: أنه أتى بالغول الذي معه فألقاه بين يدي أمه. فسئلت أمه عما كان متأبطاً؟ فقالت: ذلك. فلزمه.. هذا ما يتعلق بلقبه بـ(تأبط شراً) أما عن شاعريته فهو شاعر له ديوان مطبوع، وفيه أنه لما قتل أخوه عمرو بن جابر بن سفيان قتله بنو عُتَيْرٍ من هذيل عندما أغار عليهم مع صاحبين له. قال الأبيات التالية:

وحـرّمْـتُ الـسـبـاء وإن أحـلـتْ
بـشـوْر أو بـمـزج أو لـصـابِ



حياتي أو أزور بني عتير
وكاهلها بجمع ذي ضباب

إذا وقعت بكعب أو قُرْيم
وسيّار فقد ساغ الشراب

أظنني ميتاً كمداً ولمّا
أطالعْ طلعة أهل الكراب

وزِلتُ مسيراً أهدي رعيلاً
أؤم سواد طود ذي نقاب

ويروى أن تأبط شراً لقي ذات يوم رجلاً من ثقيف يقال له: أبو وهب كان حُسّاناً أهوج، وعليه حلة جيدة. فقال أبو وهب لتأبط شراً: بم تغلب الرجال يا ثابت وأنت كما أرى دميم ضئيل؟. قال: باسمي إنما أقول ساعة ألقى الرجل: أنا تأبط شراً فينخلع قلبه حتى أنال منه ما أردت. فقال له الثقفي: أبهذا فقط؟. قال: فقط. قال: فهل لك أن تبيعني اسمك؟. قال: نعم فبم تبتاعه؟. قال: بهذه الحلة وبكنيتي. قال له: أفعل، ففعل وقال له: تأبط شراً لك اسمي ولي اسمك، وأخذ حلته وأعطاه طمريه ثم انصرف وقال تأبط شراً يخاطب زوجة الثقفي:

ألّا هل أتى الحسناء أن حليلها
تأبط شراً واكتنيتُ أبا وهب

فهبه تسمّى اسمي وسمّاني اسمه
فأين له صبري على معظم الخطب

وأين له بأس كبأسي وسورتي
وأين له في كل فادحة قلبي؟

○○○○○

من صدى حفل تلقيب شوقي بأمير الشعراء

وأحمد شوقي بك شاعر أخذ مكانته بين الشعراء وطار صيته فأصبح علماً من أعلام الشعراء البارزين الذين امتطوا صهوة القريض وضربوا به كل اتجاه.

ولو رجعنا لنتتبع فنون الشعر عند شوقي لوجدنا كل قصيدة من قصائده مليئة بالشوارد التي تفيض بالحكمة والفلسفة والمنطق والواقعية. ومن أجل هذا المنهج الشعري انتهى التفكير إلى تكريمه بلقب أمير الشعراء، فأقيم حفلٌ لذلك ضم نخبة من الشعراء والأدباء وتم تنصيبه أميراً على شعراء عصره وقبل شوقي هذا اللقب وأصبح ملازماً لاسمه، لكن هناك من النقاد من عارض هذا اللقب. ولا زالت المعارضة قائمة حتى يومنا هذا، والاحتجاج مستمراً يعلن بأنه يوجد على الساحة العربية من معاصري شوقي من هو أحق منه بهذه التسمية أو ذلك اللقب، وإن لم يكن أحق فالمساواة واردة والتماثل في النهج الشعري بناءاً وهدفاً وموضوعاً قائماً بينه وبينهم الأمر الذي جعل المحتجين يلوحون بأن يُبْنى التفضيل على نتيجة المقارنة ليقوم الفارق الذي يؤهل أياً من الشعراء أحق لإمارة الشعراء أو بالاقتراع إذا لم تسفر المقارنة عن نتيجة حاسمة وواضحة، تأتي بفارق يبطل الاقتراع وحيث أن هذا لم يحصل فقد انشق الشعراء والأدباء على أنفسهم وصاروا في أمر تنصيب شوقي لإمارة الشعراء فريقين. فريق يستعمل حينما يتحدث عنه (كلمة أمير) وهو الفريق المؤيد لإمارته، وفريق يرفض تلقيبه بأمير الشعراء. وسواء اتفق الفريقان على تلقيبه بأمير الشعراء أم لم يتفقا، فإنه قد كان للحفل الذي أقيم لتنصيبه صدى واسع لدى المؤيدين لتلقيبه بأمير الشعراء حيث

كانت الإشارة صارخة وقوية في قصائد لا يمكن حصرها. ومن تلك القصائد التي ألقيت في ذلك الحفل التكريمي قصيدة للشاعر السوداني محمد سعيد العباسي بلغت نحواً من واحد وأربعين بيتاً ضمها ديوانه «ديوان العباسي»، ومطلعها:

يا شاعر الضاد يا صناجة العرب
اسلم لدولة أهل الفضل والأدب

ومنها قوله:

تدفق الناس فيهم كلُّ ذي أدب
ممن علمتَ وفيهم كلُّ منتخب

وعندهم لك والتكريم رائدهم
طراز وشي من الأشعار والخطب

وإنهم لسوار أنت معصمه
قد زنته ورحى دارت على قطب

ومنها قوله:

يا فخر مصر بماضيها وحاضرها
وسعد مصر بهذا الشاعر الأرِب

ناضلت عنها فما خانت ولا وهنت
قواك في غير مامنِ ولا ضخب

ومنها قوله:

يا صادحَ الأيك غَنِّ القوم تلقهم
قوماً إلى نغم العلياء في طرب

فسر بهم واتخذ من عبقريتهم
لدى قضية مصر أشرف النسب

ردّ على فرية

كثير هم الذين يفترون الكذب، ويحاولون بكفرهم وإلحادهم القول على القرآن، والتشكيك في مفهوم آياته. وكثير هم الذين يناصبون المسلمين العداء بأقلامهم التي ينفثون منها السم في أساليب ربما ينخدع بها الجاهل.. من ذلك قول كاهن: (قصر الدوبارة) بأنه ليس في القرآن نص قاطع بأن الأبرار يدخلون الجنة!! كل ما فيه وعد بلعل وعسى. ثم يقول: يقول القرآن مثلاً للأخيار: ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾.

ويقول لمرتكبي السيئات: ﴿تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

لكن علماءنا لم يغفلوا عن الرد على هذا التشكيك فيما جاء في القرآن واتخاذه وسيلة للتنصير وصرف المسلمين عن دينهم وعن كتابهم المملوء بالبشارة والوعد بالمغفرة والعفو والتجاوز عما دون الشرك بالله. فممن تولى الرد على كاهن (قصر الدوبارة) الداعية محمد الغزالي حيث كتب تحت عنوان: «الحق المر» ما دحض به قول ذلك الكاهن. ونشرته جريدة (المسلمون) في عددها ٢٧٤، التاسع من شهر شوال سنة ١٤١٠ هجرية، إذ قال فيه: أما أن القرآن لم يجزم بثواب المتقين فباطل!! ألم يقل الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾. ألم يقل: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾. ألم يقل: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾.

وفيما قال في رده قوله: ويبقى أن نتساءل: هل إذا قال الأستاذ لتلميذه: ذاكر دروسك لعلك تنجح، ابتعد عن الكسل عسى أن تفلح. كان هذا القول مبعث ريبة في الجزاء الأخير.

ويؤيد الغزالي من سياق الأمثلة التقريبية لنفي هذا التشكيك المسموم فيقول: إن هناك حقيقة نفسية وتربوية يجب أن يعرفها الناس أجمعون: إذا اتسخ ثوبك فلا بد أن تنظفه، وإذا حدث أن نظف الناس أثوابهم وتكاسلت أنت فسيبقى ثوبك مشيناً لا تغني عنه نظافة الآخرين.

وإذا كان المرء كاذباً أو لصاً أو معتدياً فلن يبرأ من آثامه إلّا بتوبته هو منها وتطهير ظاهره وباطنه من أوضارها. وإذا اعتذر عنه بعض الناس أو شفع له فإن ذلك لن يغسل سريرته السوداء ما دام مصراً على دناياه. وهذه أبيات من قصيدة للشاعر عبد الرحمٰن خليف عضو المجلس الإسلامي الأعلى بالجمهورية التونسية عنوانها «قبسات من كتاب الله» يذكرنا فيها بما لله من نفحات، وما وعد به المتقين من كرامات وما أوعد به المشركين من خزي وإهانات. يقول:

جلّ الذي من تراب صاغ إنسانا
وأنزل الذكر للإنسان قرآنا

نور تدفق آيات مفصلة
يهدي بها الله تشريعاً وتبيانا

كل له حظه من فيض نفحتها
والشوق يهتاج للتكرار ظمآنا

فكم بترغيبها ازداد التقي تقىً
وراع ترهيبها المخشى شيطانا

وكم بشائر تلقاها معجلة
للمتقين زرافات ووحدانا



تدعو إلى التوبة البيضاء ناصعة
إذ ليس يحرم ذو العصيان غفرانا

وتمطر الكفر ناراً من صواعقها
تكاد تلتهب الأسماع نيرانا

للشرك نار وللإخلاص مرحمة
يذوقها المرء في محياه أفنانا

○○○○○

مناظرة بديهية بين ابن المؤيد.. والمخلص

قال علي بن ظافر الأزدي صاحب كتاب «بدائع البدائه»: كتب إليّ القاضي الأعز بن المؤيد من الإسكندرية، ولفظه: قال: تسايرت أنا والقاضي المخلص أبو العباس أحمد بن يحيى بن عوف بشاطئ خليج الإسكندرية من جهة القنطرة المعروفة بقنطرة السواري. وقد رقصت أشجاره على غناء أطياره، وملأ لها ساق الغمام كؤوس جلناره. فبينما نحن نتناشد من نفيس رقيق الأشعار، ونتعاطى من كؤوس رحيق الأخبار، ونتعجب من سماء ذلك الماء كيف خلت من البدور، ومن نجوم تلك الأزهار مع طلوع شمس النهار كيف لا تغور، إذا بجوار هناك جوار، وبدور من قبل السواري سوار. فقلت:

لـــلّـــه أي بـــدور
مـــن الـــسـواري ســوار

فقال المخلص:

مـن كـل هـيـفـاء خـرسـاء الـ
ـوشـاح خـرسـاء الـسـوار

فقلت:

لاحـت فـجـلّـت وحـلّـت
قـلـبـي وعـقـد اصـطـبـاري

فقال:

تـنـوب فـرعـاً ووجـهـاً
عـن الـدجـى والـنـهـار

فقلت:

فـــنـــاظـــرهـــا وقـــلـــبـــي
مـــا بـــيـــن راض وضـــار

فقال:

وخـــــدهـــــا وفـــــؤادي
مـــن جـــلـــنـــار ونـــار

فقلت:

تـــحـــكـــي الـــغـــزالـــة فـــي بـــهـــ
ـجـــة وحُـــســـن مـــنـــار

فقال:

والـــظـــبـــي فـــي حـــســـن جـــيـــد
ومـــقـــلـــة ونـــفـــار

وقد عدّ صاحب كتاب «بدائع البدائه» هذا النوع من المناظرة الفورية في باب (التمليط).

○ ○ ○ ○ ○

طلب الشهرة المبكرة
ولّد عثرة لدى أم كلثوم (المطربة)

ظهرت أم كلثوم على مسرح الحياة الغنائية ظهوراً لاقى استقبالاً حسناً وتشجيعاً منقطع النظير من قبل الجماهير العربية. وصوتها الجميل الجذاب الذي ليس له مثيل في العالم العربي كان سبباً وراء نجاحها وبروزها على مسرح الحياة، ووسيلة دفعت الذين يحرصون على إقامة الحفلات على استئجارها لإحياء حفلات غنائية ساهرة داخل مصر بادئ ذي بدء. وعندما تحققت لها الشهرة طلب منها إقامة حفلات خارج مصر، وكان أول طلب تلقته من العراق. حيث طلب منها التعاقد على إقامة حفلات في بغداد فاستجابت لذلك الطلب، وتم التعاقد معها على ذلك إلّا أن السلطات المصرية منعتها من السفر إذ أن القانون لا يسمح بخروج مغنية لم تتزوج فما كان منها إلّا أن ارتكبت عثرة في طلب الشهرة. وهذه العثرة تتمثل في تحايلها على القانون وعلى شرع الله، فظلمت نفسها مقابل شيء من المادة، حيث تزوجت زواجاً صورياً وقدمت للسلطات عقد نكاح مكّنها من إعطائها جواز سفر إلى العراق. وإن صح هذا الخبر فقد أساءت التصرف وتجاوزت حداً شرعياً الهزل فيه جد والجد فيه جد. وقد حققت بهذه الحيلة رغبتها. ولما عادت كشفت الستار عن لعبتها سواء بالطلاق الصوري أو بالتصريح بارتكاب الزواج الوهمي المزور. وبناءاً على ذلك أخذت الصحف المصرية تزوجها بمجرد الشائعات عشرات المرات ولم تطلقها مرة واحدة. فقد زوجتها بنبيل من الأسرة المالكة في مصر، وزوجتها بصاحب مطبعة، وزوجتها بقاضٍ كبير، وزوجتها بفنان شهير، وزوجتها بأحمد رامي، ولم

تكن قد تزوجت بعد. أما الزواج الصحيح الصريح الذي تحقق وصدقه الناس فهو زواجها من الدكتور حسن الحفناوي الأستاذ المساعد للأمراض الجلدية بكلية قصر العيني الذي تم في ٣٠ حزيران عام ١٩٤٥م. ومن القصائد التي أبدعت في التغني بها قصيدة «يا رب الفيحا» للشاعر محمود حسن إسماعيل، التي منها قوله:

وفـق الـلّـه الـنـور خـطـانـا
والتقت في موكب النصر يدانا

وحّدت شمس الضحى أعلامنا
وانبرت في الشرق تحي المهرجانا

لا تسل عنا ولا كيف لقانا
واسأل التاريخ عنا والزمانا

نحن كنا مهجة واحدة
ودماً حراً وروحاً وجنانا

بارك اللّه خطانا وسرت
صيحة الفجر فلبينا الأذانا

ومضينا في طريق واحد
يتغنى الدهر فيه بعلانا

في صباح الشرق عدنا أمة
مثلما كنا على الدنيا وكانا

بردى والنيل في يوم العلا
وحدا الشعبين قلباً ولسانا

○○○○○

البرق والرعد

ولا أريد أن أتحدث عن الصورة التي يرسمها الشعراء لهيئة السحاب الثقال الذي يزمجر رعده ويكشف الظلمات برقه. فهذا جانب إنشائي أتركه للأبيات التي أختارها كدليل على استطاعة الشاعر على رسم صورة السحاب في قصيدة أو مقطوعة شعرية. لذلك أرى أن البحث في ذاتية الرعد والبرق ومعناهما الوارد في القرآن أوفق وأفضل. ففي آية ١٩، ٢٠ من سورة البقرة قال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾. وقد جاء في تفسير الطبري عن شهر بن شوحب قال: الرعد: ملك موكل بالسحاب يسوقه كما يسوق الحادي الإبل، يُسبّح كلما خالفت سحابة صاح بها فإذا اشتدّ غضبه طارت النار من فيه، فهي الصواعق التي رأيتم. وعن ابن عباس قال: الرعد: ملك من الملائكة اسمه الرعد، وهو الذي تسمعون صوته.

وعن ابن عباس قال: الرعد: ملك يزجر السحاب بالتسبيح والتكبير.

وعن ابن عباس أيضاً قال: الرعد: ملك يسوق السحاب كما يسوق الحادي الإبل. وقال آخرون: إن الرعد: ريح تحتنق تحت السحاب، فتصاعد فيكون منه ذلك الصوت.

وعن ابن جريج قال: الصواعق ملك يضرب السحاب بالمخاريق

يصيب منه من يشاء. وعن ابن عباس قال: البرق: مخاريق بأيد الملائكة يزجرون بها السحاب.

أما الصيب الذي ورد ذكره في الآية: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ فهو: المطر. قال مجاهد: الصيب: المطر. وكذلك قال ابن عباس، وأنس وعبد الرحمٰن بن زيد، وسفيان وغيرهم.

وقد ورد ذكر البرق والرعد في آيات أخرى من القرآن ففي سورة الرعد آية ١٢، ١٣ قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ۝١٢ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ۝١٣﴾. وقال تعالى في سورة الروم آية ٢٤: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٢٤﴾.

ويتفنن الشعراء في وصف السحاب ولمعان البرق وصوت الرعد وانهمار المطر.

يقول العتّابي:

والغيم كالثوب في الآفاق منتشر
من فوقه طبق من تحته طبق

إن معمع الرعد فيه قلت منتشر
أو لألأ البرق فيه قلت يحترق

يستكُ من رعده أذن السميع كما
تغْشى إذا نظرت من برقه الحدق

ويقول أبو هلال العسكري:

برق يطرز ثوب الليل مؤتلق
والماء من ناره يهمي وينبعق

توقدت في أديم الغيث جمرته
كأنها غرةٌ في الطرف أو بلق

ما امتد منها على أرجائه ذهب
إلّا تحدر من حافاته ورق

كأنها في جبين المزن إذ لمعت
سلاسل التبر لا يبدو لها حلق

فالرعد مرتجس والبرق مختلس
والغيث منبجس والسيل مندفق

○ ○ ○ ○ ○

الوأواء.. هو محمد بن أحمد

والوأواء هو محمد بن أحمد الغساني الدمشقي. وكنيته: أبو الفرج، هكذا قال محقق ديوانه الدكتور سامي الدهان. وحول نسب الوأواء لم يقف الدهان على حد قوله على قول يحقق تسلسل نسبه ولا على قول يحقق سبب تلقيبه بالوأواء.

ومما جاء من الأقوال في بعض تراجمه قولهم عن أبي بكر الخوارزمي: إن لقب الوأواء علق به لأنه كان منادياً في دار البطيخ بدمشق، ينادي على الفواكه والوأوأة: هو صياح ابن آوى أو صياح الكلب كما هو ثابت في بعض المعاجم «كتاب العروس».

ويشير الدهان إلى أن هناك رجلاً آخر يلقب بالوأواء كذلك، وعاش في القرن السادس للهجرة، وكنيته كذلك: أبو الفرج. ولم تذكر المصادر سبب تلقيبه بالوأواء بل اكتفت بذكر ترجمته (عبد القادر بن عبد الله بن الحسين الحلبي النحوي الشاعر أبو الفرج المعروف بالوأواء. قال عنه الصفدي أنه شرح ديوان المتنبي ومات بحلب سنة ٥٥١ هجرية.

أما محمد بن أحمد الغساني فقد لازمه لقب الوأواء في حياته وبعد وفاته. ولا أحد يعرف عن حياته الخاصة وتعليمه شيئاً ولم يوقف له على حقيقة غير أن هناك إشارات تفيد بأن الوأواء كان في أول أمره أحد العامة، وكان جابياً في فندق يتولى بيع الفاكهة، ولم يكن من أهل الأدب. وأنه كان يخلو بعض الوقت للمطالعة والاستماع، وأنه تفرد بذلك أكثر الوقت ثم اتصل بالشريف العقيقي ومدحه ونال على مدحه عشرين ديناراً.

وكما شحت المصادر بذكر نسبه وترجمته شحت أيضاً بتحديد



مولده ووفاته. وقد استعرض الدهان أقوالاً متضاربة في تعيين سنة وفاته إلا بالمقارنة بحياة ووفاة من عاصرهم من الأعلام. وخلص الدهان برأي خاص به، بناه على استقراء من حياة ووفاة ممدوحه الشريف العقيقي. فقال: لذلك آثرنا أن تتخذ وفاة الشاعر سنة ٣٧٠هـ. أي: قبل وفاة ممدوحه، وفي سن مقبول. وقبل أن أختم هذا الموضوع أرى من المناسب أن أنقل بعضاً من أبيات القصيدة التي امتدح بها الشريف العقيقي ونال بها عشرين ديناراً. والتي عدها بعض من ترجم له أول شيء عمله. منها قوله:

هذا ابن خير الورى من بعد خيرهم
هذا الذي كتبتْ لا كفُّهُ نعما

هذا الذي لا يُرى في جيد مكرمة
عقدٌ من المجد إلّا باسمه نظما

يا ملزمي غُرمَ صبري بعد فرقته
ما إن على مجرم جرمٌ إذا اجترما

ذر الصوارم في إغمادها فلقد
أمست نفوس المنايا في حماهُ حمى

قل للتي ودّعت بالجزع من جزع
ما إن ظلمت بل البين الذي ظلما

لا والهوى وحياة الشوق ما تركت
لي النوى من فؤادي غير ماثلما

متى تحكّمَ هجري في مواصلتي
جعلت أحمد فيما بيننا حكما

يا معلماً بطراز الحسن نسبته
ومن غدا بين أبناء العلي علما

معنى الصلاة على النبي ﷺ وفضلها

قال الله تعالى في سورة الأحزاب آية ٥٦: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾. قال أهل العلم: ومعنى صلاة الله أنها ثناء. وصلاة الملائكة دعاء. وقيل: صلاة الرب رحمة. وصلاة الملائكة الاستغفار. فالله سبحانه قد أخبر عباده بمنزلة النبي عليه الصلاة والسلام عنده في الملأ الأعلى، فأثنى عليه. وتصلي عليه الملائكة. وأمرنا بالصلاة والتسليم عليه ليجتمع الثناء من أهل العالمين.

ومن الأحاديث التي تدل على فضل الصلاة عليه ﷺ أنه قال: «من صلّى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً». وقال: «أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة». وقال: «لا تجعلوا قبري عيداً وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم». وقال: «إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة فأكثروا علي الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة علي». وقال: «أتاني آتٍ من ربي عزَّ وجلَّ فقال: من صلّى عليك من أمتك صلاة كتب الله له بها عشر حسنات، ومحا عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات، ورد عليه مثلها». وقال: «من سره أن يكال له بالمكيال الأوفى إذا صلّى علينا أهل البيت فليقل: اللهم صل على محمد النبي وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد». وقال: «رغم أنف رجل ذكرت عنده ولم يصل علي». وقال: «إن من أبخل الناس من ذكرت عنده فلم يصلِّ علي».

وذكر ابن الجوزي: أن في الصلاة علي سيدنا محمد ﷺ عشر كرامات: إحداهن: صلاة الملك الجبار. والثانية: شفاعة النبي

المختار. والثالثة: الاقتداء بالملائكة الأبرار. والرابعة: مخالفة المنافقين والكفار. والخامسة: محو الخطايا والأوزار. والسادسة: قضاء الحوائج والأوطار. والسابعة: تنوير الظواهر والأسرار. والثامنة: النجاة من عذاب دار البوار. والتاسعة: دخول دار الراحة والقرار. والعاشرة: سلام الملك الغفار.. شعراً:

حب النبيّ على الأنام فريضة
لا تنسى ذكر الهاشمي الأكرم

إن الصلاة على النبي وسيلة
فيها النجاة لكل عبد مسلم

صلوا على القمر المنير فإنه
نور تبدى في الغمام المظلم

رحم العباد به العزيز القادر
فالشكر لله العلي المنعم

آخر:

أما الصلاة على النبي فسيرة
مرضية تمحى بها الآثامُ

وبها ينال المرء عز شفاعة
يبني بها الإعزاز والإكرام

كن للصلاة على النبي ملازماً
فصلاته لك جنة وسلام

ويختم عبد الرحيم بن أحمد البرعي اليمني إحدى مدائحه النبوية بقوله:

وعليك صلى اللّه يا علم الهدى
ما انهلّ فيّاض الحيا المتسجم

قصة إمارة شهاب الدين أبي الفوارسي

والحرص على نيل الألقاب، أمر يخالج نفوس كثير من الذين يبرزون في فن من الفنون المختلفة، سواء العسكرية منها أو الثقافية أو غير ذلك من النشاطات التي يمارسها المرء بمهارة فائقة.

ففي الناحية العسكرية كثيراً ما نسمع: فلان بطل معركة كذا. ورسول الله ﷺ لقّب خالد بن الوليد، «بسيف الله المسلول». وقد نال خالد رضي الله عنه بهذا اللقب شرفين: شرف سمو اللقب بسمو المضاف إليه، والشرف الثاني: أن الذي لقبه به هو سيد ولد آدم ﷺ. أما الألقاب التي يحصل عليها الكثيرون في مجال العلم والمعرفة والثقافة فهي متنوعة. وإذا ما استبعدنا الألقاب التي تلصق بأصحابها بسبب فعل قام به أو عبارة أطلقها: كتأبط شراً، وذي الرمة، والمتنبي، ودعبل. وغير ذلك كثير. فإن هناك ألقاباً تمنح لأصحابها: إما مكافأة وتقديراً لتفوقهم في مجال من مجالات الثقافة، أو لتحقيق رغبة مضمنة طلباً من أصحابها للحصول عليها. ومن تلك الألقاب قولهم: فلان الكاتب وذلك لتمكنه من فن الكتابة. ومنهم من لقب بالراوي، والمحدث.

أما الشاعر أحمد شوقي فقد أطلق عليه اسم أمير الشعراء وبايعه على ذلك لفيف من شعراء عصره في حفل أقيم في القاهرة لهذه الغاية. وقد ظل هذا اللقب ملازماً له ومرادفاً لاسمه، وقبله أطلق هذا اللقب على امرئ القيس. أما حافظ إبراهيم فقد عرف بشاعر النيل. وإيليا أبو ماضي شاعر المهجر أما الأمير شهاب الدين أبو الفوارس سعد بن محمد بن سعد بن الصيفي التميمي البغدادي المتوفى سنة ٥٧٤، هجرية

فقد أطلق عليه لقب حَيْصَ بَيْصَ وقد أشرت إلى سبب هذه التسمية في موضوع خاص تقدم في هذا الجزء تحت عنوان (حيص بيص.. اسمه سعد بن محمد) فقد تطلع إلى لقب (أمير) وقد حصل على ذلك بطريقة رسمية. وقد روي أنه ذهب إلى مرو بخراسان حيث يقيم سلطان السلاطين سنجر ملكشاه ومدحه بواحدة من قصائده الطنانة، فاستخرج منه مرسوماً بتأميره، فصار يقلب بـ: الأمير شهاب الدين.

وقد ذكر هذه القصة: وأعني قصة إمارته، في قصيدة طويلة مدح بها ضياء الدولة أبا الفتح المظفر بن حماد بن أبي الجبر سنة ٥٢٥هـ، وقد بلغت نحو من ثمانية وستين بيتاً. منها قوله:

وولجت أسرار تُضرّب دونها الـ
أعناق غير مسارق متستر

حتى انتهت هممي إلى مولاهم
رب المقانب والمراتب سنجر

فأحلني الشرف الرفيع وزانني
بأجلّ تشريف وأكرم مفخر

بحسامه وكتابه، وكلامه
مجدٌ يقيم على ممرِّ الأعصر

فالسيف لم يسمح لذي فضل به
وكذا المثال مثاله لم يسطر[١]

ومنها يقول:

وسرى بفضلي ركب كل تنوفة
من منجد يطوي السّرى ومغور

---

(١) يريد بالمثال: المرسوم الذي أصدره السلطان بلقب الإمارة.

تجري المكارم والدماء متى أفهْ
بالشعر ثم تغيض إن لم أشعر
فضلي وبأسي في المقال وفي الوغى
خُلِقا لصهوة سابح أو منبر

ooooo

أيها الإخوة.. أليس لنا فيمن مضى عبرة؟!!

والعجيب أننا ندفن ميتنا ونحن نبكي على قبره وننثر الدموع على فقده. ثم إذا قفلنا راجعين من المقبرة جفت الدموع وعاد قلب كل منا إلى طبعه. عاد ليمارس القسوة والعنف والظلم. عاد ليحدث صاحبه ويملي عليه الطمع فيما ليس له ويأخذ في اللج به في نسيان الآخرة، وليمد أمامه الآمال العراض حتى ينساق معها وكأن الموت لم يكتب عليه.

جاء في كتاب «قرة العيون المبصرة بتلخيص كتاب التبصرة» للشيخ أبي بكر بن الشيخ محمد الملا الأحسائي، هذا التنبيه من الغفلة والتساؤل عمن مضوا ولم تبق منهم إلّا آثارهم التي تشير إلى بعض أخبارهم ونصه: إخواني، أين مضى رفقاؤنا؟. أين ذهب معارفنا وأصدقاؤنا؟. رحل أقراننا وقلّ والله بقاؤنا. هذه دورهم فيها سواهم. هذا مُحبّهم قد نسيهم وجفاهم. أين أصحاب القصور الحصينة. والأنساب العالية الرصينة والحلوم الوافية الرزينة. والمفتخرون بمفاخر الزينة؟. قبضت عليهم أيدي المنايا فظفرت. ونقلوا إلى أجداث ما مهدت إذ حفرت، ورحلوا بذنوب لا يدرى هل غفرت!! فالصحيح منهم قد سقم، والمدعو إلى دار البلى أسرع ولم يقم، والكتاب قد سطر بالذنوب فرقم، ولذيذ عيشهم بالتنغيص قد ختم، وفراقهم لأموالهم وأخبارهم قد حتم، والولد قد ذلّ بعد أبيه ويتم. فتفكر في القوم كيف رحلوا، وتذكر ديارهم أين نزلوا، واسأل منازلهم عنهم ماذا فعلوا. فانتبه من رقادك قبل أن تصل إلى ما وصلوا. أما يكفي في الهدى والإرشاد رحيل الآباء والأولاد؟. أما يشفى في الإيقاظ ونفي الرقاد؟.

عكس المشتهى ورد المراد. كيف يتم عرض في دار المكر والفساد؟.
أما أنتم عرض السهام النائبات الشداد فابكوا عليكم لا عليهم فهم فرط وأنتم ورّاد. وقد ختم هذا الكلام بشعر لم ينسبه لقائله. ولعله هو القائل له. منه قوله:

لنا كل يوم رنّة خلف ذاهب
ومستهلك بين النوى والنوائب

ونأمل من وعد المنى غير صادق
ونأمل من وعد الردى غير كاذب

نراعي إذا ماشيك أخمص بعضنا
وأقدامنا ما بين شوك العقارب

ونمشي بآمال طوال كأننا
أمنا بنات الخطب دون المطالب

نعم إنها الدنيا سموم لطاعم
وخوف لمطلوب وهم لطالب

وإنا لنهواها مع العذر والقلا
ونمدحها مع علمنا بالمعائب

ومن كانت الأيام ظهراً لرحله
فيا قرب ما بين المدى والركائب

تحل الرزايا بالرجال وتنجلي
ورب مصاب مقلع عن مصائب

○○○○○

حديث عن أبي هريرة رضي الله عنه فيمن يفعل الشيء ليذكر به!!

ويكاد يكون طلب العلم في زمننا هذا لمقاصد دنيوية بحتة أو هو كائن لدى السواد الأعظم من طلاب العلم.

وإن لم يكن لمقصد دنيوي فللشهرة كانوا يطمحون، أي ليقال: الدكتور فلان والمهندس فلان، والطبيب فلان، والسياسي فلان، والقائد فلان، ورجل الأعمال فلان، ولقد جاء في القصد من تحصيل العلم أو فعل الشيء من أجل الشهرة وذيوع السمعة حديث شريف يكشف نوايا الذين يفعلون الشيء ليذكروا به.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمة جاثية. فأول من يدعو به رجل جمع القرآن. ورجل قُتل في سبيل الله. ورجل كثير المال. فيقول الله للقارئ: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟. قال: بلى يا رب. قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار. فيقول الله له: كذبت. ويقول الله له: بل أردت أن يقال: فلان قارئ فقد قيل ذلك. ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يا رب. قال: فماذا عملت فيما آتيتك؟. قال: كنت أصل الرحم، وأتصدق. فيقول الله له: بل أردت أن يقال: فلان جواد. فقد قيل ذلك. ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله فيقول الله له: في ماذا قتلت؟. فيقول: أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت. فيقول الله له: كذبت. ويقول الله

بل أردت أن يقال: فلان جريء فقد قيل. يا أبا هريرة أولئك الثلاثة: أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة».

وبعد أن أورد صاحب كتاب «قرة العيون المبصرة بتلخيص كتاب التبصرة» هذا الحديث تحت عنوان «فضل العلم وشرفه» ذكر جملة أبيات لم يشر إلى قائلها منها هذه الأبيات:

أين الملوك وأبناء الملوك ومن
كانوا إذا الناس قاموا هيبة جلسوا

قد عمهم حدث وضمهم جدث
ماتوا وهم جثث في الرمس قد حبسوا

كأنهم قط ما كانوا ولا خلقوا
ومات ذكرهم بين الورى ونسوا

باللّه لو بصرت عيناك ما صنعتْ
أيدي البلى بهم والدود يفترس

من أوجه ناضرات حار ناظرها
في رونق الحسن منها كيف ينطمس

وأعظم باليات ما بها رمق
وليس تبقى وهذا وهي تنتهس

وألسن ناطقات زانها أدب
ما شأنها شأنها بالأفة الخرس

يا ذا النهى لا ترعوي سفهاً
ودمع عينيك لا يهمي وينبجس

○○○○○

متى وجدت الفكاهة وبرز نشاط الفكاهيين؟

ومن الأدباء من يرى ضرورة تطعيم المحاضرات والجلسات الأدبية بشيء من الفكاهة بل منهم من يعدها وسيلة من وسائل الترويح عن النفس والراحة للفكر.

والمفكرون وجميع أصحاب الأقلام من الكتاب والشعراء لا تخلو مكتباتهم من كتب الفكاهة. حيث يعمدون إليها عندما يشعرون بالملل الفكري أو السأم من القراءة أو ما إلى ذلك مما يرهق النفس فيجدون فيها متنفساً وفسحة وراحة.

أما متى وجدت الفكاهة فإن الباحث لا يقف عند نقطة معينة تحدد بدأها أو إشارة إلى أول فكاهة أطلقت. والمصادر الأدبية تكاد تشير إلى أن وفرتها وكثرة تداولها قد ظهر في عصر الدولة العباسية.

أما ظاهرة الاهتمام بقراءة الفكاهة والاستماع إليها فقد أوجدت تفكيراً لدى المؤلفين القدامى والمعاصرين معاً في تطعيم مؤلفاتهم بشيء من الطرف والملح والفكاهة التي تطرد السأم والملل عن قارئها.

فكتاب «الحيوان» للجاحظ مليء بالطرف و«البصائر والذخائر» لأبي حيان التوحيدي يتخلله الشيء الكثير من ذلك. و«يتيمة الدهر» للثعالبي لا تخلو من ذلك و«العقد الفريد» لابن عبد ربه الأندلسي يكثر فيه هذا النوع و«ربيع الأبرار ونصوص الأخبار» للزمخشري يحمل بين طياته أنواعاً من ذلك. و«محاضرات الأدباء» للأصبهاني. و«عيون الأخبار» لابن قتيبة. و«المستطرف» للأبشيهي. و«نفحة الريحانة» للمحبي. وغير ذلك من الكتب المشهورة.



ولعل الشعب المصري أكثر شعوب الدنيا مرحاً وحباً للنادرة وشغفاً بالفكاهة. وقد ظهر هذا واضحاً جلياً في الأدب المصري. من ذلك أن حامد سري وهو جار لشاعر النيل حافظ إبراهيم كان عنده عرس فأرسل إليه حافظ يستهديه ثياباً يلبسها، وطعاماً من طعام العرس في أبيات منها قوله:

أحامد كيف تنساني وبيني
وبينك يا أخي صلة الجوار

أيشبع مصطفى الخولي وأمسي
أعالج جوعتي في كسر داري

وبيتي فارغ لا شيء فيه
سواي وإنني في البيت عارِ

ومالي (جزمة) سوداء حتى
أوافيكم على قرب المزار

وعندي من صحابي الآن رهط
إذا أكلوا فآساد ضواري

فإن لم تبعثن إليّ حالاً
بمائدة على متن البخار

تغطيها من الحلوى صنوف
ومن لحم تتبل بالبهار

فإني شاعر يخشى لساني
وسوف أريك عاقبة احتقاري

ooooo

الأقيشر.. هو المغيرة بن عبد الله

ولقّب المغيرة بن عبد الله بن معرض بن عمرو بن أسد بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بالأقيشر؛ لأنه كان أحمر الوجه أقشر. أما كنيته فقد كان يكنى أبا معرض. وقد قيل :إنه يغضب من لقب الأقيشر ولا يرضى أحداً يدعوه به. وذكر أنه عمر طويلاً.

وقال صاحب «الأغاني»: إنه عاش في الكوفة خليعاً ماجناً مدمناً لشرب الخمر، وقد لا يكون هذا الخبر صحيحاً لأن قول صاحب «الأغاني» لا يعتد به، والكثير من أصحاب الأقلام لا يعد كتاب «الأغاني» مرجعاً صحيحاً وذلك لما فيه من تحامل واضح وتهم باطلة ألصقها بكثير من الأعلام التي ترجم لها. ونعود إلى الأقيشر فنرى أنه يذكر أنه كان يشرب الخمر وينفق جميع ما يحصل عليه من هبات في شرائها. وقد اختار من شعره ما فيه ذكر الخمر والإعلان عن شغفه بها والإدمان على شربها.

قال الأصبهاني: مرّ رجل يقال له قريظة بن يقظة من بني محارب بالأقيشر وهو يشرب خمراً فسلم على الأقيشر وكان به عارفاً فقال القوم للأقيشر: من هذا يا أبا معرض؟. فقال: لا أستطيع أن أذكر اسمه ونسبه في يوم واحد فإن شئتم سميته اليوم ونسبته غداً وإن شئتم نسبته اليوم وسميته غداً، لأن اسمه ونسبه أعظم من أن أقدر على ذكرهما في يوم. فقالوا: هات اسمه اليوم. فقال: قريظة. فقال رجل من جلسائه: ينبغي أن يكون ابن يقظة. فقال الأقيشر: صدقت والله وأصبت ولقد أثقلني اسمه حين ذكرته أن أقول: نعم. فبلغ قريظة قوله وكان قريظة

شاعراً فقال:

لسانك من سكر ثقيل عن التقى
ولـكـنـه بـالـمـخـزيـات طـلـيـق

وأنـت حـقـيـق يـا أقـيـشـر أن تـرى
كـذاك إذا مـا كـنـت غـيـر مـفـيـق

تـسقّ من الـصـهـبـا صـرفـاً تـخـالـهـا
جنى النحل يـهـديـه إليـك صـديـق

فبلغ الأقيشر قول قريظة المحاربي وكان يكنى أبا الذيال فأجابه، الأقيشر:

عـدمـت أبـا الـذيـال مـن ذي نـوالـة
لـه فـي بـيـوت الـعـاهـرات طـريـق

أبا الخمر عيّرت امرأً ليس مقلعاً
وذلـك رأي لـو عـلـمـت وثـيـق

سـأشـربـهـا مـا دمـت حـيـاً وإن أمـت
فـفـي الـنـفـس مـنـهـا زفـرة وشـهـيـق

وعن شرب الخمر يقول الأقيشر برواية الأصبهاني أيضاً:

لا أشـربـن أبـداً راحـاً مـسـارقـة
إلّا مـع الـغـر أبـنـاء الـبـطـاريـق

أفنى تلادي وما جمعت من نشب
قـرع الـقـواقـيـز أفـواه الأبـاريـق

○ ○ ○ ○ ○

أم كلثوم قيثارة العرب

أُلّفت عن المطربة أم كلثوم عدة مؤلَّفات واعتنى أصحاب الأقلام التي تجوب الساحة الفنية بالإضافة إلى أصحاب الأقلام الأدبية بتنميق ترجمة حياة أم كلثوم. فهناك مؤلَّف عنوانه: «حياة وأغاني كوكب الشرق أم كلثوم» صادر عن منشورات دار مكتبة الحياة ببيروت، وفيه تفصيلات عن حياتها بالإضافة إلى معظم القصائد التي تغنت بها. وهناك مؤلَّف آخر عنوانه «أم كلثوم قيثارة العرب» وهو من منشورات دار الآفاق الجديدة ببيروت. وهو مليء بالصور وبعض الأخبار الخاصة بحياة أم كلثوم ونشاطاتها الفنية هذا ما اطلعت عليه وأخال هناك الكثير عنها. والحقيقة التي لا يمكن إنكارها أن أم كلثوم برزت بروزاً واضحاً على مسرح الحياة الفنية واشتهرت شهرة ليس لها مثيل في العالم.

ولأم كلثوم أقوال في فنها، منها قولها: المسؤول عن نجاح الأغنية ثلاثة: المؤلف، والملحن، والمغني. وقولها: الأغنية المقتبسة من الألحان الغربية هي مسخ الأغنية العربية.

وقد سئلت أم كلثوم، أي أغانيها أفضل؟. فأجابت بأنها لا تقدم واحدة على الأخرى ولكنها تحب (جبل التوباد). ولأم كلثوم ميل إلى التغني بالشعر الفصيح وتميل إلى أشعار أحمد شوقي.

وأحمد شوقي قد أدرك ما هو قائم في عصره من تنافس بين المطربين، فحرص على أن لا يساهم في ترجيح كفة على أخرى إلا أنه معجب بمحمد عبد الوهاب وأم كلثوم على حد سواء غير أنه يربأ بنفسه عن تأييد واحد منهم وتفضيله على الآخر. ويقال: إنه نظم قصيدة لأم

كلثوم. ورد في أبياتها اسم أم كلثوم مرتين ولكنه في آخر لحظة استبدل الاسم بكلام آخر.

وقد أجرى التبديل خوفاً من أن يُنسب إليه التحيز لها فشطر أحد الأبيات (سل أم كلثوم من بالشجو طارحها)، فبدلها إلى: (حمامة الأيك من بالشجو طارحها)، وشطر آخر جاء فيه: (يا أم كلثوم أيام الهوى ذهبت) فبدله إلى: (يا جارة الأيك أيام الهوى ذهبت).

الجدير بالذكر أن أم كلثوم ماتت في ١٣ فبراير عام ١٩٧٥م، أما القصيدة التي حدث فيها التبديل فهي «سلوا كؤوس الطلا»، ومنها قوله:

سلوا كؤوس الطلا هل لامست فاها
واستخبروا الراح هل مسّت ثناياها

باتت على الروض تسقيني بصافيه
لا للسلاف ولا للورد رياها

ما ضر لو جعلت كأسي مراشفها
ولو سقتني بصافٍ من حمياها

هيفاء كالبان يلتف النسيم بها
ويلفت الطير تحت الوشى عطفاها

حديثها السحر إلا أنه نغم
جرت على فم داود فغناها

حمامة الأيك من بالشجو طارحها
ومن وراء الدجى بالشوق ناجاها

ألقت إلى الليل جيداً نافراً ورمت
إليه أذناً وحارت فيه عيناها

وعادها الشوق للأحباب فانبعثت
تبكي وتهتف أحياناً بشكواها

المعلم

والحديث عن المعلم لا يمل بل لا ينتهي. وقد تولى القول فيه الناثر والشاعر وكلهم يكيل الثناء ويوفي في الكيل، ويمجدون مهنته أي تمجيد. ولا غرو في ذلك، بل ليس مستغرباً فهو أهل له. وهذا في نظري اعتراف منهم بأنه هو الذي فتق أذهانهم وجعلهم يعرفون كيف يعبرون عن الأشياء بأقلامهم الدريّة، ويبوحون بمشاعرهم التي من بينها ذلك المديح الذي يوجهونه للمعلم في أسلوب أدبي.

وقد يجد المعلم من كثرة ملازمته لتلاميذه والتصاق اسمه في مخيلتهم لطول مجالستهم لهم ما يجعلهم يذكرونه في كل مناسبة حتى إنه ليكون موضع ظرفهم وأحاديثهم الشيقة. فهم كثيراً ما ينسبون إليه أشياء فيها ما فيها من الذكاء والفطنة، وفيها ما فيها من الغباء والسذاجة. ولهذا فهو عند كثير من الأدباء المتعشقين للطرف الأدبية كجحا لدى المغرمين بحب صنع الفكاهة.

أما الذي يريد الحديث عن المعلم وفضله فإنه يجد في ذاتية المعلم مادة ومنهجاً موضوعياً يعبق بالأدب ويمد القلم بأزكى أنواع المعرفة والثقافة ويكفي المعلم شرفاً وعزة ورفعة في مجتمعه هذا الاسم (المعلم).

ولقد تناولت في كتابي هذا «الأدب المثمن» الحديث عن المعلم أكثر من مرة، وسوف أواصل الحديث عنه ما أمكنني ذلك وتهيأت لي الفرصة. أما في هذا الموضوع فسأستعرض أبياتاً من قصيدة نشرتها «المجلة العربية» للشاعر السوري عز الدين سليمان في عددها ١٥٣، شوال سنة ١٤١٠ هجرية، منها قوله:



يخضر في شفة الحزين عذاب
ويرف في عين الغريب عتابُ

هذي الدهور العابقات بمجدها
من كفه؟ هل تنكر الأحقابُ

وذراه عالقة بأجفان السُّها
يصبو إلى أذيالهن عقاب

عيناه جرح غمامتين وقلبه
نبع وكل العالمين تراب

يسقي فينداح الربيع لغيره
نِعَماً ويسبح في يديه يباب

ما همه ركب يسير وراءه
وأمامه زحم الركاب ركاب

ما همه لقب يدوّي في المدى
تهوي على أقدامه الألقاب

وصحابه إضمامة من نرجس
تندي أريجاً إذ يجف صحاب

○ ○ ○ ○ ○

هل من نادمٍ على معصية أو كفر؟!!

والندم على فعل المعاصي يجر إلى الإقلاع عنها. ومن نوى التوبة سهل الله طريقاً للخلاص مما وقع فيه من المعاصي والآثام. لكن من الذي يحدّث نفسه بالتوبة من المعاصي؟. إنه الذي يحسن الظن بالله، ويدرك معنى قوله تعالى في سورة آل عمران الآية ١٣٥، ١٣٦: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾.

ومن ذا الذي ييأس من رحمة الله وغفرانه وهو لم يشرك بالله. والله يقول في محكم كتابه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨]. وقال في نفس السورة آية ١١٦: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾. فهل من نادم على معصية؟. وهل من نادم على كفر؟ وهل من ملجم لسانه عن ذكر أفعال من رجع وتاب وأناب؟. وهل من نادم على فاحشة ارتكبها؟. وهل من نادم على تضييع جنب الله؟. إن الإصرار على الكفر بالتعليلات الواهية خسران وخزي في الدنيا وعذاب أليم في الآخرة.

والذين يعيرون من تاب وآمن بسابق أعماله ويعيبونه بمعاصيَ قد أقلع عنها وآثام تجنبها قد يكونون سبباً في رجعته إلى ما تاب عنه.

وهؤلاء لا شك في أنهم يدخلون في عقاب من يؤذي المسلمين، وينفّر من الإسلام.

عن إسماعيل بن حكيم قال: بعثني عمر بن عبد العزيز حين ولي في العذاء فبينما أنا أجول في القسطنطينية إذ سمعتُ صوتاً يقول:

أرقــت وغــاب عــنــي مــن يــلــوم
ولــكــن لــم أنــم أنــا والــهــمــوم

كــأنــي مــن تــذكــر مــا ألاقــي
إذا مــا أظــلــم الــلــيــل الــبــهــيــم

ســلــيــم مــلّ مــنــه أقــربــوه
وودعــه الــمــداوي والــحــمــيــم

قال إسماعيل: فسأله من أنت؟. فقال: أنا الواصبي الذي أخذت فعذبت فجزعت فدخلت في دينهم. فقلت: إن عمر بن عبد العزيز بعثني في العذاء وأنت والله أحب من أفديه إليّ إن لم تكن بطنت في الكفر. وقلت له: أنشدك الله أسلم. فقال: أسلم وهذان ابناي!! فقد تزوجت امرأة وهذان ابناها. فإذا دخلت المدينة قال أحدهم: يا نصراني، وقيل لولدي وأمهم كذلك. لا والله لا أفعل. فقلت: قد كنت قارئاً للقرآن فما بقي معك من القرآن؟. فقال: لا شيء إلا هذه الآية: ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾.

وقد أطال صاحب كتاب «قرة العيون المبصرة بتلخيص كتاب التبصرة» الكلام في هذا الفصل، وختمه بأبيات منها:

بـذكـرك يـا مـولـى الـورى نـتـنـعـم
وقد خاب قوم عن سبيلك قد عموا

شـهـدنـا يـقـيـنـاً أن عـلـمـك واسـع
فأنت ترى ما في القلوب وتعلم



إلـهي تـحـمّـلـنـا ذنـوباً عـظـيـمـة
أسـأنـا وقـصّـرنـا وجـودك أعـظـم

سترنا معاصينا عن الخلق غفلة
وأنـت تـرانـا ثـم تـعـفـو وتـرحـم

وحـقـك مـا فـيـنـا مـسـيء يـسـره
صـدودك عـنـه بـل يـخـاف ويـنـدم

○ ○ ○ ○ ○

التحسس عما يسعف يوم المعاذير!!

وننفض أيدينا من غبار تراب دفن موتانا، وكأن شيئاً لم يكن. فلا نعتبر ولا نتذكر أننا ماضون إلى ما مضوا إليه، ومفضون إلى ما أفضوا إليه. زلاً نلقي على ما وراء الموت نظرة نتفحص بها مكاننا من الآخرة. وهل لدينا رصيد يخوّلنا أو يمكننا من تصور المصير وتحسس النجاة يوم الحشر، أو يحثنا على مساءلة أنفسنا. عمّاذا قدمنا مما عساه يسعفنا يوم المعاذير؟.

والحقيقة أن الكثير منا لو رجع إلى نفسه لوجد أنه يعيش في غفلة تسبح فيها آماله فلا يأبه بموت قريب ولا يتأهب ليوم الرحيل.

لقد قرأت فيما له علاقة بما أسلفت أقوالاً كلها تدعو إلى التفكير في المصير والتحذير من الغفلة والتسويف والتبرير في تأخير الشروع فيما يسعد في الآخرة. منها قول أحدهم: أيها الباكي على أقاربه الأموات. اِبْكِ على نفسك فالماضي قد فات. وتأهب لنزول البلايا وحلول الآفات، وتذكر قول من إذا ذكرك قال: مات. اِبْك على نفسك لا على موتاك. فكأنك بما آتاهم قد أتاك. ولقد صاح بك نذيرهم: أنت في غدك كذاك. وليقتلنك الذي قتل من قبل أباك. وليخرسنّ بسطوته إذا وافاك فاك. وإنما اليوم لهذا وغداً لذاك. إخواني، فرس الرحيل مسرج وإلى وادي القبور المخرج. والنعش المركوب بعد الهودج. كم قتيل للموت مضرج. ما هتف بمقيم إلّا وأدلج. ولا استدعى نطق فصيح إلّا تلجلج. سلوا عن الجيران المنازل. وقولوا لها: أين النازل بالله ما تجيب السائل.

إخواني. الدنيا ظل زائل، وحال حائل، وركن مائل، وسم قاتل، ورفيق خاذل، ومسؤول باخل. كم تِعدُ الدنيا وكم تماطل، كل وعدها غرور وباطل. تالله ما فرح بالدنيا عاقل. شعراً:

أودّع في كل يوم حبيباً
وأهدي إلى الأرض شخصاً غريبا

وأرجع عنه جميل العزا
أمسّح عن ناظريّ الغروبا

كأني لم أدر أن السبيل
سبيلي وأني ملاق تعوبا

وإن ورائي سوقاً عنيفاً
وإن أمامي يوماً عصيبا

ولا أنني بعد طول البقاء
أصاب كما أن غيري أصيبا

قعدت بمدرجة النائبات
يمر الزمان علي الخطوبا

بمن أتسلى وأيدي المنون
تخالس فرعي قضيباً قضيبا

○○○○○

نادرة الفواجع!!

ما من أحد من الناس على هذه البسيطة إلّا وقد مسه حزن على فقد حبيب أو قريب. وعن هذه العمومية لشمول الحزن. أذكر أنني قرأت أن الإسكندر عزّى والدته في وفاته وهو ما زال حياً. حيث كتب في مرضه الذي مات فيه وصية غريبة في نوعها. حيث طلب إلى والدته في وصيته تلك أن تقيم مأدبة إثر وفاته وتدعو إليها أقاربها ومعارفها ومن تشاء من الناس على أن لا يحضر إلى المأدبة من مسه حزن على فقد حبيب أو قريب أو صاحب أو صديق. فلما مات الإسكندر أقامت والدته مأدبة عشاء تنفيذاً لما جاء في الوصية ووجَّهتِ الدعوة المشروطة بالشرط الآنف الذكر. ولما حان وقت العشاء لم يأت إليها أي مدعو، فعرفت أنه ما من أحد إلّا وقد ذاق مرارة الحزن، فهانت عليها المصيبة.

أما الظروف، ومكانة المفقود من النفس، وأسباب الموت. فهي أمور لكل منها ميزة في التأثير ولكل منها مقدار من حجم الحزن، بل لكل منها صدمة خاصة في نفس المصاب.

ولعل من أقوى صدمات الحزن، وأندر مفاجآت المنية جنبني الله وإياكم وقوعها، موت العروس أو العريس ليلة الزفاف. وكيف لا تكون نادرة الفواجع وبها ينعكس الفرح في لحظة إلى ترح وتتبدل الابتسامة في طرفة عين بالبكاء والعويل، وتتحول البهجة ومظاهر السرور في هنيهة إلى عبوس وكآبة وانكسار نفس وحزن.

والشاعر العراقي علي الشرقي كان ممن أصيب بتلك الفجيعة

النادرة الوقوع في مثل تلك المناسبة حيث وافت المنية عروسه ليلة الزفاف فتحول الفرح إلى مأتم، والسرور إلى حزن وذلك عام ١٩٢١م كما هو مشار إليه في مقدمة القصيدة التي قالها بتلك الحادثة وجعل عنوانها: «شمعة العرس» وهي مدونة في ديوانه «ديوان علي الشرقي» ويبلغ عدد أبياتها عشرين بيتاً منها قوله:

شمعة العرس ما أجدت التأسي
أنت موقودة ويطفأ عرسي

أنت مثلي مشبوبة القلب لكن
من سناك المشؤوم ظلمة نفسي

يا رعى اللّه للزفاف شموعاً
يتهافتن حول نعش ورمس

عكست حظها الليالي فذابت
خجلاً تسقط الدموع بهمس

هكذا ذاب باحتراق فؤادي
هكذا سورة الدموع برأسي

ومنها قوله:

الرجا كان شمعة فتلاشى
وانطفأ صارم الرجاء بيأس

أجفلت دهشة المصاب الغواني
فتطالعن من ستور الدمقس

ومنها قوله:

أبدلوها عن المنصة نعشاً
طالما ضم رب عرش وكرسي

الحطيئة.. هو جرول بن أوس

والحطيئة هو جرول بن أوس بن مالك بن جؤبة بن مخزوم بن مالك بن غالب بن قطيعة بن عبس بن بغيض بن الريث بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار. وهو من فحول الشعراء ومتقدميهم وفصحائهم متصرف في جميع فنون الشعر من المديح والهجاء والفخر والنسيب. وهذه السلسلة من نسبه لم يذكرها كثير من محققي ديوانه كما ذكرها الأصبهاني في كتاب «الأغاني».

. أما عن تلقيبه بالحطيئة فقد أغفل هو الآخر من قبل بعض المحققين لديوانه وقد ذكر الأصبهاني عدة تعليلات لتلقيبه بالحطيئة منها أن السبب في ذلك قصره وقربه من الأرض. وفي رواية أخرى أنه لقب بالحطيئة لأنه ضرط ضرطة بين قوم فقيل له: ما هذا؟. فقال: إنما هي حطأة فسمي الحطيئة. ومما ذكر عن الحطيئة أنه ادَّعى غير أبيه وقال: أنا ابن عمرو بن علقمة أحد بني حارث بن سدوس. وقيل: إنَّه كان ينتمي إلى بني ذهل بن ثعلبة. وروي عن الأصمعي أن الحطيئة كان يضرب بنسبه إلى بكر بن وائل. أما أمه فيقال لها: الضراء أحد إماء أوس بن مالك.

وعن بخل الحطيئة. روي عن أبي عبيدة أنه جعل الحطيئة رابع أربعة من بخلاء العرب. هم: حميد الأرقط، وأبو الأسود الدؤلي، وخالد بن صفوان. ومن صور بخله أن ابن الحمامة مرّ به وهو جالس بفناء بيته فقال: السلام عليكم. فقال الحطيئة: قلت ما لا ينكر. قال ابن الحمامة: إني خرجت من أهلي بغير زاد. فقال: ما ضمنت لأهلك قراك. قال: أفتأذن لي أن آتي ظل بيتك فأتفيأ به؟. قال: دونك الجبل يفيء عليك. قال: أنا ابن الحمامة. قال له: انصرف وكن ابن أي طائر شئت.

وقال المدائني: أتى رجلٌ الحطيئة وهو في غنم له فقال له: يا صاحب الغنم. فرفع الحطيئة العصا وقال: إنها عجراء من سلم. فقال الرجل: إني ضيف. فقال الحطيئة: للضيفان أعددتها. فانصرف عنه.

وفي رواية للأصمعي ذكرها الأصبهاني: أنه ما نزل ضيف قط بالحطيئة إلّا هجاه. فنزل به رجل من بني أسد لم يسمه الأصمعي. وذكر أبو عبيد: أنه صخر أحد بني أعياء بن طريف بن قعين. فساقه شربة من لبن. فلما شربها قال:

لما رأيت أن من يبغي القرى
وإن ابن أعيا لا محالة فاضجي

سددت حيازيم بن أعيا بشربة
على ظمأ شدت أصول الجوانح

ولم أك مثل الكاهلي وعرسه
بغى الود من مطروفة العين طامح

غدا باغياً يبغي رضاها وودها
وغابت له غيب امرئ غير ناصح

دعتْ ربها أن لا يزال بفاقة
ولا يغتدي إلا رأي حد بارح

فأجابه صخر بن أعياء فقال:

ألا قبّح اللّه الحطيئة إنه
على كل ضيف ضافه هو سانح

دفعت إليه وهو يخنق كلبه
ألا كل كلب لا أبالك نابح

بكيت على مذق خبيث قريته
ألا كل عبسي على الزاد شائح

البعث وجانب من أهوال يوم القيامة!!

قال صاحب كتاب «العيون المبصرة في تلخيص كتاب التبصرة»: اعلم أن في القيامة أهوالاً كثيرة ومزعجات شهيرة، فأول ذلك الصور: ينفخ فيه النفخة الأولى فيموت الخلائق وتسير الجبال وتكوّر الشمس والقمر. ثم ينفخ فيه النفخة الثانية لقيام الخلق من القبور.

وقد ورد ذكر الصور في عشر آيات من القرآن الكريم منها قوله تعالى في سورة الزمر آية ٦٨: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾. وفي سورة ق آية ٢٠: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾﴾. وفي سورة يس آية ٥١، ٥٢: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾. وفي سورة النبأ آية ١٨: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾. وفي سورة المؤمنون آية ١٠١: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾. وفي سورة طه آية ١٠٢: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾﴾.

وقد اختلف في معنى الصور. قال الطبري في تفسيره: والصواب عندي هو ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن إسرافيل قد التقم الصور وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ». وأنه قال: «الصور قرن ينفخ فيه».

أما عن صفة البعث فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «يُنزّل الله عزّ وجلّ ماء من تحت العرش يقال له: الحيوان،

وتمطر السماء أربعين يوماً حتى يكون الماء فوقكم اثني عشر ذراعاً فتنبت الأجساد كنبات البقل أو كنبات الطراثيث حتى تكامل أجسادكم فتكون كما كانت. ثم يدعو الله عزَّ وجلَّ بالأرواح فيؤتى بها فتخرج كأمثال النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض، فيلقيها في الصور فأرواح المؤمنين تتوهج نوراً والأخرى مظلمة، فتدخل الأرواح في الخياشيم فتدب دبيب السم في اللديغ؛ ثم يقول الله عزَّ وجلَّ: لِيَحْيَى حملة العرش فيحيون؛ ثم يأمر الله إسرافيل فيقبض الصور فينفخ في الصور فيخرجون حفاة عراة غرلا».

قال قتادة: ينادي الملك على صخرة بيت المقدس: أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة إن الله يأمركم أن تجتمعوا لفصل القضاء.

وفي حديث أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات؛ فأما عرضتان: فجدال ومعاذير. وأما الثالثة: فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي فآخذ بيمينه وآخذ بشماله». وقد قيل شعر في الغفلة عن تذكُّر بعث وأهوال يوم القيامة منه قول أحدهم:

ومن عجب الأشياء أنك تعلم
بأنك مأخوذ بما تتجرم

وأنت على ما أنت غير مقصِر
ولا مقلع بما عليك تحرم

كأنك في يوم القيامة آمن
إذا برزت للمجرمين جهنم

فلا تغتر بالعمر إن طال واعتبر
فإنك لا تدري متى يتصرم

وتسكن بيتاً غير بيتك مظلماً
وما فيه مشروب ولا فيه مطعم

وتترك ما قد كنت فيه محكماً
وغيرك فيه لو علمت المحكم

وتأتي غداً من بعد يسرك معسر
وما لك دينار وما لك درهم

فإن كنت قد قدمت من قبل صالحاً
فإنك من هول القيامة تسلم

○ ○ ○ ○ ○

العلم بواقع الجهلة.. ثقافة!!

قال محدثي: وكثيراً ما يجمعني بأحد أقاربي مجلس شعبي تتشعب فيه الأحاديث التي يتخللها عادة استعراض سيرة ذاتية أو ترجمة عامة لحياة رجل ممن نعرفه.

وفي ذات مرّة كان الحديث عن إمام مسجد جامع لا يحسن قراءة القرآن ولا يخرج حروفه من مخارجها ولا يلفظ في كثير من الأحيان كلماته مشكولة كما هي. وإنما يقرأ ما جُرَّ بالرفع وما رُفع بالجر. ومع هذا لا يقبل نصحاً ولا توجيهاً. إلّا أن له صوت جميل وله جاذبية تجتر إليه من هم في مستواه من الجهل. فكان إعجاب قريبي شديد وقد بلغ به هذا الإعجاب مستوى المنافحة عنه بأسلوب همجي وألفاظ سوقية ينتصر بها على أي أديب يطهر لسانه عن الألفاظ السوقية.

قلت: والأديب يستفيد من مثل هذه المواقف ويدرك أن الجاهل لا يقف إلى جانبه إلّا جاهل مثله. لأن حكم التجانس في الفهم والمستوى الفكري جعل قريبك هذا يجعل من ذلك الإمام رجلاً فاضلاً. لأنه لا يعرف مفهوم الفضيلة وأدبها ولا معنى العلم وقيمته.

قلت: وأقول أيضاً: إن هذه الأمور تفيد الأديب وتجعله يدرك بأن الجاهلين لأهل العلم أعداء فيعض شفتيه أو يصك أسنانه حتى لا ينبس ببنت شفة في مجلس فيه مثل قريبك فلا يدخل معه في مناقشة تقويم سيرة أي رجل كان، إلّا إذا كان راضياً بالنزول عن أدبه والتخلي عن تأدبه.

قلت أيضاً: ومن زاوية أخرى ربما اعتبر الأديب مخالطة الجهلة معلومة يضيفها إلى معارفه ويزيد بها في سعة دئراة ثقافته المتعلقة بمفهوم الجهل وحالة الجهلة.



قلت أيضاً: ولا إخال الأديب من زاوية تعلّم الصبر والتعوّد عليه إلّا راداً على من يلومه حينما يراه يناقش جاهلاً بما قاله ذلك الذي تزوج امرأة سليطة اللسان كثيرة المشاجرة فسئل عنها؟، فقال: هي بسلوكها هذا.. تعلمني الصبر.

لكنني أقول: مهما يكن من أمر فإن التزام الرجل لأدب الحديث أدب. والارتفاع بالعلم. علم، وعلى رأي الشاعر العراقي علي الشرقي في قصيدته التي عنوانها: «العلم وحده»، والتي منها قوله:

العلم للمجد والعليا مرشدنا
المرشدان له عقل ووجدان

ومنها قوله:

يا سلطة الجهل طيَّ العاصف اندرجي
بشر الرعية إن العلم سلطان

زِنْ فيه رهطك إن خفوا وإن رجحوا
قسطاً وعدلاً فإن العلم ميزان

المنهل العذب إن عَبَّت جداوله
عجبتُ إن قيل فوق الأرض ظمآن

هون عليك أناساً لا علوم لهم
لا خير في القوم إن عزوا وإن هانوا

ومنها قوله:

تشَارَكَ اثنان في أصل وفي حسب
والقدر مفترق والفضل شتان

تفارقا وهما ابن بارعٌ وأب
مجداً كما افترقا جهل وعرفان

لا يلقف الجهل إلّا العلم إن به
نوراً له في ضمير الجهل نيران

الشعوبيون.. منهم إخوان.. ومنهم أعداء

والشعوبيون هم قوم تركوا بلادهم لأي سبب كان ولجؤوا إلى بلاد أخرى لجوءاً جعلهم ينسلخون من قبائلهم ويعيشون قلةً بين قبائل البلاد التي لجؤوا إليها وتشعّبوا بين قبائلها الأصلية تشعباً أفقدهم التمسك بأنسابهم الأصلية. الأمر الذي جعلهم يحاولون الانتماء إلى أصول قبائل تلك البلاد التي قدموا إليها واستوطنوها. وذلك مثل ما حدث للأعاجم وغيرهم في بلاد العرب حيث اتسعت رقعة مملكتهم تحت راية الإسلام. فاستعربت ألسنة كثير من أهل بلاد فارس والهند والسند وغيرهم من الأعاجم فكان منهم أعلام في اللغة العربية والدين. وهذه الفئة ما تركت قومها ولغتها إلّا من أجل رفعة الإسلام. فلها منا الكرامة. ولها منا الدعاء بالمثوبة.

ولو استنطقنا التاريخ منذ قدومهم إلى بلاد العرب إلى يومنا هذا لثبت أنه لم تقم بيننا وبينهم فوارق. وذلك لأمرين الأول منهما: أن الدين قد جمع بيننا وبينهم فصرنا وإيّاهم إخواناً متحابين في الله. أما الأمر الثاني: فإن اختيارهم بلادنا ورغبتهم في التعايش معنا يوجب لهم حقاً يطمس العنصرية بجميع أشكالها وألوانها.

لكن هناك فئة تغتبن وتمتاز غيظاً مما نحن فيه من سعادة ورخاء عيش وأمن واستقرار فيحرك فيها الاغتبان عرق الشعوبية الذي لم تخدّره روابط الدين فتسري في دمائها النعرات الصابئة عن الإسلام. فتأخذ في تشكيل تجمعات تتدارس فيما بينها وبلغتها كل أمر يسيئ إلينا نحن العرب. ولعل أول باب طرقته تلك الفئة هو محاولة إفساد اللغة العربية وتعطيلها بإدخال لهجاتهم عليها، لأنهم يدركون أن في إفساد لغتنا



سيطرة لهم وضعفاً لنا، ولهذا كثر التحذير من دسائس الشعوبيين. وتوالت التوصيات بأخذ الحيطة. مما تنتجه أفكارهم المعادية لتكون مجابهة تحبط نواياهم وترد كيدهم في نحورهم. ولقد أطربني ما خاطب به الشاعر أحمد الصافي النجفي الشعوبيين المتطرفين الذين يظهرون حقدهم وعداوتهم. وذلك في قوله من قصيدة له:

تهدّمون ولكن مجدنا باقٍ
يا منتمين إلى آلاف أعراق

كم رام تهديمنا ماضون فانهدموا
ومجدنا مشرق في كل إشراق

شمس العروبة من ينكر أشعتها
أعطت له ألف برهان بإحراق

تغضون عنا وإنا رغم أعينكم
نسير منكم بأفكار وإحداق

ألفاظنا ومعانينا وشرعتنا
قد طوّقتكم مدى الدنيا بأطواق

ومنها قوله:

نلتم بآدابنا فناً وتغذية
وتضمرون لنا غدراً بأعماق

يا جاهلين أيادينا وأنعمنا
وقاطعين يديْ معطٍ ورزاق

كالطفل عض عقوقاً ثدي والدة
شتان شتان بين البر والعاق

رأي النجفي في الخيّام والمعرّي

يعدّ التّطَرفُ في أي أمر مسلك سيئ. كما تعدّ المبالغة الشديدة في أي أمر تزمتاً يفضي بصاحبه في غالب الأحيان إلى وسوسة تنحدر به إلى ما لا يقبله العقل ولا يقره المنطق. أما عن التوغل في العناد الذي لا يستند إلى أدلة فإنه ينتهي بصاحبه إلى الهزيمة والفشل.. وكذلك المبالغة في عدم المبالاة بالقيم الإنسانية فإنها تعني في مفهومها الانحطاط والتخلي عن العقل، وتعطل الإرادة وتحجر الإدراك.

وقد تتدخل الفلسفة في تحقيق تلك السلبيات فتغلّفها بغلاف ينخدع به الكثير من الناس، فيتعرضون إلى انتقادات حادة بل إلى مثالب لا يمكن دفعها أو إنكار صحة ممارستهم لها.

والشعراء كثيراً ما يكون لهم آراء تتعمق في نفوس الناس حتى تصبح مدرسة لها مؤيدون ومعارضون. ولهذا وجدت المقارنات بينهم، ورصدت المفارقات القائمة بينهم. فمنهم من وصف بالاكتئاب، والتشاؤم من الحياة. ومنهم من وُصف بالاستهانة بالحياة والاستخفاف بقيمها.

والشاعر أحمد الصافي النجفي جاء بشبه مقارنة بين أبي العلاء المعري وعمر الخيّام في قصيدة تبلغ نحواً من أربعة وأربعين بيتاً عنوانها: «افرح». وذلك بقوله:

لا تــكــتــئــب كــالــمــعــري
ولــتــهــن كَــالــخــيَّــام

كــلاهــمــا الــيــوم ذكــرى
تــعــيــش تــحــت الــرجَــامِ



تخالفا في طريق
تساويا في الختام

هذا عيون ورؤيا
وذا عمىً تعامِي

كلاهما رهن شك
في الكفر والإسلام

لكن ذا لانهزام
دعا وذا لاغتنام

لذا جهنم دنيا
تتلى بعقبي ضرام

وذاك جنة دنيا
له ونار إثام

○ ○ ○ ○ ○

تضرع

والمسلم يلجأ دائماً وأبداً ودونما انقطاع إلى التضرع إلى الله، وطلب العون في كل حال.

وعلى لسان المؤمن تترد هذه العبارات وما في معناها (يا مجيب المضطر إذا دعاه. يا مجيب الدعوات.. يا قريب مجيب.. - يا سميع. يا مجيب) وهذا يعني الإيمان الصادق بأن الله معه في كل توجهاته، وحركاته وسكناته وأنه يعلم ما يخفي وما يعلن.. وأنه إليه يرجع الأمر كله.

فله جل شأنه وتقدست أسماؤه وصفاته تسبح جميع الكائنات. قال تعالى في سورة الإسرء آية ٤٤: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾. وقال تعالى في سورة النور آية ٤١: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾. والإنسان هو الذي من بين جميع المخلوقات تدخر له حسناته وسيئاته ثم يجازى بكل ما اكتسب منها يوم الحشر والبعث الأبدي، فإما شقاء وعذاب، وإما نعيم وحسن ثواب.

والتضرع إلى الله، ومناجاته في السراء والضراء، والفزع إليه دون سواه عندما تحل بالمرء نازلة صفة من صفات المؤمن بالله. المسلِّم أمره لله.

ولهذا نجد تراث الصالحين الذين خلّفوا لنا مؤلفات تشتمل على آداب الدنيا والدين مليئاً بألوان الدعاء، والتوكل وطلب العون من الله.



وذلك بدليل أننا لا نجد توطئة لمؤلَّف قديم من مؤلَّفات المسلمين إلا ويستفتحها بعبارات سجعية جميلة كلها تضرع وتوجه إلى الله بأن يمده بعونه.

والشعراء لا يقلون في توجهاتهم إلى الله في أعمالهم عن أولئك المؤلفين. بدليل أنهم خلّفوا قصائد كلها مناجاة وتضرع. وهذا الشاعر علاء الدين بن مليك الحموي المتوفى سنة ٩١٧ هجرية، يقول في مقدمة إحدى قصائده التي امتدح بها رسول الله ﷺ:

يا رب عفواً فإني وجل
وليس لي صالح يرجى ولا عمل

وجئت بابك يا مولاي مفتقراً
إلى غناك وقد ضاقت بي الحيل

ولم أجد لي سبيلاً في مدافعة
وبي تقطعت الأسباب والسبل

ولم أكل في الورى أمري إلى أحد
وليس إلّا عليك العبد يتكل

فاقبل إلهي معاذ يري وجد كرماً
فحبل جودك بالخيرات متصل

واسمع نداي فإني لم أزل أبداً
إليك في سائر الحالات أبتهل

واغفر ذنوبي وزلاتي التي عظمت
وحملتني ما لا كنت أحتمل

فإن جودك يمحوه وإن كثرت
لو أن عنها يضيق السهل والجبل





فهرس المجلد الرابع